فن الخطابة ومهارات الخطيب

بحوث في إعداد الخطيب الداعية

د . إسماعيل علي محمد
أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
في كلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر



دار الكلمة للنشر و التوزيع

فن
الخـــــطابة
ومهارات الخطيب

الطبعة الخامسة ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م

بطاقة الفهرسة

محمد؛ إسماعيل علي

فن الخطابة ومهارات الخطيب.

(بحوث في إعداد الخطيب الداعية)

الأستاذ الدكتور: إسماعيل علي محمد .

الطبعة الخامسة ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م.

دار الكلمة للنشر والتوزيع

دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة ـ مصر

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

فن الخطابة
ومهارات الخطيب

(بحوث في إعداد الخطيب الداعية)

الأستاذ الدكتور: إسماعيل علي محمد
أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة - جامعة الأزهر

دار الكلمة
للنشر والتوزيع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

(ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ
أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥)

سورة النحل

المقدمة

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان، علمه البيان، وأصلّي وأسلّم على البشير النذير، الداعي إلى صراط الله المستقيم، الذي آتاه ربه جوامع الكَلِم، وشرح له صدره، فكان أفصح الناس لساناً، وأعلاهم بياناً، وأعذبهم كلاما، وعلى آله وأصحابه، الذين اتبعوه ونصروه، ودعَوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي أحسن، والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

أما بعد: فإن الدعوة الإسلامية ـ بمعنى تبليغِ الإسلام ونشرِه، ودعوةِ الناس إليه اعتقاداً ومنهجا، وتحذيرهم من غيره ـ هي وظيفة الأمة الإسلامية التي لا يسَعُها إلا النهوضُ بها، والقيامُ بأعبائها ومتطلباتها، وهي إذا فعلت هذا كانت في مقام كريم، ومكانة سامية.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران:١١٠].

وقال جل في علاه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

فالاشتغال بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام، وإشراكِ الناس في خيره وهداه، ودلالةِ الخلق على الحق؛ من أفضل الأعمال، كما أنه من أهم الأمور التي تنجي من الخسران والبوار.

قال تعالي: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

كما أن الدعوة إلى الله ﷻ، والدلالةَ عليه سبحانه؛ كانت وظيفة الأنبياء والرسل، وهل كان شُغْلهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إلا دلالة الخلق على الحق؟ كما أنهم من أجلها بُعِثوا، ومن أجلها أنزل الله الكتاب: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال:٤٢]، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

وللدعوة إلى الله تعالى طرق متنوعة، وفنون كثيرة.

ومِن أهمِّها فَنُّ الخَطابة.

وللخَطابة في الإسلام تقدير كبير، وأهمية بالغة في مجال الدعوة إليه؛ فلقد استخدمها الرسول ﷺ منذ أمره الله تعالى بأن يصدع بما أَوْحاه إليه ربُّه، ويجهرَ بالتبليغ، كما أن الإسلام فرض في كل أسبوع خُطبة لا تنعقد صلاة الجمعة بدونها، هذا سِوى ما شرعه من الخُطب الأخرى، كخطب العيدين، والاستسقاء، والخسوف والكسوف، والزواج والصلح، وغيرها.

ولقد عوّل خصوم الدعوة الإسلامية قديما وحديثا على الخَطابة، ووظفوها في خدمة الباطل، ومجابهة دعوة الحق، واتخذوها طريقة للتضليل والتلبيس على الناس.

لهذا وغيره كان أحرى بالقائمين على أمر الدعوة الإسلامية اليوم، أن يهتموا بالخَطابة، ويُنْزِلوها المنزلةَ الجديرةَ بها، فقد غدت الحاجة مُلِحّة إلى وجود الدعاة البلغاء الفصحاء، النابغين في الخَطابة، الذين

يجيدون الدعوة إلى الإسلام بالموعظة الحسنة، ويستطيعون المجادلة بالتي هي أحسن، ويعرضون الإسلام عرضاً بليغاً حكيماً.

أجل؛ نحن اليوم بحاجة ـ أكثر من أيّ وقت مضى ـ إلى خطباء دعاة، قادرين على مخاطبة الناس وإقناعهم بالانحياز إلى الإسلام، والتأثير فيهم، واستمالتهم إلى اختياره عقيدةً ومنهجَ حياة.

إننا ـ في موكب الدعوة الإسلامية ـ بحاجة ماسّة إلى خطباء يَعمُرُ الإيمان قلوبهم، وتملأ الرغبة في الدعوة إلى الله كيانهم، فينطلقون على هدى وبصيرة، يُخرِجون الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ويمكّنون للإسلام ـ من خلال خُطبهم ـ في قلوب الناس وواقع حياتهم، ويُعبِّدون الخلْقَ لخالقهم، فيسعدون في معاشهم ومعادهم.

ومن هنا تبرز أهميةُ فنِّ الخَطابة، وضرورةُ تعلّمِه لكل مشتغل بالدعوة إلى الله تعالى.

وقد استهدَيتُ الله تعالى فهداني لكتابة هذا البحث في علم الخَطابة، وحاولتُ أن لا تكون الدراسة نظريةً مجردةً، مقصورةً على قواعد ومسائل العلم، دون ربطِها بالحقل الدعويِّ وما يقتضيه، فاجتهدْت أن يكون البحثُ من منظور فنّيٍّ يعالج الموضوع وفق قواعد علم الخَطابة، ويحاول توظيفَ فنِّ الخَطابة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، واستخدامَه فيه على الوجه الأكمل، لتكون الفائدة للخطيب الداعية بالدرجة الأولى، ولذا جعلْتُه: «بحوثا في إعداد الخطيب الداعية».

وإني لأرجو أن أكون قد وُفِّقتُ فيما قصدتُ وبحثتُ.

وهذا البحث في الأصل محاضرات دُرِّست لطلاب كليات أصول الدين والدعوة الإسلامية والدراسات الإسلامية والعربية للبنين والبنات، في جامعة الأزهر.

وما كان فيه من توفيق فمن الله، وإن كان من خطأ فمن نفسي، وأسأل الله العفو والعافية.

وأرجو الله تعالى أن ينفع بهذا البحث المتواضع، وأن يجعل ما بذلتُه فيه من جهد عملاً صالحاً ولوجهه خالصاً، وأن يعم به النفع.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه: أبو عمر

إسماعيل علي محمد

عصر الأحد: ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ

٢٦ أكتوبر ١٩٩٧م

في: كفر حماد ـ كفر صقر ـ الشرقية

مصر

الفصل الأول

الخَطابة وتاريخها

المبحث الأول

الخَطابة وأهميتها

المبحث الثاني

لمحات في تاريخ الخَطابة

المبحث الأول
الخَطابة وأهميتها

تعريف الخَطابة :

قبل أن نعرض لمفهوم الخَطابة في الاصطلاح يحسن أن نتعرف سريعًا على المعنى اللغوي ، وذلك على النحو التالي :

جاء في كتب اللغة (1) :

خَطَبَ الناسَ وفيهم وعليهم خَطَابةً وخُطْبةً : ألقى عليهم خُطْبة . وخَطَب فلانةً خَطْبًا وخِطْبَة ، طلبها للزواج . وخَطُب خَطابة : صار خطيبًا . وخاطبه مخاطبة وخِطابا ، كالمه وحادثة ، أو وجّه إليه كلاما . والخِطاب : الكلام ، وفَصْل الخِطَاب هو خطاب لا يكون فيه اختصار مُخِلّ ولا إسهاب مُمِلّ ، والخُطْبة : الكلام المنثور يخاطِب به مُتكلِّمٌ فصيحٌ جَمْعًا من الناس لإقناعهم ، ومن الكتاب : صدْرُه جمع خُطَب ، والخَطَّاب : وصف للمبالغة للكثير الخطبة [بضم الخاء وكسرها] . والخطيب الحسن الخُطبة ، أو من يقوم بالخَطابة في المسجد وغيره ، والمتحدث عن القوم . جمع خُطباء .

والخَطْب والمخاطبة والتخاطب : المراجعة في الكلام ، ومنه الخُطْبة ، ويقال

---

(1) القاموس المحيط . مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ص ١٠٣ ـ ١٠٤ مؤسسة الرسالة . بيروت ط الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، المعجم الوسيط ١ / ٢٥١ ـ ٢٥٢ باختصار . مجمع اللغة العربية . القاهرة . ط الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني . تحقيق صفوان عدنان داوودي ص ٢٨٦ . دار القلم . دمشق . ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

من الخُطْبة : خاطِب وخطيب ، ومن الخِطبة : خاطب لا غير . والخَطْب : أيضًا الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب .

وأما الخَطابة في الاصطلاح ؛ فقد عُرِّفت بتعريفات شتى ، بعضها لا يخلو من ملاحظات ، وبعضها أقرب إلى الكمال ، ولا داعي لسردها ، وأكتفي هنا بذكر بعضها .

ومن أقدم ما عُرّفت به الخَطابة ؛ تعريف أرسطو بأنها : « قوة تتكلف الإقناعَ الممكنَ في كل واحد من الأمور المفرَدة » [١] .

ومن أجمع التعريفات ـ فيما أرى ـ تعريف الخَطابة بأنها :

« فنُّ مشافهةِ الجمهور ، وإقناعِه واستمالتِه .

فلابد من مشافهة ، وإلا كانت كتابة أو شعرًا مدونًا .

ولابد من جمهور يستمع ، وإلا كان الكلام حديثا أو وصية .

ولابد من الإقناع ، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين ، ويؤيدَه بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده ، ثم لابد من الاستمالة ، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئَها ، ويقبضَ على زمام عواطفهم يتصرّف بها كيف شاء ، سارًّا أو مُحزِنًا ، مُضحِكًا أو مُبكيًا ، داعيًا إلى الثورة أو إلى السكينة .

وإذاً فأُسُس الخَطابة : « مشافهة ، وجمهور، وإقناع ، واستمالة » [٢] .

---

(١) الخَطابة . أرسطو طاليس ، الترجمة العربية القديمة ، تحقيق و تعليق د / عبد الرحمن بدوي ، ص٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩م .

(٢) فن الخَطابة . د/ أحمد محمد الحوفي ص ٥ . نهضة مصر . القاهرة .

علم الخَطابة

هذا عن فنّ الخَطابة ، أما محل دراسة هذا الفن ومجال تعلّمه ؛ فهو علم الخَطابة الذي يأخذ بيد من يدرسه ، ويقف على قوانينه ، ويُلم بقواعده ، ويلتزم بها ، إلى أن يكون خطيبًا .

« وعَرَّفوا هذا العلمَ بأنه : مجموع قوانينَ تُعرِّف الدارسَ طرقَ التأثير بالكلام ، وحسنَ الإقناع بالخطاب ، فهو يُعنَى بدراسة طرق التأثير ووسائل الإقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة ، وما تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها وترتيبها ، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخَطابة ليربِّيَ ملكاتِه وينمِّيَ استعداداته ، ويطبَّ لما عنده من عيوب ، ويرشده إلي طريق إصلاح نفسه ، ليسير في الدرب ، ويسلك السبيل » (١) .

فلدينا ـ إذنْ ـ فنُّ الخَطابة ، والذي يمكن أن نقول عنه إنه الممارسة للخَطابة ، والقيام بها ، وعلمُ الخَطابة والذي يمكن أن نقول بأنه عبارة عن التنظير والتقعيد أو التقنين لممارسة فن الخَطابة ، كما سبق من تعريف كليهما .

نشأة فنِّ الخَطابة وعلم الخطابة

أما الخَطابة كفنٍّ يمارَس ، وأسلوبٍ يطبَّق ؛ فشيء قديم جدا لم تَخْلُ منه أمة من الأمم ، « وإن الاستعداد لها مخلوق مع الإنسان الذي لا غنى له عن الإبانة

---

(١) الخَطابة ؛ أصولها ، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب . الشيخ محمد أبو زهرة . ص ٩ . دار الفكر العربي ، القاهرة . ط الثانية ١٩٨٠م .

لغيره عما في ضميره ، وعن إقناعه بصدق مقاله وسداد رأيه » (١).

وقد ذكر الجاحظ : أن الخَطابة شيء في جميع الأمم ، وبكلّ الأجيال إليه أعظم الحاجة (٢) .

وسوف يكون لنا ـ بمشيئة الله تعالي ـ حديث بشيء من التفصيل عن تاريخ فن الخَطابة ، في المبحث التالي .

وأما علم الخَطابة المشتملُ على قواعدها ، فقد أتى متأخرًا عن نشأتها ، « وأول من دون قواعدها ثلاثة من فلاسفة اليونان في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد : بروديكوس ، وبرتا غوراس معاصره ، ثم غورجياس سنة ٣٨٠ ق.م ، وفي أواخر القرن الرابع سنة ٣٢٢ ق.م ظهر أرسطو زعيم فلاسفة اليونان فلم [يترك] شيئًا من أصول هذا الفن إلا ودَوّنه ، ونشره في كتابه (الخَطابة) ، ومن هذا الحين صارت الخَطابة فنًّا مدونًا » (٣) .

وهكذا نرى أن اليونانيين هم أول من كتب في علم الخَطابة ، واستنبط قواعده .

وجدير بالذكر أنهم كانوا يَعُدّون علم الخَطابة ضمن مباحث ومسائل علم المنطق ، وقد ذكر ابن خلدون أن أرسطو صنف كتابه في المنطق وجعله مشتملا على ثمانية كتب ، وعدّ منها كتاب الخَطابة .

---

(١) فن الخَطابة وإعداد الخطيب . الشيخ علي محفوظ . ص ٢٠ . دار الاعتصام . القاهرة .

(٢) البيان والتبيين . لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٣ / ١٢ ـ ١٣ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل . بيروت .

(٣) فن الخَطابة . علي محفوظ ص ٢١ ، الخَطابة . أبو زهره ص ١٣ ـ ١٤ .

ثـم ذكـر أنهـا تُرجِمـت كلهـا في الملـة الإسـلامية ، وكَتبهـا وتـداولها فلاسـفة الإسـلام بالـشرح ، كـما فعلـه الفـارابي وابـن سـينا ثـم ابـن رشـد مـن فلاسـفة الأندلس [١] .

« وقد أتى ابن سينا في كتاب الشفاء بلب كتاب الخَطابة لأرسطو مع تصرف غير ضار ، وبنقل كتاب الخَطابة لأرسطو صـار في العربيـة قواعـدُ للخَطابـة مدونـةٌ في بحث مستقل ، وإن كان جزءً من علم المنطق على ما رأيت » [٢] .

ثم اتجه بعض الباحثين في العصور الحديثة إلى إحياء قـوانين الخَطابـة ، ونـشر المدفون من آراء العلماء فيها ، وذلـك بعـد النهـضة التـي بعثـت روح اليقظـة في الخَطابة في العصور المتأخرة ، وأظهرُ كتاب ظهر في ذلك كتاب (علـم الخَطابـة) للعالم الباحـث لـويس شـيخو ، فقـد جمـع في كتابـه هـذا خلاصـة مـا كتبـه أدبـاء العرب وفلاسفتهم ، وما تُرجم إلي اللغة العربيـة مـن قـوانين الخَطابـة وقواعـدها ، ومع أنه لم يَخْل من مآخذ وملاحظات ؛ إلا أن له فضلَ السبق [٣] .

ثم تتابعت الكتابة في علم الخَطابة بعد ذلك ، وكثـرت التـآليف والمؤلفـون ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، تأليف عبد الرحمن بن محمد بـن خلـدون ٣/ ١١٣٨ـ ١١٣٩ بتـصرف . تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي . دار نهضة مصر . القاهرة . وكتاب أرسطو في المنطق ، المشار إليه اسمه «الأورجانون» ، ومعنى هذه الكلمة باليونانية : الآلة » . أي أنـه آلـة تعـصم الفكـر من الخطأ . السابق : من تعليق المحقق .

(٢) الخَطابة . أبو زهرة . ص ١٦ .

(٣) السابق ص ١٧ ، ومن بين الملاحظات التي ذكرهـا الـشيخ أبـو زهـرة عـلى الكتـاب : أن فـيما كتبـه كثيرًا من ما يتعلق بالمنطق قـد وضـعه في الخَطابـة ، كـما أن فيـه جفافـا في الكتابـة يجعلـه غـير قريـب للمتناول، وأن المؤلف في أكثر المسائل لا يقدم رأيه بل يترك القارئ وسط نقول وآثار .

وخاصة مع الاهتمام بتدريس الخَطابة في معاهد ودور العلم ، ومع زيادة الحاجة إليها في الميادين السياسية والقضائية والإصلاحية ، وغيرها .

موضوع الخطابة

إن الخَطابة لا تختص بجانب معين تنحصر فيه ، أو موضوع محدد تقتصر عليه ، وإنما تتطرق إلى كل الموضوعات ، وتتناول كل شيء .

« وقد ذكر ابن رشد عن أرسطو : أن الخَطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، فإنها تتناول كل العلوم والفنون ، ولا شيء ــ حقيرًا كان أو جليلًا ، معقولا أو محسوسا ــ لا يدخل تحت حكمها ، ويخضع لسلطانها ، ومن ثم قال الباحثون في شأنها : يلزم أن يكون الخطيب ملما بكل العلوم والفنون ما استطاع ، وأن يسعى دائبًا إلي أن يزداد كل يوم علمًا » (١) .

وإذا كان هذا شأنَ الخَطابة من حيث موضوعها ؛ آفاقها رحبة لا يتأبّى عليها مجال ، ولا تمتنع من دخول ميدان ، أو تناولِ أيِّ موضوع ؛ فإنها في الإسلام يجب أن لا يخرج مضمونها عن حدود الشرع ، ولا تتعارض موضوعاتها مع مبادئه وما يدعو إليه ، وهكذا ينبغي أن يكون هناك التزام من جانب الخطيب باختيار الموضوعات الجائزة شرعًا ، وليس له الحرية في أن يختار موضوعا يتعارض مع القرآن الكريم أو السنة المطهرة .

وهناك بعض من تأثروا بالآداب الغربية لا يؤمنون بمبدأ الالتزام في الأدب عموما ، وعند تقييم هذا اللون الأدبيِّ أو ذاك شِعرًا كان أم نثرًا ؛ لا يؤخذ

---

(١) فن الخَطابة . علي محفوظ ص ١٣ .

المضمون في الاعتبار ، المهم عندهم تحقق القيم الفنية والجمالية ، ورأينا شعارات ونظريات في هذا الصدد مثل « الفنّ للفنّ » ، ونحو هذا ، ونحن ــ المسلمين ــ نرفض هذا ، ونؤكد على أنه لابد من الالتزام وخاصة التزامَ المضمون في الكلمة سواء أكانت شِعرًا أم خطابة ، أم رواية ، أم غير هذا ؛ التزامَه بالإسلام .

وليس معنى التزام الخطبة بالإسلام أنها تقتصر على الجوانب التعبدية والمسائل الروحية دونما عداها ، بل إن « موضوع الخطبة الإسلامية هو الحياة الأولى والآخرة ، لأن ذلك هو المجال الذي يعمل فيه الإسلام ، وتتطرق إليه الآيات »[(١)] القرآنية والأحاديث النبوية .

الغاية منها وأهميتها

والغاية من دراسة الخَطابة وتعلم قواعدها ، وممارستها ؛ الوصول إلى التأثير في المخاطبين ، وإقناعِهم بما يُطرح عليهم من أفكار وموضوعات ، واستمالةِ قلوبهم نحو رأي معين ، لحملهم على فعل شيء أو تركه ، أو اعتقاد أمر أو عكسه .

والخَطابة في مجال الدعوة الإسلامية لها غاية شريفة ، وأهداف سامية راقية ، فالغاية منها إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإرشاد الخلق إلى طريق الخالق سبحانه وتعالى ، وذلك بدعوة الناس إلى الإسلام اعتقادا ومنهجا وتحذيرهم مما سواه .

---

(١) مع الله . محمد الغزالي ص ٣١٠ . دار الكتب الإسلامية . القاهرة . ط الخامسة ١٤٠١ هـ ١٩٨١م .

فالخطيب المسلم الداعية يبتغي من وراء التأثير في المخاطبين توجيهَهم نحو الخير ، ولا يرمي إلى إقناعهم بغير الحق ، ولا يحرص على استمالتهم إلا إلى ما فيه نفعُهم وسعادتُهم في المعاش والمعاد .

ومن هنا كان للخَطابة فضل كبير، وشرف عظيم ، لما لها من غاية عظيمة وسامية ، وهي الأخذ بيد الناس إلى طريق الهدى والحق ، والوصول بهم إلى السعادة في الدارين ، والعلومُ والصناعات إنما تشرف بشرف غايتها ، وتسمو بسموّ أهدافها.

ولقد ازدانت الخَطابة شرفًا وفضلًا إذْ كانت أسلوبَ خيار البشرية وأفاضلها وصفوتها ، وهم الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وتسليماته ، وعلى رأس منهجِهم في إرشاد الناس وهدايتهم إلى دين الله ، وتعريفِ الخلق على الحق ، وإخراجِهم من الظلمات إلى النور .

« وفوائدها جمّة ، فهي التي تُعرِّف صاحبَها كيف يمتلك القلوب ، ويستميل النفوس ، ويحرك العواطف نحو ما يريد ، وقوانينُها ترشد الطالب إلى مواضع الضعف وشعب السهو والزلل ، فيقوى على دحض حجة المناظر ، وتزييف سفسطة المكابر ، وهي التي ترفع الحق وتخفض الباطل ، وتفض النزاع ، وتقطع الخصومات .

فالخطيب البارع يقف بين ذوي المنازع المختلفة والآراء المتضاربة ، فلا يزال يبين لهم النافع من الضارّ والصواب من الخطأ ، حتى يجعل الجميع في قبضة يده ، والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استعرت بينهما نار العداوة والبغضاء

فيذكرهم بعواقب التقاطع ، ويحذرهم من نتائجه السيئة ، فإذا القلوب مؤتلفة والنفوس متآخية »[(١)] .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه قد يوجد خطيبٌ مِصْقَعٌ[(٢)] صاحبُ دعوة ، يفعل لصالح دعوته ما قد تعجز عنه الجيوش بخيلها ورجلها ، أو ما لا تبلغه إلا بشق الأنفس .

وهذا مثال من التاريخ الحديث ، يذكره أحد الباحثين في معرض حديثه عن الخَطابة والبلاغة والفصاحة وكيف أن لها دورا كبيرًا في صناعة الحياة ، فيقول :

وتمر ألوف السنين ليقف « هيوستن » في حدود سنة ١٨٣٠م أمام الكونجرس الأمريكي ، ويخطب خطبة بليغة لم يَستعمِل فيها كلمة مرتين ، فسحَر ألباب الرجال الذين أمامه ، وكان قد نجح لتوّه في تسكين ثائرة الهنود الحمر ، وجلبِهم إلي توقيع اتفاقات مع الحكومة ، فاستدعاه الرئيس الأمريكيّ آنذاك وقال له : إن « تكساس » تتبع المكسيك ، ومستقبلَ أمريكا متعلق بها ، ولابد من ضمها ، وأريدها منك .

فقال هيوستن : نعم أنا لها . زوِّدْني بمال ورجال .

قال الرئيس : لو كان عندي مال ورجال ما دعوْتُك ، بل تذهبُ منفردا وبلا دولار واحد ، وأبعث معك حارسًا حتى تعبر نهر المسيسبي ، ويعود .

ومع ذلك قبِل المهمة ، وودعه الحارس على ضفة النهر، واندفع نحو

(١) فن الخَطابة . علي محفوظ . ص ١٥ ـ ١٦ باختصار .

(٢) المِصْقَع : البليغ يتفنن في مذاهب القول . المعجم الوسيط ١/ ٥٣٨ .

تكساس ، فلما دخل أول مدينه بها فتح له مكتب محاماة ، فكان المدعِي في المحكمة يخرج متهما والمتهم بريئًا ، لبلاغته وقوة لسانه ، حتى انبهر به الناس ، فلاذوا به ، فتلاعب بمفاهيمهم وأخيلتهم ، وغرس فيهم معنى ضرورة الاستقلال عن المكسيك ، وأنشأ حركة قوية أتمت الاستقلال ، ثم غرس معنى وجوب الانضمام إلى الولايات المتحدة ، فانضمت طواعية بالقناعات التي غرسها هيوستن ، وجاء بعد سنوات قليلة إلى الرئيس الأمريكي وسلمه مفتاح تكساس ، إذْ لم تُطلَق طلقة أمريكية ، ولم يُصَرف دولار ، فشكره الرئيس ، وخلدوا عمله بإطلاق اسمه على مدينة هيوستن ، التي هي الآن من أهم مدن أمريكا ، وعاصمة النفط فيها [(١)] .

الخطابة في موكب الدعوة الإسلامية

ثم إن الخَطابة في مجال الدعوة الإسلامية ذاتُ أهمية كبرى ، ولا غنى عنها ، لما لها من دور خطير في الإقناع والتأثير ، ولو أنه تهيأ للدعوة خطباءُ دعاةٌ يدعون إلى مبادئها ، وينافحون عنها ، لكان حالها أفضل بكثير مما هي عليه الآن .

وإن الحاجة الآن ماسة إلى إيجاد هؤلاء الخطباء الدعاة الماهرين، الذين «ينطلقون في أقطار العالم الإسلامي ليرأبو صَدْعه ، ويجمعوا شمله ، ويُمسكوه ويُبصِّروه لغايته ويتعهدوا مسير ، ويقوّموا عوجه ، ويذودوا عنه كيد الخصوم، ومكر الأعداء ، وعبث الجهال ، وسفه المفتونين .

الإسلام أحوج الأديان الآن إلى من يتعلمه على حقيقته النازلة من رب العالمين ، ثم يكرس حياته لإنعاش المسلمين به ، بعد ما سقطوا في غيبوبة طويلة ،

---

(١) صناعة الحياة . محمد أحمد الراشد ص ٨٨ ــ ٨٩ . دار البشير . طنطا . ط الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

عِلّتها الأولى والأخيرة الجهل الطامس البليد .

الإسلام أحوج الأديان الآن إلى الدعاة الذين يغسلون عنه ما التصق به من خرافات ، ويُقْصُون من طريقه الحواجز التي شعّبت أهله ، وقسمتهم طوائف ومذاهب «كل حزب بما لديهم فرحون» (١) .

ولقد حرَص الإسلام على أن يكون للخَطابة حضور ملموس في موكب الدعوة الإسلامية ، وإسهام كبير في صياغة الحياة وفق منهج الله تبارك وتعالى ، حتى عُدَّت من شعائره : فلا تنعقد صلاة الجمعة بدون الخطبة ، كما أن هناك الخطبَ المشروعةَ في العيدين وفي الحج والاستسقاء ، وهكذا يقدر الإسلام الخَطابة ـ إدراكًا منه لأهميتها ـ على نحو لا نحسب أنه يوجد في غيره من الأديان .

إن « الخَطابة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ويَثِبُ مِن فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر » (٢) .

ولقد عرف تاريخ الدعوة الإسلامية منذ صدره إلى يوم الناس هذا ؛ دعاةً خطباءَ نهضوا بالدعوة الإسلامية ، وارتقَوا بالمدعوين ، وكانوا بحق مثالا يحتذي .

وكان على رأس هؤلاء الأفذاذ إمام الدعاة وسيد البلغاء ، رسول الله ﷺ ، ثم صفوةٌ ممن ساروا على هديه ﷺ وتبعوه بإحسان .

(١) مع الله . محمد الغزالي ص ٨ ـ ٩ .

(٢) السابق ، ص ٣٠٧ .

وقد أثبتوا عمليا أهمية الخَطابة ودورها الفائق في الهداية إلى صراط الله المستقيم ، وكانوا في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة ، ذوي مقدرة بالغة على جذب النفوس ، واستمالة القلوب للإسلام عقيدةً ومنهجًا ، وكان الواحد منهم يفتح الله به ما يفتحه بجيش ، ويهدى على يديه من الخلائق الألوفَ المؤلفة ، والجموعَ الغفيرة ، بما آتاه من عظمة وسحر في البيان ، وفصاحة في اللسان ، وحكمة في التفكير والجَنان .

الإمام ابنُ الجوزيِّ ومهاراته الخطابية في الدعوة

ومن أولئك الخطباء الدعاة ؛ إمام عصره في الوعظ والخَطابة الإمام العلامة الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي ، المتوفَّى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، عن عمر يزيد على الخامسة والثمانين (1) .

هذا العالم كان آية الزمان في الوعظ والخَطابة ، وقد نفع الله بوعظه وفصاحته الدعوة الإسلامية نفعًا كبيرًا ، وأجرى على يديه للمسلمين خيرًا كثيرًا .

قال عنه الإمام الذهبيّ : وكان رأسًا في التذكير بلا مدافع ، يقول النّظْم الرائق ، والنثر الفائق بديها ، ويُسهِب ، ويُعجِب ، ويُطرِب ، ويُطنِب ، لم يأت قبلَه ولا بعدَه مِثلُه ، فهو حامل لواء الوعظ ، والقيم بفنونه ، مع الشكل الحسن ، والصوت الطيب ، والوقْع في النفوس ، وحُسن السيرة .

---

(١) سير أعلام النبلاء . تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٢١ / ٣٦٥ وما بعدها باختصار وتصرف . تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين . مؤسسة الرسالة . بيروت. ط الثامنة ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م .

وأَحَبّ الوعظ ، ولهِج به ، وهو مراهق ، فوعظ الناس وهو صبي ، ثم مازال نافق السوق مُعظَّما متغاليًا فيه ، مُزدَحَمًا عليه ، مضروبًا برونق وعظه المثل ، كماله في ازدياد واشتهار ، إلي أن مات رحمه الله وسامحه .

وكان ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ ، يحضر مجالسَه الملوكُ والوزراءُ وبعضُ الخلفاء والأئمة الكبراء ، لا يكاد المجلس ينفضُّ عن ألوف كثيرة .

قال سبطه أبو المظفر : سمعت جدي على المنبر يقول : بإصبعيّ هاتين كتبت ألفيْ مجلدة ، وتاب على يديّ مائةُ ألفٍ ، وأسلم على يديّ عشرون ألفًا [١] .

ولْنعِش الآن مع بعض مجالس هذا الفارس ، لنرى كيف كانت خطبُه توقظ من الناس المشاعر ، وتثير منهم الكوامن ، وتنقلهم من محيط المعصية إلى محيط الطاعة ، ومن الغفلة إلى اليقظة ، ومن الضلال والغواية إلى الرشاد والهداية ، وإلى السعادة في المعاش والمعاد .

ذكر أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي من أدباء القرن السادس ، وصْفا لبعض مجالس الإمام ابن الجوزي ببغداد ، وهو في الحقيقة وصف صادق أخّاذ [٢] .

أخذ ابن جبير يصف مجلسا للشيخ ، وكان يجلس به كل يوم سبت بإزاء داره ،

---

(١) السابق ٢١/ ٣٦٧ وما بعدها باختصار .

(٢) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (المتوفَّى ٦١٤هـ) ص ١٧٦ وما بعدها، دار ومكتبة الهلال – بيروت. وانظر: هداية المرشدين . علي محفوظ ص ٨٦ . دار الاعتصام . القاهرة .

وبعد أن صور بلاغة الشيخ وفصاحته وعذوبة منطقه قال :

ثم إنه أتى بعد الفراغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب ، وذابت بها النفوس، إلى أن علا الضجيج وأعلن التائبون بالصياح، و تساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كلٌّ يُلقِي ناصية بيده فيجرها ويمسح على رأسه داعيا له، ومنهم من يُغشَى عليه ويُرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هوْلًا يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكِّرها أهوال يوم القيامة، وفي أثناء مجلسه ذلك تُطَيَّرُ إليه الرقاع بالمسائل فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ثم أخذ في وصف مجلس آخر له في ساحة قصور الخليفة ، وكان ينعقد كل يوم خميس ، فقال :

وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلِّم ، فصعد المنبر وقد تسطّر القراء أمامه على كراسي موضوعة ، فابتدروا القراءة على الترتيب ، فبكت العيون لقراءتهم ، فلما فرغوا منها وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات ، سطع بخطبته الزهراء الغرّاء ، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ، ومشّى الخطبةَ على فِقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن أكملها ، وكانت الآية : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٦١] فتمادى على هذا السين ، وحسَّن أيّ تحسين ، فكان يومه ذلك أعجب من أمسه ، ثم سلك سبيله في الوعظ ، كل ذلك بديهة لا روية ، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى ، فأرسلَتْ وابلَها العيونُ ، وأبدت

النفوسُ سرَّ شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه نادمين تائبين ، فطاشت الألباب ، واستولى عليها الوَلَه والذهول ، واهتزت القلوب ولم تجد للصبر سبيلا ، ثم في أثناء مجلسه يَنشُد بأشعار من النسيب مبرِّحةِ التشويق بديعةِ الترقيق ، تملأ القلوب خشية وزهدا ، وكان آخر ما أنشده من ذلك ، وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ، وأصابت المَقاتلَ سهامُ ذلك الكلام :

أين فؤادي أذابه الوَجْدُ وأين قلبي فما صحا بعْدُ
يا سعدُ زِدْني جَوىً بذكرهم بالله قل لي فُدِيتَ يا سعدُ

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والبكاء كاد يمنعه من الكلام ، فنزل عن المنبر دَهِشا ، وقد أطار القلوب وجَلا ، وترك الناسَ على أحرّ من الجمر يشيعونه بالدموع ، فمِن مُعلِن بالانتحاب ، ومِن مُتعفِّر في التراب ، فياله مِن مشهد ما أهولَ مَرْآه ، وما أسعدَ مَن رآه ، وما كنّا نحسِب أن متكلما في الدنيا يُعطَى من مَلكة النفوس والتلاعب بها ما أُعطِي هذا الرجل الذي يضيق الوجود عن مثله ، فسبحان مَن يخصّ بالكلام مَن يشاء مِن عباده لا إله غيره . أهـ .

إن الدعوة الإسلامية بحاجة إلى مثل هذا الخطيب الفصيح البليغ ، العالم الداعية ، في زمن كثر فيه الأدعياء ، وأطلّت برأسها الفتن ، واستشرى الفساد ، ونشط فيه دعاة الباطل وسَدَنتُه ، وكادوا أن يجتالوا الناس عن دينهم بزخرف من القول ، وبهرج من الدعاية ، وترغيب وترهيب ، ومكر بالليل والنهار .

وإن مما يؤسف له أن نلاحظ أن كثيرين من المنتسبين للدعوة الإسلامية

ليسوا على المستوى الذي نطمح إليه ، وليسوا مؤهلين لمخاطبة الجماهير والتأثير فيهم باقتدار ومهارة ، لاستمالتهم وإقناعهم بالانحياز إلى الإسلام منهجا وتطبيقا .

إنني أعرف أن مِن بين مَن تخرجوا مِن الكليات الشرعية عامة والدعوة خاصة ، أناسًا لم يكونوا مؤهلين نفسيا لولوج مثل هذه التخصصات ، وإنما سيقوا إليها سوقًا ، أو اضطروا إليها اضطرارًا ، فدخلوا وخرجوا ووُظِّفوا ، دون أن تحتل الدعوة أو العمل للإسلام في نفوسهم حيزًا أو مكانة ترقى إلى لقمة العيش ، وأمْرِ تحصيل الرزق ، فضلا عن ضعف الاستعداد العلمي والخلقي لأمثال هؤلاء ، فكانوا فاترين في عطائهم ، خاملين في عملهم وأدائهم ، عاجزين عن النهوض بالدعوة والجهاد بها ومن أجلها ، حتى صاروا كَلا عليها ، وقرّة عينٍ لأعدائها .

وهذه الظاهرة المؤسفة ، تحتّم علينا أن نعيد النظر في سياسة إعداد الدعاة من انتقاء وتأهيل وتوجيه ، ونحو هذا مما يتطلبه الإعداد الجيد ، ولا يسمح المقام بالخوض في تفاصيله الآن .

المرأة الداعية والخَطابة

وحديثنا عن الخَطابة وأهميتِها في موكب الدعوة الإسلامية ؛ لا يختص بالدعاة من الرجال فقط ـ وان كان هذا هو الأغلب الأعم ـ ، وإنما يتعدى إلى النساء الداعيات إلى الله كذلك .

فإننا بحاجة إلى المرأة المسلمة الداعية التي تجيد الخَطابة ، وتوظفها في مجال الدعوة إلى الله ، وخاصة مع بنات جنسها فتؤثر فيهن ، وتحرك مشاعرهن

وتستميلُهن نحو الالتزام بالدين ، والتمسك بشرائعه وشعائره ، وتزوّدهن بالعلم النافع الذي يعود عليهن وعلى الأمة بالخير والنفع ، ولاسيما ما يتعلق بالتفقيه في أمور الدين .

وجدير بالذكر أن المرأة مكلفة ـ مثل الرجل ـ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقيام بواجب النصيحة والدعوة إلى الله ، في حدود الوسع الطاقة .

قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١] ، وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] ، وقال جل شأنه : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:١ـ٣] .

وعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال : « **الدين النصيحة** » قلنا لمن ؟ قال : « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » (١) .

فهذه النصوص وأشباهها من القرآن والسنة لا تفرق بين الرجل والمرأة في أصل التكليف بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا كان الخطاب

---

(١) أخرجه مسلم في ك الإيمان ، ب بيان أن الدين النصيحة . مسلم بشرح النووي ٢/ ٣٦ ـ ٣٧ رقم ٥٥ ، وأبو داود في ك الأدب ، ب في النصيحة رقم ٤٩٤٤ ، والترمذي في ك البر ، ب ما جاء في النصيحة رقم ١٩٣٢ من حديث أبي هريرة . وقال : حسن صحيح . والنسائي في ك البيعة . ب النصيحة للإمام ٧/ ١٥٦ ـ ١٥٧ ، والدارمي في ك الرقاق . ب الدين النصيحة . رقم ٢٧٥٤ من حديث ابن عمر .

يأتي في الغالب بصيغة التذكير أو مخاطبة الرجال ؛ فهذا من باب التغليب كما يقول العلماء، لكن لا يمنع دخول النساء فيه، كما هو الحال في كثير من التكليفات .

ولقد وعَتْ لنا ذاكرة التاريخ عددًا من النساء في الجاهلية والإسلام اشتهرن بالخَطابة والفصاحة ، هذا فضلا عن النساء الكثيرات اللاتي اشتهرن بالعلم والفقه ورسوخ القدم في مجال العلوم الشرعية ، في عصور الإسلام المختلفة .

وممن اشتهرن بالفصاحة والحكمة وسرعة الجواب هند بنت الخُسّ ، وجُمعة بنت حابس ، وقد قال في شأنهما الجاحظ : ومن أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللَّسَن واللَّقَن ، والجواب العجيب ، والكلام الفصيح، والأمثال السائرة ، والمخارج العجيبة : هند بنت الخُسّ وهي الزرقاء ، وجُمعة بنت حابس ، وقال ابن الأعرابي : يقال بنت الخُسّ وبنت الخُصّ ، وبنت الخُسْفِ وهي الزرقاء ، وقال يونس لا يقال إلا بنت الأخس ، وقال أبو عمرو بن العلاء : داهيتا نساء العرب هند الزرقاء وعِنْز الزرقاء ، وهي زرقاء اليمامة (١) .

ومن النساء اللاتي كانت لهن خطب : أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (٢) ، كما كان من الخطيبات الشهيرات في معركة عليّ ومعاوية رضي الله عنهما : الزرقاء بنت قيس بن عديّ الهمدانية ، وعكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣١٢ ـ ٣١٣ .

(٢) انظر خطبة لأم المؤمنين عائشة يومَ الجمل في : العقد الفريد ، للفقيه أحمد بن عبد ربه الأندلسي ٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤ تحقيق محمد سعيد العريان . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ط الأولى ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م .

حُرَيْش [1] .

ومن العالمات الفقيهات الداعيات الآمرات بالمعروف والناهيات عن المنكر؛ فاطمة بنت عياش بن أبى الفتح البغدادية الحنبلية ، وقد وُصِفت بأنها: «الواعظة الزاهدة العابدة، الشيخة، الفقيهة، العالمة، المسنِدة، المفتية، الخائفة، الخاشعة، الديِّنة، العفيفة، المتقنة، المحققة، المتفننة، الواحدة في عصرها، والفريدة في دهرها، المقصودة في كل ناحية [2] .

ولقد كانت تتقن الفقه إتقانًا بالغًا، وكانت معاصرة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وكان يتعجب منها ومن فهمها ، ويبالغ في الثناء عليها ، وكانت قوّالة بالحق ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، انتفع بها خلق كثير ، وخاصة نساء أهل دمشق ، لصدقها في وعظها ، ثم تحولت إلى القاهرة ، فحصل بها النفع ، وعلا صيتُها ، وتُوفِّيت ليلة عرفة سنة ٧١٤ هـ وقيل إنها جاوزت الثمانين [3] .

ومنهن حَمدة بنت واثق بن علي الهيتية المولودة سنة ٤٦٦ هـ ، أقامت في المدينة المنورة وبغداد ، وعقدت مجالس للوعظ والإرشاد ، وكانت عالمة بالحديث والفقه [4] .

---

(١) راجع : الخَطابة وإعداد الخطيب . د/ عبد الجليل شلبي ص ٣١٢ ــ ٣١٧ . دار الشروق . القاهرة . ط الثالثة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م .

(٢) فقيهات عالمات . محمد خير يوسف ص ٩٩ . دار طويق . الرياض . ط الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، وفيه مراجعه التي أخذ عنها .

(٣) السابق ص ١٠٠ بتصرف واختصار .

(٤) السابق ، ص ٣٩ بتصرف . نقلا عن أعلام النساء ١/ ٢٩٤ .

ومن عالمات الدعوة الإسلامية وخطيباتها في عصرنا الحاضر الداعية المجاهدة الصابرة الأستاذة زينب الغزالي ، أكرمها الله وغفر لها ، ورحمها رحمة واسعة .

ولاشك أن الواقع يشهد بخلوّ الساحة الدعوية من النساء الخطيبات والعالمات المتفقهات ، ماخلا النّزْرَ اليسيرَ ، ولا يزال ميدان الدعوة الإسلامية يعاني فقرا ونقصًا من هذه النوعية .

وإن الحاجة إلى وجود الداعية الفصيحة بين النساء لماسة ، خاصة وأن أحزاب الباطل وتياراته المختلفةَ قد نجحت إلى حدٍّ ما في إعداد أصناف من النساء ، اللاتي يُجِدْن عرض الباطل وتزيينه بزخرف من القول ، وهؤلاء النسوةُ قد دُرِّبْن بعناية على التحدث بمهارة إلى قطاعات مختلفة من الناس ، والتأثير فيهم بما يبثونه من دعوات وأفكار تحادُّ الله ورسوله .

وأصبحنا نرى للشيوعية نساءً يتحدثن بها وينشرنها .

وللعلمانية داعيات يبشّرن بها ويروّجنها .

وللتحلّل والفساد الخلقي خطيبات سوء يقوضن بنيان الفضيلة ، ويطمسن معالمها ، وهكذا .

ولا يغيب عن الذهن ـ هنا ـ أن نِحْلةَ البابيةِ الهدامةَ التي زعم أصحابها أنها ناسخة للإسلام ورافعة لأحكامه ؛ هذه النِّحلة كان أكبر الدعاة إليها امرأة ، هي « قرة العين » فكانت تخطب وتحاور وتجادل وتناظر ، مبشرة بالدين الجديد ، وهذا ما أكده المؤرخون .

فيقول السير « فرانس يونج » : وما كان لأحد تأثير ونفوذ في البابيين ، مثلما كان لشاعرة قزوين قرةِ العين الطاهرة .

وقال إدوارد براون مؤرخهم وداعيتهم : إن الشخصية الجذابة الخلابة لأنظارنا ، غير الباب الشيرازي ، هي الجميلة الذكية التي وُهِبَت حظًّا وافرًا من الحسن والذكاء والفطنة ، قرة العين التي كانت شاعرة وعالمة وخطيبة (١) .

ألا فلنتنبه إلي دور الخَطابة الخطير في ساحة الدعوة إلى الله ، ولْنعطِها ما هي جديرة به من الاهتمام ، فقها وتطبيقا ، ولْنجعل منها صوت رشادٍ وهدايةٍ إلي الحق ، وسبيلا إلى الإصلاح ، وقوةً تَكِرّ على الباطل ، تُوقِف مَدَّه وانتشاره ، وتُقوِّض دعائمه وبنيانه ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

أركان الخَطابة

مَرّ بنا أن الخَطابة هي : فنّ مشافهةِ الجمهورِ وإقناعِه واستمالتِه .

فالمخاطبة أو المشافهة لابد أن تَصدر عن شخص تتوافر فيه مقوماتٌ وصفاتٌ معينة ـ سوف نشير إليها فيما بعد إن شاء الله ـ وهذا الشخص هو الخطيب ، وهو الركن الأول .

والخطيب يوجه كلامه إلى جمع من الناس ليقنعهم ويؤثّرَ فيهم ، فالركن الثاني هو الجمهور أو المتلقي .

ثم إنه لابد من وجود مضمون أو معنى معين ، أو رسالة يريد الخطيب أن

(١) قراءة في وثائق البهائية ، د / عائشة عبد الرحمن . ص ٤٤ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر – القاهرة . ط الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

يوصلَها إلي الجمهور ، ويقنعَهم بها ويستميلَهم إليها ، وإلا كان عابثًا ، وهذا المضمون أو الرسالة هو الركن الثالث وهو الخطبة .

وقد يلتقي الخطيب بجمهوره مباشرة ، وهذا هو الأغلب الأعَمُّ في الموقف الخطابيّ ، فالوسيلة في هذه الحال هي الاتصال الشخصيّ ، وهي أقوى وسيلة اتصال منذ قديم الزمان حتى يوم الناس هذا ، إذْ إنها تَضمَن تفاعلَ الخطيب مع الجمهور ، وتفاعلَ الجمهور مع الخطيب أكثر من غيرها ، وفي بعض الأحيان قد يُلقِي أحدُ الناس خطبة لا يتصل فيها بالجمهور مباشرة ، وإنما عبر وسيلة معينة كالتلفزيون ، كما هو الحال في بعض خطب الساسة التي يوجهونها للأمة .

ونظرًا لأن الأصل في الموقف الخطابيّ ، إنما هو الاتصال المباشر دون وسيط يحول بين الخطيب وبين الجمهور ؛ فلا وجه لأن نضيف ركنًا رابعًا يكون الوسيلة ، فالخطيب نفسه هو وسيلة لنقل الخطبة .

وعندي أن الخطبة هي أسلوب أو مضمون ، والخطيب هو الوسيلة أو الأداة التي تبلّغ هذا المضمون ، كالكتاب وما يتضمنه ، فالكتاب وسيلة وأداة ، وما يتضمنه من قصة أو مثل أو خبر أو إنشاء هو أسلوب .

وعلى هذا فأركان الخَطابة هي : الخطيب ، والجمهور ، والخطبة .

وسوف نتحدث بتوفيق الله عما يتعلق بكل منها ، وإن كان ما يتعلق بالجمهور سيكون داخلًا في ثنايا الحديث عن الخطبة والخطيب .

*****

المبحث الثاني
لمحات في تاريخ الخَطابة

مَرَّ بنا القول بأن الخَطابة شيء في جميع الأمم ، وأنها موجودة منذ قديم الزمن وأن الاستعداد لها مخلوق مع الإنسان ، الذي لا يستغني عن الإفصاح لغيره بمكنون ضميره ، وسريرة نفسه ، وعن الرغبة في استمالة الآخرين لصفه ، وإقناعهم برأيه .

وهكذا « لم يخْلُ من الخَطابة سِجلّ أمة وعى التاريخ ماضيَها ، فقد حفظها خط آشور المسماريّ ، وقيدها خط الفراعنة الهيروغليفيّ ، ثم رواها تاريخ اليونان السياسيُّ والأدبيُّ منذ القرن السابع قبل الميلاد ، وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعليمه ، وبها أذاع الدينَ أنبياءُ بني إسرائيل ، وكان لها مكانها العظيم في مجامع العرب قبل الإسلام ، وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص »[1] .

ثم إن الإسلام قد اهتم بها اهتماما بالغا في نشر مبادئه ، وتعليم شرائعه وشعائره ، وعوّل عليها الحكام والقادة، والزعماء والمصلحون في نشر أفكارهم وبلوغ أهدافهم، وظلت مسيرتها ومكانتها بين مد وجزر ، وصعود وهبوط ؛ فترقى أحيانا، وتضعف أخرى ، وتنطلق تارة وتحجم أخرى .. وهكذا حتى عصرنا الحاضر .

وفي هذه الصفحات نلقي ضوءًا ــ بمشيئة الله تعالي ــ على تاريخ الخَطابة

---

(١) فن الخَطابة . د / أحمد محمد الحوفي ص ٣٩٠ .

عند بعض الأمم ، ونجعل جانبا من كلامنا عما قبل الإسلام ، وآخر عما بعده ، وذلك على النحو التالي :

أولا : الخَطابة قبل الإسلام

١ـ الخَطابة عند اليونان :

قضت البلاد اليونانية ردحا من الزمن وهي قبائل مفككة ، تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة ، ولم تكن هذه القبائل ترجع إلى أصل واحد ، ولكنها أجناس شتى نزحت إلى هذه الجزر ولم يربط بينها رابط إلا المجاورة واشتراك الأعمال .

وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب ، ثم تتعاون وتتحد .

وقد سجل التاريخ أحداثا كثيرة ، وحروبا طويلة ، كان من أبرزها قيام التنافس بين أثينا وإسبرطة ، الذي اشتد حتى أدى إل حروب لم تنته إلا سنة ٤٠٤ ق.م باستسلام أثينا وزعامة إسبرطة على البلاد اليونانية كلها ، وغير ذلك من الأحداث .

والخَطابة تنضج وتقوى عادة في أيام الحروب والمشادات ، ولقد اعتمدت الحروب اليونانية في شتى مواقفها على الخَطابة ، ولهذا ظهر خطباء لن ينساهم التاريخ ، من هؤلاء « سولون » الأثينى و« ديموستنيس » .

ثم لما سادت الديمقراطية بلاد اليونان ، وشاعت الحرية السياسية ؛ نشطت الخَطابة وشعر الأفراد بحاجتهم إليها ، ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخَطابة

والجدل ، وظهرت طائفة السوفسطائيين يدربون على الجدل والمغالطة ، وكان لعملهم لونان مختلفان : إفساد المنطق ، والجنوح إلى إقناع الناس والحكام بأدلة كثيرا ما تكون مضللة ، ولكنها تستهوي السامعين ، وثاني اللونين لعملهم : شجعوا الخَطابة وأشاعوها ، وجعلوها فنًا مستقلا له قواعده وأصوله .

وخلال مائة عام أي نحو سنة ٤٢٠ إلي سنة ٣٢٠ ق.م كانت الخَطابة اليونانية في قمة ازدهارها رواجا وسموا وإتقانا ، وتميزت بوضوح أقسام ثلاثة هي خطب المحافل ، وأشهر أصحابها هو «جورجياس» ، والخطب القضائية ، وكان على محترفيها أن يجيدوا إعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين ، فكان هذا تعليما وإتقانا للخَطابة ، وأشهر القائمين بهذا العمل هو «لوسياس» ، والخطب السياسية التي ازدهرت ازدهارًا أوسع إبان الصراع بين أثينا ومقدونيا .

وهكذا سجلت الخَطابة اليونانية صور الحياة في اليونان واتجاههم الفكري ، كما سجلت سمو بلاغتهم وأساليبهم [(١)] .

وقد كان من أبرز الخطباء في القرن الرابع قبل الميلاد «ديموستين» ومنافسُه «إسكينز» وكلاهما مِصْقَع مُفوَّه ، قويّ الخصومة واللدَد ، بارع في تشقيق الكلام ، ومن أشهر المنافرات بينهما تلك التي دفعت ديموستين إلى إلقاء خطبته المشهورة (في سبيل التاج) [(٢)] .

---

(١) باختصار وتصرف عن : الخَطابة . د/ عبد الجليل شلبي ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) الوجيز في قصة الحضارة . ول ديورانت . أو جزه د/ غازي مختار طليمات ٢/ ٩١ ـ ٩٢ . دار طلاس ، دمشق . ط الأولي ١٩٩٣م .

وقصة تلك الخطبة أن إسكينز هاجم ديموستين أمام الجمعية الوطنية ، ورماه بالضعف، =

وهكذا يمكننا القول بأن الخَطابة عند اليونان عاشت رقيا وازدهارًا وتقدما ، حيث توفرت لها دواعي الازدهار وأسباب التقدم ، والتي يمكن أن تتلخص في الآتي [(١)] :

أ ـ أجواء الحروب والمناوشات التي عاشتها البلاد اليونانية .

ب ـــ ظهور المسارح والفنون والآداب ونشاطها ، وخاصة في إسبرطة ، وكانت بمثابة منابر للخَطابة ، مما أدى إلى نهضة خطابية ، وتدريب على حسن الإلقاء .

ج ـ النظام السياسي الذي توفرت في ظله الحرية السياسية ، وكان لكل صاحب رأي أو اتجاهٍ الحقُّ في أن يعبر عن رأيه ، ولما كانت الجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر من حججه المنطقية ، كان يتبارى الخطباء في إجادة خطبهم أداءً ومضمونا كي يجتذبوا مشاعر الجماهير ، ويستميلوهم إليهم ، ويقنعوهم بآرائهم .

د ـ نظام القضاء ، حيث كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيد على المائة ـ وبلغ أيضا عند الرومان نحو أربعمائة ـــ وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهورا ، ويدفع المتقاضين أن يسلكوا سبيل التأثير في عواطف القضاة ،

= وبأنه لا يستحق الإكبار ، ولا يحق له أن يتوّج بتاج الزهر الذي كانت الجمعية تضعه على هامات المتفوقين، فألقى ديموستين خطبته هذه وخطبًا أخرى أوفت على الغاية في الفصاحة والبيان، وأفحم بها خصمه ، واضطره إلى الهرب ودفع الغرامة، فكان ديموستين يرسل إليه المال ليعينه على احتمال الغربة والفاقة، والحق أن السر في تفوق ديموستين تمثيله وتشدقه ، لا تعليله وعمقه ، وسحر الإلقاء لا قوة الفكر . المرجع السابق . نفس الموضع .

(١) الخَطابة . د/ عبد الجليل شلبي ص ١٤٥ ـ ١٤٦ . باختصار وتصرف .

ويهتموا ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية ، فكان ذلك مدعاة لنهضة الخَطابة ، لأنها هي التي تحقق للمتقاضين ما يريدون ، وجدير بالذكر أنه لم يكن لدى اليونان نظام توكيل محام ، فكان كل شخص يدافع عن نفسه ، وقد اضطر هذا النظامُ جمهورَ الشعب أن يتعلم الخَطابة ويتدرب عليها ، فكان هناك معلمون يعلمون الناس الخَطابة ، وأقبل الشباب على تعلمها والتدرب عليها ، استعدادًا لما عسى أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء .

مِن خُطب ذلك العصر

ونورد هنا خطبة من خطب اليونانيين وهي للخطيب المشهور «لوسياس» الذي ولد سنة ٤٥٩ ق.م ، وعمَّر أكثر من ثمانين عاما [١] .

ومن خطب لوسياس الشهيرة خطبة أعدها للدفاع عن شاب مُقعَد كان يحصل على معونة من الحكومة ، ثم اتُّهم بأنه كان يدعي ادعاءات كاذبة للحصول على هذه المعونة ، وفي هذه الخطبة تبدو روح السخرية والتهكم ، ومنها :

« شكرًا للمدعي على تقديمي لهذه المحاكمة ، لم أكن حتى هذه الساعة أجد سببًا به أتحدث عن حياتي ، وقد أتاح المدعي لي هذا السبب ، وسأبين في حديثي مدى خطئه وكذب تهمه ، وأوضح لكم بالأدلة القاطعة أن حياتي تستحق كل عطف وثناء وإعجاب بدلا من الغيرة والأحقاد ، لا أعتقد أن هناك سببا دفعه إلى تقديمي للمحاكمة إلا هذا السبب ، سبب الحقد والحسد ، فما ظنكم بالخسة والحقارة التي يهوي إليها من يحسد شخصا يشفِق عليه ويرثى

(١) السابق ص ١٥٣ ، والخطبة المذكورة عنه أيضًا ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

لحاله الناسُ جميعا .

طبيعي أنه لم يقم بالتبليغ عني ليجنيَ من وراء ذلك أموالا ، وهو أيضًا لا يقصد معاقبة عدوٍّ يريد أن ينتقم منه ، وإنما دفعه إلي ذلك سوء خلقه ، إذ لم يسبق أي معاملة معه .

واضح لكم أيها السادة أنه يغار مني ، فإنني على الرغم من عاهتي هذه ، مواطن شريف أحسن منه ، إن المرء المنكوب المصاب يعمل دائما كي يعوِّض عن نكباته الجسدية بسجايا عقلية حميدة ، ولو أبديت عقلية تتناسب وجسدي المنكوب الحظ ، وصغت حياتي تبعًا لذلك لكنت شخصا سيئا مثله .. (وقد اتخذ من ركوبي ذريعة لاتهامي) .

وليس لديّ كثير أقوله عن ركوبي ، الذي تجرأ على ذكره غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم ، فإني أعلم أن الذين يعملون تحت أي ضغط أو يتحملون أعمالا فوق طاقتهم ، يُضطرون لتلمس لحظات للاستجمام ، ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون ، إنني واحد من هؤلاء ، وقد وجدت في الركوب لأي مسافة شيئا من الراحة ، ولو كنت ميسور الحال لنشدت راحتي في ركوب بغل بدلا من استعارة جواد ، ولكن ما حيلتي ، وليس لديّ ما أشتري به دابة ، فأنا مضطر دائما إلى استعارة جواد.

إني لأعجب من هذا الاتهام ، يراني أستعمل عصوين ، وغيري من العُرج والأصحاء يمشي وبيده عصا واحدة ، فلا يرثى لي ، ولكن يتهمني بالترف والإسراف ، لأن الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون شراء عصوين » .

وهكذا تمضي الخطبة تستعرض التهم واحدة بعد أخرى لتفندها وتردها .

٢ ـ الخَطابة عند الرومان

ترتبط حال الخَطابة الرومانية بحال الحكم في تلك البلاد ، فقد نشأت الحكومة الرومانية في روما مَلَكية مطلقة ، تعامل الناس على أنها تستمد سلطانها من السماء ، ومنذ سنة ٥٠٠ ق.م تحولت إلي جمهورية .

ولم تكن حياة الرومان ممتَّعة بحرية كافية ، ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة ، مثل موقف أنطونيو صديق القيصر اليوناني « يوليوس قيصر » حيث قُتل إثر محاكمتِهِ محاكمَةً رهيبة ، دبّرها له اثنان من أصدقائه هما « بروتس » و « كاسيوس » ، وظل الخطباء يذكرون أخطاءه ومظالمه حتى أثاروا عليه الناس فقتلوه ، وقد دهش القيصر للطعنة القاتلة من « بروتس » فالتفت إليه وقال : « حتى أنت يا بروتس »[(١)] ، فقد وقف « أنطونيو » عند تشييع جثمان القيصر فألقى خطابًا مثيرًا رهيبًا ، استفز به السامعين ، وأثار غضبهم على قتلة القيصر ، ثم طارد هو وصديقه الآخر « أوكتافيو » ـ طارَدا ـ بروتس « وكاسيوس » إلى بلاد اليونان حيث ماتا منتحرين .

واتخذ الكتاب والشعراء فيما بعد من موقف بروتس من يوليوس قيصر ، ثم من موقف أنطونيو من بروتس مجالًا لتمثيل سحر البيان ، وأثر الخَطابة في نفوس السامعين ، ولا تزال مرثية أنطونيو من الآثار الأدبية الرائعة .

---

(١) قتل يوليوس في منتصف مارس سنة ٤٤ ق م . الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٤١٢ ، وراجع الوجيز في قصة الحضارة ٢/ ١٥١ ـ ١٥٤ .

وفي العهد المسيحي ظهرت خطب دينية ، وكان الموقف خليقا أن يخرّج خطباء ممتازين كبارًا ، ولكن المسيحية ظلت مكبوتة ، فلما صارت ديانة رسمية انشقت على نفسها ، واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكي ، ولما ظهر هرقل بمذهبه الذي قام على وحدة الإرادة ، والذي أراد به أن يوفق بين المذاهب المتضاربة ؛ كان قصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهبا آخر ، وكان بطشه وظلمه مما قتل الخَطابة ، وكمم أفواه الخطباء [(١)] .

وكان أشهر خطباء العصر الروماني « ماركوس توليوس شيشرون » ، (١٠٦ ـ ٤٣ ق.م) ، وهو خطيب وكاتب ومحام وسياسي ، تلقى العلم على خيرة أساتذة عصره في روما وأثينا ورودس ، واشترك في الحياة العامة ، وتقلد مناصب في الدولة ، وقد اختلفت الآراء في شيشرون ، وأخذ عليه بعض المؤرخين صفات الغرور[(٢)] ، وخور العزيمة وعدم الثبات على المبدأ ، لكنه كان محاميًا قديرًا وخطيبًا بليغًا، وكاتبًا ممتازًا ، ترك مؤلفات عديدة في البيان والفلسفة ، فضلًا عن عدد كبير من الخطب الرائعة ، والخطابات المشهورة [(٣)] .

وقد « طغت شهرته على مَن سواه بسعة ثقافته وغزارة مؤلفاته ، وتدفق بيانه في الخَطابة » [(٤)] .

---

(١) الخَطابة . د/ عبد الجليل شلبي ص ١٥٧ وما بعدها باختصار وتصرف .

(٢) ومن غروره قوله : « تقديري لنفسي أنها أعظم الأشياء عندي ، وهو لم يكن يرى أن لقيصر الحق في شهرة تفوق شهرته ، لأن البيان فوق السلطان ، فعلى روما أن تقدر خطباءها قبل قادتها . الوجيز في قصة الحضارة ٢/ ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣) الموسوعة الميسرة ٢/ ١١٠٦ .

(٤) الوجيز في قصة الحضارة٢/ ١٤٨ .

وممن نبغوا في الخَطابة في الرومان كذلك : الخطيب الروماني الأسباني الأصل « كونتليان » الذي عاش في حدود القرن الأخير قبل الميلاد ، فقد كان خطيبًا بليغًا ، من علماء البيان ، وقام بتدريس أصول البلاغة ، وألف كتابا ضخما عن « أسس الخَطابة » يتكون من اثني عشر جزءًا ، أولها يبدأ بالكلام عن تربية النشء ، ثم ينتقل في الأجزاء الأخرى إلى الكلام عن أصول الخَطابة وقواعدها ، ووضع للخطيب المُفَوّه خطة تساعده على إتقان فنّه ، فطلب منه الإلمام بثقافة عصره كلها ، ونصح له بالروية ، وبتقسيم الخطبة إلي أقسام هي : المقدمة ، والعرْض ، والبرهان ، والدحض ، والخاتمة ، و حذره من الإطالة وبين له أن الحذف أهم من الإضافة ، لكي يبرأ الكلام من اللغو والفضول ، ولقد اشتهر بأسلوبه الأخاذ الجميل ، الذي أعجب به كل من قرأه ، لذلك كان تأثيره كبيرا ، في العصور القديمة وفي عصر النهضة أيضا (١) .

وعمومًا فلم تكن الخَطابة عند الرومان ذاتَ حظ من الرقي والانتعاش ، بسبب ما كان يسود الحياة السياسية من استبداد ، وتسلط ، على عكس ما كان لدى اليونان .

من الخَطابة في هذا العصر

من خطبة قضائية لـ « شيشرون »

وهو في هذه الخطبة يدافع عن شخص يُدعى « ميلون » قتَل آخرَ يسمى « كلوديوس » ، فيقول :

« أيها القضاة : ربما تعروني هزةٌ من الخجل ، وربما أحسست بالرعشة تسري

---

(١) السابق ٢/ ١٦٧ ، الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٥١٨ بتصرف .

في شفتيّ حينما أفتحهما لأدافع عن قاتل ، ولكني أدافع عن أشجع الرجال وأكرمهم ، ويرجح عندي أن ميلون حينما ارتكب جريمتة كان غائبًا عن كل شيء إلا عن سلامة الوطن ، فمن المخجل إذًا أن لا أدافع عنه بنفس الروح التي أجرم بها .

أعترف أن هيئة هذه المحكمة غير العادية تخيف نظراتي ، إني أسرحها هنا وهناك فلا أرى هيئة المحكمة القديمة ، تلك الهيئة التقليدية التي تعودناها في محاكماتنا ، إني أرى المقاعد التي تشغلونها خالية من جموع الشعب الزاخرة الضاغطة ، التي تعودت أن تسمعنا في مثل هذه الظروف ، إن هذه الجنود التي تسد علينا المنافذ والأبواب من شأنها أن لا تبعث الطمأنينة في نفس الخطيب ، مهما تحدثتم عن مهمتها في حفظ النظام ، وعن الحاجة إليها ، بل وعن ضرورتها ، فليس في وسعكم أن تنكروا أثرها السيئ ، فإن منظرها يثير الشعور بالخوف ، ونخشى أن يختلط ذلك الخوف بالثقة التي نستمدها من الشعب ، ولو أنني اعتقدت أن هذا التسلح إنما اتخذ ضد ميلون وحده لاستسلمت للظروف ، لأني أعلم أن شقشقة اللسان لا تغنى شيئًا أمام شقشقة الحسام ، ولكن ميولي العادلة التي لا توازيها إلا عدالة (بومبي) تجعلني في مأمن من أن أسكن إلى مخاوفي .

أما فيما يتعلق بالشاهدين ــ وأقصد هنا المواطنين الذين جاءوا لسماع المحاكمة ، وعيونهم تخترقنا من كل ناحية ــ فإني أؤكد أنه ليس فيهم من لا يرجو التمنيات الطيبة لخلاص ميلون ، وليس فيهم من لا يلتمس له المعذرة ،

وإن لا يكن له فلأولاده ، وإن لا يكن لأولاده فلوطنه .

طبقة واحدة هي التي تعمل ضدنا ، هم الذين غذاهم كلوديوس من السلب والنهب والمصائب التي وقعت على رأس الشعب ، إنهم مدفوعون للقبض على ميلون .

إن صيحاتهم ـ إذا كانوا يجرؤون على إسماع أصواتهم ـ يجب أن تنبهكم إلى مواطن كريم طالما هاجم من أجلكم هذا الصنف من الناس ، طالما أخرس صيحاتهم البذيئة ضدكم ليفرجَ روعكم إذن ، لتطمئن نفوسكم .

أيها القضاة : إنكم تملكون كل شيء في موقفنا ، أتحكمون علينا ـ نحن الذين أخلصنا لسلطتكم ـ أن نسفح الدمع أبدا ؟ أم نستطيع بعد ما قدمنا أن ننتظر منكم الشجاعة والحكمة ، فتكفكفوا دموعنا ، وتخففوا من شقوتنا ؟ ونرجع فنقول : ما أعظم المحنة وما أشقى الحياة ، وما أشد ما نعانيه [١] .

وهكذا يأخذ شيشرون في دفاعه الذي يرتكز على إثارة العاطفة والوجدان أكثر من الارتكاز على القانون والبرهان .

٣ ـ الخَطابة عند العرب في العصر الجاهلي

كان العرب في شبه الجزيرة العربية يعيشون في إطار قبائل متفرقة ، لكل قبيلة من قبائلهم رئيسها ، وسيادتها الخاصة بها، فلم تكن لهم حكومة تجمعهم، وكانوا يعيشون في صحراء قاحلة ، وبيداء واسعة ، وبيئة صعبة قاسية .

---

(١) فن الخَطابة د/ أحمد الحوفي ص ١٩٩ وما بعدها . نقلا عن محاضرات الخَطابة للدكتور إبراهيم سلامة .

وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم والغارات، وتحدث العداوات والمنازعات، وكان يعقبها صلح ووئام ، كما كانوا يتفاخرون بالأحساب والأنساب والمآثر ، وتحاول كل قبيلة أن ترفع بين القبائل ذكرَها ، وتعليَ من قدر نفسها أمام غيرها .

كما كان العرب يقومون بإيفاد الوفود عنهم لتهنئه أو لتعزية .

وقد كانوا يتشاورون فيما بينهم لعقد أمر أو فضّه ، كما كان الحال في دار الندوة إذ ذاك في مكة ، وقد كانوا أُولِي غيرة ، وذوي مروءة ونجدة .

كما كانت تتفشى فيهم بعض العادات القبيحة مثل وأد البنات خشية الفقر والإملاق، بينما كان منهم من يعارض مثل هذه العادات القبيحة ويستهجنها ويحاربها ، ويدعو إلى التنزه عنها ، والتخلص منها .

وهكذا كانت حال العرب وطبيعة بيئتهم وظروفهم مشجعة على الخَطابة ، ومثيرة لها ، بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به إلى حد بعيد من حرية التعبير عن آرائهم ، وما كانوا يتحلون به من شجاعة وإقدام ، وما كانوا يتصفون به من البلاغة والفصاحة ، والتمكن من ناصية اللغة ، حيث كانت اللغة طيِّعة لهم ، مثرية لكلامهم ، ومزينة لأدبهم .

كل هذا ونحوه أسهم في إنعاش الخَطابة عند العرب في الجاهلية ، وجعل لها مكانا في حياتهم ومكانة ، ودعت إليها الحاجة ، وتعددت أغراضها ، وكثرت مناسباتها ، وتباروا فيها ، وتفننوا في إلقائها ، وتسابقوا في تحسينها وتجويدها ، واشتهر منهم خطباء كثيرون .

« وأشهر خطبائهم في هذا العصر قُسُّ (١) بنُ ساعدةَ الإيادِيُّ ، وعمرو بن كلثوم التغلبيُّ ، وأكثمُ بن صيفيِّ التميميُّ ، والحارث بن عباد البكري ، وقيس ابن زهير العبسي ، وعمر بن معد يكرب الزبيدى » (٢) .

ولقد كان لكل قبيلة شاعر وخطيب ، وكانت منزلة الشعراء في الجاهلية مقدمة على الخطباء ، ثم تأخروا عن الخطباء فيما بعد ، و قد ذكر الجاحظ عن أبى عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ، ويفخّم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومَن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعرُ غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (٣) .

وكانت خطبهم على ضربين منها الطوال ومنها القصار ، وقد وُجد أن عدد القصار أكثر ، لأن رواة العلم إلى حفظها أسرع (٤) .

وكان خطباء العرب يلجأون إلى الإشارة بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم ، وأحيانا بالعصيّ (٥) ، وكانوا يجلسون في خطب النكاح ، ويقومون في خطب

---

(١) ضبطه بضم القاف عليُّ بنُ هبةِ الله بنِ أبي نصر بنِ ماكولا ، في كتابه (الإكمال) ، باب قَسّ وقُسّ وقُشّ . دار الكتب العلمية . بيروت . ط الأولى ١٤١١هـ .

(٢) تاريخ الأدب العربي . أحمد حسن الزيات . ص ٢٠ . دار نهضة مصر . القاهرة .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٤١ .

(٤)البيان والتبيين ٢/ ٧

(٥) السابق ٣/ ١١٦ بتصرف .

الصلح ، وكلِّ ما دخل في باب الحَمَالة ، وأكّد شأنَ المخالفة ، وحقق حرمة المجاورة ، وكانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار [1] .

وقد قيل إن أول من خطب على العصا والراحلة قُسُّ بن ساعدة الإيادي ، وأنه أول من أظهر التوحيد بمكة وما حولها مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأنه أول من قال أما بعد ، وقال بعضهم إن أول من قال أما بعد هو داود عليه السلام [2] ، وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة جهير الصوت ، سليم المنطق ، ثبت الجنان [3] .

وهكذا كانت الخَطابة في ذلك العصر على درجة كبيرة من التقدم والرقيّ لما ذكرنا من دواعٍ ، أدت كذلك إلى تنوع أغراضها ، وتباين موضوعاتها ، فكانت خطب التحريض والإثارة على القتال ، وخطب الصلح وفض المنازعات ، وخطب الزواج ، وخطب التهنئة والرثاء ، وخطب المنافرات والمفاخرات ، وخطب المشورة ، والخطب الإصلاحية التي كانت تتسم بطابع الوعظ .. إلى غير ذلك من الأغراض .

نماذج من خطب ذلك العصر

أ ـ خطبة كعب بن لؤيّ

قال ابن كثير رحمه الله : روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن

---

(١) السابق ٣/ ٦ ـ ٧ بتصرف .

(٢) راجع الأوائل لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . ص ٤٤ ــ ٤٥٠ دار الكتب العلمية . بيروت . ط الأولي ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م .

(٣) تاريخ الأدب العربي ص ٢٠ ، وراجع البيان والتبيين ١/ ١٢٠ ـ ١٢١ .

محمد بن طلحة التيمي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة قال : كان كعب بن لؤيّ يجمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تسميه العَرُوبَة ، فيخطبهم ، فيقول: أما بعد: فاسمعوا وتعلموا ، وافهموا واعلموا ، ليل ساج [(١)] ، ونهار ضاح [(٢)] ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، والأنثى والذكر ، والروح وما يهيج إلي بِلي [(٣)] ، فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمّروا أموالكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ؟ أو ميت نُشر ؟ الدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون ، حَرَمُكم زيِّنوه وعظِّموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم يقول :

نهار وليل كل يوم بحادث ... سواء علينا ليلها ونهارها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوّبا ... وبالنعم الضافي علينا ستورها
على غفلة يأتي النبي محمد ... فيخبر أخبارًا صدوق خبيرها

ثم يقول : والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر ، ويد ورجل ؛ لتنصَّبتُ [(٤)] فيها تنصُّب الجمل ، ولأرْقلتُ [(٥)] بها إرقال العَجِلِ ، ثم يقول :

---

(١) ساج سْوجًا وسوَاجًا وسَوَجانًا : جاء وذهب . المعجم الوسيط ١/ ٤٧٨ .

(٢) ضاح : أي بارز ظاهر . يراجع مادة ضحا في المعجم الوسيط ١/ ٥٥٥ .

(٣) أي : إلى فناء .

(٤) نَصَب الشيءَ أقامه ورفعه ، وناقة نَصْبَاء : مرتفعة الصدر ، وتنصَّب مطاوع نَصَبَ ، يقال نصَّبَه فتنصّبَ ، ويقال : تنصَّب الطائر : ارتفع . المعجم الوسيط ٢/ ٩٦١ ، القاموس المحيط ص ١٧٧ .

(٥) أرْقَلَ في سيْرِه أسرع ، وإلى كذا وفيه جدَّ وأسرع ، والمِرْقَالُ : السريع أو الكثير الإرقال . المعجم الوسيط ١/ ٣٧٩ .

يــاليتني شــاهدا نجــواء دعوتــه حين العشيرة تبغي الحق خـذلانا

قال : وكان بين موت كعب بـن لـؤي ومبعـث رسـول الله ﷺ خمسمائة عـام وستون سنة (١) .

وهذه الخطبة تطلعنا عـلى بعـض ملامـح الأسـلوب الخطـابي في ذلـك العـصر ، حيث يتبين فيها ، روعة اللفظ وقـصر الجملـة مـع تمـام الإفـادة مـن ناحيـة المعنـى ، والاقتباس الشعري ، كما يتبين منها أنها لغرض النـصح والإرشـاد الـديني ، حيـث يذكرهم بفناء الدنيا ، ويحثهم على الـتحلي بمكـارم الأخـلاق ، وتعظـيم الحَـرَم ومـا يتعلق به من شعائر ، والإشـارة إلى ظهـور النبـي محمـد ﷺ ، ولعـل هـذا راجـع إلى وجود بقايا من دين إبراهيم عليه السلام لـديهم ، وإلى تـأثرهم فكريـا بـبعض أهـل الكتـاب الـذين كـانوا يعرفـون النبـي ﷺ مـن خـلال كتـبهم التـي بـشرت بـه عليـه الصلاة والسلام ، كما يتبين كذلك أنها لم تكن من الخطب الطوال .

ب ــ خطبة أبي طالب في زواج النبي ﷺ من خديجة

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع (٢) إسماعيل ، وضِئْضِىءِ (٣) معدّ ، وعنصر مُضَر ، وجعلنا حَضَنَة بيته ، وسُوَّاسَ حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرمًا آمنًا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخي هذا محمـد بـن عبـد الله لا يـوزن بـه

(١) البداية والنهاية . الحافظ ابن كثير الدمشقي ٢/ ٢٢٧ تحقيق د/ أحمد أبو ملجم وآخرين . دار الريان للتراث . القاهرة . ط الأولي ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م .

(٢) الزرع : الولد ، القاموس المحيط ص ٩٣٦ .

(٣) الضِّئْضِىُء : الأصلُ ، يقال هو من ضِئْضِىءٍ كريم ، جمع ضَآضِيء . المعجم الوسيط ١/ ٥٥٢ .

رجل إلا رجح به ، فإن كان في قُلٍّ [١] ؛ فإن المال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمدٌ مَن قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي ، وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل [٢] .

ثانيًا : الخَطابة في العصور الإسلامية

١ـ عصر صدر الإسلام

كان ظهور الدعوة الإسلامية حدثا عظيمًا ، وتحولا بارزًا وضخما في تاريخ الإنسانية ، حيث بعث الله رسوله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل ، وبعد أن كان الناس في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، وبعد أن أسِنَت الحياة وفسدت بها ضلّ الناس طريق الله رب العالمين ، وصراطه المستقيم .

ولقد جاء النبي ﷺ برسالته من رب العالمين ، وقد أُمِر بإعلانها وتبليغها ، فلم يسعْه إلا القيام بما أمره به ربه : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ [المائدة:٦٧] ، فقام البشير النذير ﷺ يدعو بدين الله ، فطرق مسامعَ البشرية صوتُ هذا الداعي الجديد ، وأقبل الناس ينظرون ما الأمر ، فكان منهم من شرح الله صدره للإسلام ، فكان على نور من ربه، ومنهم من أعرض واستكبر ونأي بجانبه ، وولى وأدبر ، واتبع هواه ، وحارب دعوة الله ، فصار للدعوة مناوئون ، كما كان لها ممالئون ، فأنصارها يدعون إليها ويذودون عنها، وأعداؤها يحاربونها

---

(١) القُلّ بالضم : القليل ، ورجلٌ مُقِلٌّ وأَقَلّ : فقيرٌ وفيه بقية . القاموس المحيط ص ١٣٥٦ ، ورجل قُلّ : فرد لا أحد له . المعجم الوسيط ٢/ ٧٨٥ .

(٢) صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ١/ ٣٧ . تحقيق إبراهيم رمضان ، وسعيد اللحام . دار الكتب العلمية . بيروت . ط الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .

ويصدون الناس عن طريقها .

ومنذ ذلك الحين أَهَلَّ على الخَطابة زمان جديد ، كان إيذانا بارتقائها وعلو شأنها، فقد اعتمدت الدعوة الجديدة على الخَطابة في نشرها ، والدفاع عن مبادئها ضد خصومها ، وكذلك صنع المناوئون لها ، ثم إن الإسلام بالإضافة إلى اعتماده على الخَطابة في نشر الدعوة ، قد جعلها ضمن الشعائر التعبدية ، ففرض خطبة كل يوم جمعة ، لا تصح الصلاة بدونها ، كما أن هناك الخطبَ المشروعة في الحج ، وفي الاستسقاء ، وفي الخسوف والكسوف ، وفي الزواج ، والجهاد وغيرها ، كما أن الشريعة الإسلامية تحث دائما على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإسداء النصح للآخَرين .

ولقد ارتقت الخَطابة في ظل الدعوة الإسلامية ، وبلغت الغاية في الكمال مظهرًا وجوهرًا ، أو أداءً ومضمونًا ، وكان من أكبر عوامل ارتقائها وسموها ؛ استمدادها من القرآن الكريم ، وسنة الرسول ﷺ ، وتأثّر الخطباء ببلاغة وفصاحة القرآن والحديث النبوي الشريف .

وقد ذكر ابن خلدون أن كلام العرب الذين أدركوا الإسلام قد فاق كلام الجاهليين ، في الشعر ، وفي النثر بأنواعه من خطابة وكتابة ومحاورة ونحوها ، وأن ذلك كله قد أتى أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من منظوم الجاهليين ومنثورهم ، ثم قال :

والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة ، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث ، اللذيْنِ عجز البشر عن الإتيان بمثليْهما ، لكونها

ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نَظْمهم ونثرهم أحسنَ ديباجة وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة ، وتأمّلْ ذلك يشهدْ لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصّر بالبلاغة (١) .

وكثير من أغراض الخَطابة التي كانت قبل الإسلام ؛ بقيت أيضا بعد الإسلام ، مثل الزواج والصلح ، والحث على القتال ، والأغراض السياسية ، والقضاء وغيرها ، وبقيت أيضا كثير من عادات الخطباء العرب قبل الإسلام ، واستمرت إلى ما بعده ، مثل اعتماد الخطيب على العصا ، وإلقاء الخطبة من مكان مرتفع ، أو فوق الراحلة ، وقد خطب النبي ﷺ وهو على ناقته في حجة الوداع ، ومِثل لفّ العمامة ، والإشارة أثناء الإلقاء ، وغير ذلك .

ثم إن الخطبة في الإسلام اكتسبت مزايا وخلالًا طيبة لم تكن فيها من قبل ، حيث صارت تفتتح بحمد الله والصلاة والسلام على الرسول ﷺ ، والتشهد بالشهادتين ، والاستشهاد بآيٍ من القرآن الكريم ، وكلام النبي ﷺ ، والالتزام في مضمونها بأدب الإسلام وشريعته ، مما يعني إهمال بعض الأغراض التي كانت موجودة من قبل ، والترفع بالخَطابة عنها ، مثل التنافر والتفاخر بالأحساب والأنساب الجاهلية ، ونحو ذلك مما كان سائدًا قبل الإسلام .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٣١٥ـ ١٣١٦ .

وقد ذكر الجاحظ أن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين لهم بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد ، وتستفتح بالتمجيد « البتراء » ويسمون التي لم تُوشَّح بالقرآن وتُزيَّن بالصلاة على النبي ﷺ : « الشوهاء » .

وخطب أعرابي فلما أعجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد والاستفتاح بالتمجيد ، قال: « أما بعد بغير ملالةٍ لذكر الله ولا إيثارِ غيرِه عليه، فإنا نقول كذا ، ونسأل كذا » ، فرارًا من أن تكون خطبته بتراء أو شوهاء [(١)] .

وقال كذلك : وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يومَ الجُمع آيٌ من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار ، والرقة ، وسلس الموقع .

قال الهيثم بن عدي : قال عمران بن حطان : إن أول خطبة خطْبتُها عند زياد أو عند ابن زياد ـ فأعجب بها الناس ، وشهدها عمي وأبي ، ثم إني مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن [(٢)] .

وكانت خطب ذلك العصر مثل خطب ما سبقه ؛ منها الطوال ومنها القصار ، كما يتبين هذا من استقرائها ، وإن كان الغالب هو النوع القصير وما فوقه .

ولقد اشتهر في ذلك العصر كوكبة من الخطباء الأفذاذ ، على رأسهم خاتم

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٦ .

(٢) السابق ١/ ١١٨ .

النبيين ، وإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، الذي آتاه الله جوامع الكلم ، وكان له ﷺ خطيب هو ثابت بن قيس بن شماس [١] ، وكان جهير الصوت خطيبا بليغا [٢] .

ثم كان من خطباء ذلك العصر المبارك الفصحاء ؛ الخلفاء الأربعة ، وكثيرون من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

« وجملة القول أنه ليس في عصور اللغة عصر زها بالخَطابة ، وحفل بالخطباء كهذا العصر ، لانصراف العرب عن الشعر إليها ، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها » [٣] .

من خطب هذا العصر

١ ـ خطبة لرسول الله ﷺ :

«إنّ الْحَمْدَ للهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. إنّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَيّنَهُ اللهُ فِي قَلْبِهِ وَأَدْخَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ وَاخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ النّاسِ إنّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ، أَحِبّوا مَا أَحَبّ اللهُ أَحِبّوا اللهَ مِنْ كُلّ قُلُوبِكُمْ، وَلَا تَمَلّوا كَلَامَ الله وَذِكْرَهُ، وَلَا تَقْسُ عَنْهُ قُلُوبُكُمْ، فَإِنّهُ مِنْ كُلّ مَا يَخْلُقُ اللهُ يَخْتَارُ وَيَصْطَفِي، قَدْ سَمّاهُ اللهُ خِيرَتَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ وَمُصْطَفَاهُ مِنْ الْعِبَادِ،

(١) صفة الصفوة ١/ ٣١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٠٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربى ص ١٧٦ .

والصّالِحَ مِن الْحَدِيث، وَمِنْ كُلّ مَا أُوتِيَ النّاسُ مِنْ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَاعْبُدُوا اللّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتّقُوهُ حَقّ تُقَاتِهِ وَاصْدُقُوا اللّهَ صَالِحَ مَا تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَتَحَابّوا بِرُوحِ اللّهِ بَيْنَكُمْ، إنّ اللّهَ يَغْضَبُ أَنْ يُنْكَثَ عَهْدُهُ. وَالسَّلَام عَلَيْكُم» (١) .

٢ـ خطبة جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي

وذلك أنه لما هاجر المسلمون إلى الحبشة أرسلت قريش بِرَسُولَيْن في أثرهما ، وزوّدتْهما بهدايا ثمينة إلى النجاشيّ وإلى جميع بطارقتة ، وكلفوهما بأن يطلبا من النجاشي أن يسلم إليهما من هاجر من المسلمين ، بدعوى أنهم ما هم إلا مجموعة من السفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دين الملك النجاشي ، وجاؤوا بدين ابتدعوه ، وهم لذلك أهل للتأديب ، وقد استمالوا بطارقة النجاشي إلى صفوفهم ، ليضمنوا بذلك مؤازرتهم لهم في طلبهم عند الملك .

وكان الرسولان هما عبد الله بن أبي ربيعه ، وعمرو بن العاص ، فلما فاتحا النجاشي في الأمر ، غضب وقال : لا هاالله إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدْعوَهم فأسألَهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠١، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار الوفاق – بيروت، دلائل النبوة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفَّى ٤٥٨هـ)، ٢/ ٥٢٤، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.

وانظر شرحًا للخطبة المذكورة في الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفَّى ٥٨١هـ)، ٤/ ١٧٠، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنْتُ جوارهم ما جاوروني .

ثم أرسل إلى المهاجرين ، وحضروا لدى الملك وأساقفته ورسوليْ قريش .

وأمام هذا الجمع ألقى جعفر بن أبى طالب هذه الخطبة المثيرة المقنعة ، فقال:

أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ (قالت أم سلمه التي تروي القصة والخطبة) : فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ؛ خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورغبنا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

وبعد أن انتهت الخطبة قال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، فقرأ عليه صدرًا من «كهيعص» ، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته ، وكذا أساقفته حتى بلّوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يُكادون (١) .

وهكذا كان لفصاحة جعفر وبلاغته ، وجودة خطبته الأثر الأكبر في إقناع النجاشي واستمالته ، والتأثير فيه لصالحه ، خاصة وأن الرجل كان يتحلى بالعدل والتجرد من الهوى ، فأفرغ جعفر في مسامعه كلماته المؤثرة ، وخطبته البليغة ، فكان ما كان .

ثم إنه يتضح جليًّا من عبارات جعفر ـ رضوان الله عليه ـ أنه لم يكن مجرد خطيب يحترف الخَطابة ، بل كان صاحب دعوة ملكت عليه شغافه ، وجرت من نفسه مجرى الدم في العروق ، فخرج الكلام من القلب يكسوه الإخلاص ، وتجمله الفصاحة ، وتزينه جودة الإلقاء ، فلا غرو أن وجد من المستمعين آذانًا صاغية وقبولًا حسنًا .

٣ ـ خطبة أبي بكر الصديق حينما بويع بالخلافة

حمِد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ، ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، فإني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧ باختصار .

فيكم قويّ عندي حتى أريح [1] عليه حقه إن شاء الله ، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله [2] .

هذا ، « وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم ألقاك .

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غِرَّة ، ولا تجعلني من الغافلين » [3] .

وهذا يوضح لنا مدي التأثير الإسلامي في الخَطابة بعد مجيء الإسلام .

ثم إن خطبة أبي بكر التي معنا خطبة سياسية ومع هذا فهي تنطلق من الدين ، وفي هذا دحض للافتراء القائل بأنه لا علاقة للدين بشون الحكم ، ولا بشئون الحياة .

وهذه الخطبة على وجازتها حوت ملامح ذلك الحاكم الجديد ، وأبرزت منهجه في الحكم ، وسياسته للرعية ، كما كانت حاسمة في تبديد مخاوف الطبقة الضعيفة من ضياع حقوقهم ، فلم ييأسوا من عدل الخليفة ، وكانت قاطعة

---

(١) أي أعيد عليه حقه .

(٢) السابق ٢/ ٦٦١ ، صفة الصفوة ١/ ١٣٥ـ ١٣٦ ، العقد الفريد ٤/ ١٤٣ـ ١٤٤ .

(٣) العقد الفريد ٤/ ١٥١ .

لأطماع من تحدثه نفسه من طبقة الأقوياء أو الشرفاء بأخذ ما ليس له أو ظلم ضعيف ، فلم يطمع بذلك شريف أو قوي في جوره ، كما بينت شخصية الدولة القوية ، وأنها لا تفرط في إعداد العدة لجهاد أعداء الله ، وكلٍّ من تسول له نفسه بالنيل من كرامة الأمة ، وهذه الدولة ينبغي أن ترعى الفضيلة ، ويتخلق أهلها بها ، وأن توصد الأبواب أمام أي رذيلة من الرذائل ، أو فاحشة من الفواحش، كما أن الخطبة تطمئن الناس على أن الحاكم الجديد لن يحرمهم حقهم في الحرية السياسية ، والتي من مظاهرها نصح الحاكم وتقويمه إذا حاد عن الدستور المتمثل في الشريعة الإسلامية .

كل هذا وغيره حوته هذه الخطبة الموجزة البليغة ، والتي تميزت بسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة ، وقرب المعني ، وسمو المضمون ، واستمدادها من القرآن والسنة .

٢ـ العصر الأموي

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل سيدنا عليّ بن أبي طالب يوم ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ ، ويعد بدء الدولة الأموية من تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما ، في (مسكن) يوم ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ ، واستمرت حتى معركة " الزاب " التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية، حيث هُزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وذلك في ١١ جمادي الأولى عام ١٣٢ هـ ، وبذا فقد دامت هذه الدولة ما ينوف إحدى وتسعين سنة ، وقد توالت عليها أسرتان ، وكان

خلفاؤهما اثني عشر خليفة .

١ـ الأسرة السفيانية ، وقد حكمت ثلاثة وأربعين عاما (٢١ ـ ٦٤هـ) .

٢ـ الأسرة المروانية ، وقد حكمت سبعة وستين عاما (٦٤ ـ ١٣٢ هـ) [(١)] .

ويكاد يجمع المؤرخون للأدب العربي على أن الخَطابة شهدت في العصر الأموي أزهى عصورها ، وأنها راجت رواجًا كبيرًا ، لاسيما في أول قيام الدولة ، ثم في مراحلها المختلفة .

وقد ساعد على هذا توفرُ دواعي الخَطابة في ذلك العصر ، والتي كان أبرزها وجود الخلافات المذهبية والأحزاب السياسية منذ فجر الدولة ، بل منذ خلافة سيدنا علي كرم الله وجهه ، فقد ظهرت الشيعة والخوارج ، وكان ثَمّ حزبٌ للإمام عليّ ، وآخرُ لسيدنا معاوية ، ثم بعد ذلك تتابعت الفتن والأحداث ، فكان استشهاد الإمام الحسين ، « ولما وصل خبر مقتل الحسين بن علي إلى الحجاز ؛ أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد ، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه من الناس [(٢)] » ، وكان من أمر ابن الزبير مع الأمويين من الحروب ما كان ، كما قامت جماعة من الشيعة بالعراق واتفقوا على أن يأخذوا بثأر الحسين بن عليّ ، ويقتلوا مَن قتَله [(٣)] .

(١) التاريخ الإسلامي . محمود شاكر ٤/ ٦١ ـ ٦٢ . المكتب الإسلامي . بيروت . ط السادسة ١٤١١ هـ ١٩٩١م .

(٢) السابق ٤/ ١٤١ـ١٤٢ .

(٣) التاريخ الإسلامي ٤/ ١٧٠ـ١٧١ .

ثم كانت حركة ابن الأشعث التي خلع فيها يد الطاعة من الخليفة عبد الملك بن مروان ، إثر خلاف وقع بين ابن الأشعث والحجاج بن يوسف بعد عام ٨٠ هـ ، وغير هذا من الأحداث ، فضلا عن أن الخوارج بقوا شوكة في وجه الأمويين ، ومصدر إثارة ضدهم .

في مثل هذه الأجواء تروج الخَطابة ، ويعمد كل حزب أو فريق إلى التركيز عليها كسلاح إعلاميّ خطير في استمالة الآخرين لصفه ، والانتقاص من خصومه .

وقد كان من عوامل قوة الخَطابة أيضا : حركة الفتوحات الإسلامية وتوسعها .

كما ساعد على ازدهار الخَطابة في هذا العصر عوامل أخرى :

« منها : الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ، ومنها : كثرة الوفود على الخلفاء والولاة ، وقيام بعض الوعاظ بالخَطابة في المساجد ووعظ الناس ، منذ نصّبهم معاوية لهذا الغرض ، ومنها : إقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويدرسون ، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية في تلك الحقبة ، والعناية بحفظ ما خلفه السابقون » (١) .

ومما ساعد على ازدهارها كذلك أنه « كانت تُعقد مجالس للمباراة في الخَطابة، والسبق فيها ، وكثيرا ما كان يُدعَى الشخص إلى القول مفاجأة ، ليُختبَر مقدار بيانه ، وقوة جنانه ، وحضور بديهته ، ونهوض حجته ، ومن

(١) فن الخَطابة د/ أحمد الحوفي . ص ٢١٣ .

ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق من مجلس للخَطابة ، تبارى فيه خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى ، وواصل ابن عطاء ، وقد نال في ذلك المجلس قصبَ السبق واصلُ بن عطاء » (١) .

وكان للخَطابة في ذلك العصر خصائصها الفنية الكثيرة ، ومنها (٢) :

١ ــ الإعداد ، حيث تنم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها ، والتأني في صوغها والتدبر في ترتيب أجزائها ، وتنسيق أفكارها ، والتأنق في أسلوبها .

٢ ــ افتتاح الخطب كان صورة من افتتاحها في صدر الإسلام في الأعم الأكثر.

فأكثرها مبدوء بالحمد لله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسوله ، وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد لتنبئ عن غضب الخطيب وترهيب السامعين بشديد عقابه ، كبعض خطب الحجاج ، وبعضها مبدوء بالشتم والتوبيخ لأن المقام مقام تقريع وتأنيب ، مثل بعض خطب زياد ، وكان بعضها يبدأ بالموضوع مباشرة ، وغير هذا من الافتتاحيات .

٣ـ بالنسبة لأجزاء الخطبة ؛ بعض الخطب قائمة كلها على عَرْض الموضوع ، وبعضها مقسمة إلى مقدمة ، وعَرْض ، وخاتمة .

٤ـ وتمتاز الخَطابة في هذا العصر بمشابهتها الشعر في إبراز المعاني والأفكار ، وتوضيحها وتجسيمها في قوالب من التخيل والتضاد ، كالتشبيه والاستعارة ،

---

(١) الخَطابة للشيخ أبي زهرة . ص ٢٩٩ .

(٢) فن الخَطابة . د / أحمد الحوفي . ص ٢١٤ وما بعدها باختصار وتصرف .

والكناية ، وعرض الصور المتضادة ، والطباق ، ونحوها .

٥ـ وأما التعبير الخطابي فيتسم بقوة العبارة وجزالتها ، وقصر الجمل ، والعناية بالموقع والرنين .

٦ـ وكما كانت الخطب في صدر الإسلام ، فإن خطب هذا العصر يغلب عليها كلِّها الإيجاز المعتدل ، ويقل فيها التوسط القريب من الطول ، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة .

٧ـ وقد تأثر كثير من الخطباء في خطبهم بالقرآن الكريم ، فكثر اقتباسُ آيات من القرآن ، ووضْعُها المواضع الملائمة لها من الخطبة ، كما كان بعض الخطباء يعمدون إلى استمداد بعض مضامين خطبهم من القرآن الكريم .

٨ ـ وفي كثير من الخطب كان هناك استشهاد بالشعر ، أو اقتباس من عباراته ومعانيه .

وهكذا بدت لنا ملامح الخَطابة في العصر الأموي ، وقد ظلت رائجة مزدهرة لما ذكرنا من أسباب ودواع ، وخاصة ما كان من أمر الخصومات والثورات التي اعتمدت على الخَطابة ، وجعلها وسيلة دعاية وحرب ضد الخصوم .

« ولما هدأت كل هذه الخصومات ، واستقر الأمر لبنى مروان ؛ انبعث في الشعر نشاط قلل من نشاط الخَطابة وأهميتها ، ولكنها لم تنقطع ، وقد كان الخوارج حتى آخر الدولة مسعرًا للخَطابة كثيرًا » [١] .

---

(١) الخَطابة . د/ عبد الجليل شلبي ص ٢١١ .

ولقد اشتهر في هذا العصر خطباء كثيرون منهم معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، رضوان الله عليهما ، وواصل بن عطاء ، وزياد ، والحجاج ، ومنهم أبو واثلة إياس بن معاوية المزني ، وقد أفاض الجاحظ في الحديث عن بلاغة الأخير وفصاحته وجودة فراسته (1) ، ومنهم عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق ، وأبوه سعيد بن العاص بن أمية (2) ، ومنهم سُحْبان وائل (3) ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم كثير .

من خطب هذا العصر

أ ـ خطبة لعمر بن عبد العزيز

قال ابن عبد الحكم : وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال : أيها الناس : إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، وإنما أنا منفّذ لله ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ، ألا وإني أثقلكم حملا ، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، أقول قولي هذا ، واستغفر الله العظيم لي ولكم (4) .

---

(١) راجع البيان والتبيين ١/ ٩٨ ـ ١٠١ .

(٢) راجع أيضا السابق ١/ ٣١٤ ـ ٣١٦ .

(٣)السابق ١/ ٣٤٨ .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم . تحقيق أحمد عبيد ص ٣٥ ـ ٣٦ ، مكتبة وهبة القاهرة ، ط الثانية .

ب ـ خطبة للحجاج حين أراد الحج

يا أهل العراق : إني أردت الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمدًا ، وما كنتم له بأهل ، وأوصيْته فيكم بخلاف ما أَوْصى به رسول الله ﷺ في الأنصار ؛ فإنه أوصى أن يُقبل من محسنهم ويُتجاوز عن مسيئهم ، وأنا أوصيته أن لا يَقبل من محسنكم ولا يَتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفي ، تقولون : لا أحسن الله له الصحابة ؛ وإني أعجّل لكم الجواب : فلا أحسن الله عليكم الخلافة ، ثم نزل (1) .

جـ ـ خطبة لأبي حمزة الشاري « من الخوارج »

خطب أبو حمزة الشاري بمكة ، فصعد المنبر متوكئا على قوس عربية ، فخطب خطبة طويلة ، قال :

يا أهل مكة ؛ تعيرونني بأصحابي ، تزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابًا ؟ نعم شباب والله مُكْتَهِلون (2) في شبابهم ، عمِيّة عن الشر أعينهم ، بطيئة عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم في آناء الليل متثنية أصلابهم بمثاني القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم في أذنيه ، قد وصلوا كَلال (3) ليلهم بكَلال نهارهم ،

---

(1) العقد الفريد ٤/ ٢٠٥ـ٢٠٦ .

(2) اكْتهل : كاهل ، أي صار كَهْلًا ، والكَهْل من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ، جمع كُهول وكُهَّل ، وكُهْلان . المعجم الوسيط ٢/ ٨٣٥ . وقيل الكهل هو من جاوز أربعًا وثلاثين إلى إحدى وخمسين . القاموس المحيط ص ١٣٦٣ .

(3) الكَلال : التعب .

أَنْضَاء [(١)] عبادة ، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام ، مستقلون لذلك في جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوِّقت [(٢)] ، ورماحهم قد أُشْرِعَت [(٣)] وسيوفهم قد انْتُضِيَت [(٤)] ، وبرقت الكتيبة ، ورعدت بصواعق الموت ؛ استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، فمضى الشاب منهم قُدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه ، قد زُمِّلت [(٥)] محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّر جبينه بالثرى ، وأسرع إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء ، فكم من مقلة في منقار طائر ، طالما بكى صاحبها من خشية الله ، وكم من كف بانت عن معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده ، وكم من خدّ عتيق وجبين رقيق ، قد فلق بعُمُد الحديد ؛ رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحها في الجنان ؛ ثم قال : الناس منا ونحن منهم ، إلا عابد وثن ، أو كفرة أهل الكتاب ، أو إمامًا جائرًا ، أو شادًّا على عضده [(٦)] .

---

(١) أَنْضاء : جمع مفرده نِضْو بكسر أوله . والنِّضْو : المهزول من الحيوان ، ويقال : فلان نِضْو سفر: مجهَد من السفر ، وثوب نِضْو: خلق ، وسهم نِضْو : فاسد من كثرة ما رمِي به . راجع : المعجم الوسيط ٢/ ٩٦٧ .

(٢) فوّق السهم : عمل له فُوقا ، والفُوق من السهم موضع تثبيت الوتر منه . السابق ٢/ ٧٣٢ ـ ٧٣٣ بتصرف .

(٣) يقال : أشرع نحوه الرمح : سدّده . السابق ١/ ٤٩٨ .

(٤) انتضى السيف : أخرجه من غِمْده . السابق ٢/ ٩٦٧ .

(٥) زمّله : أخفاه ، وبثوبه وفيه : لفّهُ . السابق ١/ ٤١٤ .

(٦) العقد الفريد ٤/ ٢٢٧ـ ٢٢٨ .

٣ـ العصر العباسي

حكَمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون ، من سنة ١٣٢ هـ وهي السنة التي ولي فيها أبو العباس السفاح الخلافة ، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) (١) .

وقد درج كثير من المؤرخين على تقسيم العصر العباسي إلى مرحلتين ، هما : العصر العباسيُّ الأول ، ويبدأ من سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م) إلى سنة ٢٣٢ هـ ، وهو عصر قوة الدولة وازدهارها ، ثم العصر العباسي الثاني ، ويبدأ من سنة ٢٣٢هـ ، وهي التي ولي فيها الخلافةَ المتوكلُ العباسي ، الذي يعتبر عهده بداية انحلال الدولة ، إلى أن هجم هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وقتل الخليفة المعتصم آخر الخلفاء العباسيين (٢) .

هذا ، « وفي آخر العصر الأموي ضعفت الدواعي إلى الخَطابة ، لقلة الخروج على الخلفاء علنا ، والاتجاه إلى التدبير السري ، وتثبيت الأمور في جنح الظلام ، ولأن الخطب بين أيدي الخلفاء قد قلت ، إذ الوفود قد قلوا ، بعد أن قل الخارجون ، واستغنى الخلفاء عن استدناء القلوب ، ولهذا ضعفت الخَطابة نسبيًا إلى أن نهضت في صدر الدولة العباسية أمدًا قصيرًا » (٣) .

ولما قامت الدولة العباسية احتاج خلفاؤها إلى تثبيت سلطانهم ، وتوطيد

---

(١) تاريخ الإسلام . د/ حسن إبراهيم حسن ، ٢/ ٢١ ، دار الأندلس . بيروت .

(٢) راجع : السابق ، نفس الموضع ، وج ٣ منه ص ١ ، الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١١٧٦ـ ١١٧٧ .

(٣) الخَطابة . الشيخ أبو زهرة . ص ٣٠٥ باختصار .

أركان دولتهم ، فكان من سلاحهم لبلوغ هذا الهدف الخَطابة .

ثم كانت هناك وفود تفد على الخلفاء والحكام الجدد في صدر الدولة ، ونشوئها ، وفي مجالس الوفادة تُدَبَّج الخطب للتهنئة أو للمدح أو التحية وغير ذلك .

كما كانت الفتوح من أسباب إنعاش الخَطابة في ذلك الوقت ، لبثّ روح الجهاد والتضحية في نفوس المجاهدين ، كما كانت هناك خطب الوعظ ، وتفقيه الناس في أمور دينهم .

وكذلك ، « فإن الذين كانوا يباشرونها ، ويعتلون منابرها ، ويديرون رحاها بين الناس ، كانوا في الغالب سادة البيان ، وصيارفة القول ، لأنهم خلفاء وأمراء ووزراء وملوك علم وأدب ، وفقه ، وفصاحة وبلاغة ، وهم إلى جانب ذلك كلِّه عرب باللسان والبيان ، والميول والهدف ، ولا يمكن أن يتوفر للخَطابة من عناصر القوة والحياة ، أكثرُ مما يتوفر لها ـ حينئذ ـ في هذا الجوار العربي الأصيل ، عند هؤلاء السادة الأمجاد الذين كانوا يقومون بها » (١) .

قال الأستاذ الزيات ملخصًا حال الخَطابة في العصر العباسي (٢) :

كان للخَطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس ، وسلطان على القلوب ، لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك ، وتحميس الجند ، واستقبال الوفود ، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد ، كالمنصور والمهدي ،

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني . إبراهيم علي أبو الخشب ، ص ٥٦٠ . دار الفكر العربي . القاهرة .

(٢) تاريخ الأدب العربي . ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

والرشيد والمأمون وداود بن علي ، وخالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة .

فلما استوثق الأمر لبنى العباس ، وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقل النضال بالسنان واللسان ، ضعفت الخَطابة لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعي إليها ، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسل السخائم ، وقُصِرت على خطب الجمع والعيدين والزواج ، على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الراضي ، فلما غل بنو بويه أيديهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخَطابة والإمامة إلى الكُفاة من العلماء ، فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخَطابة ، كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي ، ولما استعجم المسلمون ومَلك العِيّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة ؛ عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباته المصري ، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها ، ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة ، فرقّاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية . أهـ .

ويذهب بعض الباحثين (١) إلى أن الخَطابة لم تضعف بعد المائة الأولى من عمر الدولة العباسية ، ويرى أنه كانت هناك دواعٍ تدعو إلى عدم ركود الخَطابة في ذلك الوقت ، أي بعد العصر العباسي الأول ، وأنه كان هناك ما يُذْكِيها ، ومن تلك الدواعي المناوشات التي كانت على حدود الدولة العباسية ، إذ كان الروم يطمعون دائما في بسط سلطانهم على رقعة المملكة الإسلامية ، كما كان

(١) راجع تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني . ص ٥٦٢ : ٥٦٥ .

الفرس ـ كذلك ـ متحفزين لاسترجاع ما اغتصب منهم ، وكان هذا كله يستدعي الجهاد ، وإثارة الروح الدينية ، وهذا يشير إلى أن الخَطابة لم تخمد جذوتها، إذ كان الجميع يؤمنون بالجهاد الذي كان لسان دعاته الخَطابة الواعية والفصاحة البالغة .

ويرى أيضا أن الترف الذي انغمست فيه الدولة ، وانحدر بها إلى الانحلال الخلقي الشنيع أدى إلى وجود نزعات التصوف والزهد ، ودعوات المتصوفة ، وقام أصحاب هذه الدعوات يحملون راية الوعظ والإرشاد ، ويخطبون في المنتديات ، يحذرون الناس من التهالك على الدنيا .

ويرى كذلك أن طمع العلويين في الخلافة ، وترقبهم لتحقيق هذا الأمر ، وخاصة بعد أن أسس الفاطميون دولتهم بالمغرب ومصر والشام ، كل هذا جعلهم يستخدمون الدعاة ، وينشرون الخطباء والدعاة للإعلان عن أنفسهم والدعاية لصالحهم ، وبهذا أعلوا ذكر الخَطابة ، وجعلوا لها قدرًا .

ثم إنه لما زالت دولة الفاطميين ، وظهر على مسرح السياسة بنو أيوب بالشام ومصر ، ولمع نجم صلاح الدين ، وحدثت الحروب بينه وبين الصليبيين على بيت المقدس وغيره من البلاد التي كانت تحت أيديهم ، كان « الجهاد في سبيل الله » يشغل بال المسلمين ، وهناك كان للخَطابة الدينية ، والدعوة إلى الحق الصوت المدوي ، وكان للأيوبيين أنفسهم ـ على الرغم من العرق الأعجمي فيهم ـ فصاحة ولَسَن استعانوا بها على الخَطابة في الجيش ، لإثارة الهمة ومضاعفة العزم على الاستشهاد في سبيل الله .

ويرى أن الضعف الذي اعترى البيان ، حينما سرى تيار العجمة إلى كل الجهات ، وانتقلت عدواه إلى الخاصة والعامة ، فسرى تيار الأتراك السلاجقة إلى اللسان والبيان فلم يترك شيئًا إلا وأعمه ولا ذوقًا إلا أفسده ؛ هذا الضعف كان في أواخر عهد الدولة العباسية .

لكن المحققين من الباحثين لا يرتابون في أن الخَطابة أخذت في الضعف بعد المائة الأولى من حكم العباسيين ـ وهو الأظهر ـ لقلة الدواعي ، وضعف أمر العرب وضياع نفوذهم ، وفي ضعفهم ضعف للخَطابة لأنهم أقدر الناس عليها ، وليس العربي كالمتعرب ، ولحلول الكتابة محل الخَطابة ، وقعود الخلفاء عن الخَطابة ، واستهانتهم بها ، فتبعهم الناس في هذا الأمر (١) .

وأما عن الخَطابة في الجنود لحثهم على القتال ، وإثارتهم للجهاد ؛ والقول بأن هذا مما نشّط الخَطابة في ذلك العصر ؛ فلم يكن الأمر كذلك لأن الجنود قد غلبت عليهم العجمة ، إذ كان العباسيون يستعينون في حماية دولتهم بالفرس والأتراك ، وهؤلاء لا يثيرهم القول العربي البليغ ، وإنما تثيرهم عصبياتهم الجنسية التي كان لها السلطان الأكبر في ذلك العصر ، إذ حلت محل العصبيات القبلية عند العرب ، فذهبت من أجل ذلك الخَطابة في الجند حثًا لهم على الجهاد ، وذهب من الخَطابة داعٍ من أعظم دواعيها (٢) .

هذا ولم يَخْلُ هذا العصرُ من رجال بلغوا القمة في الخَطابة ، وصاروا مضرب

---

(١) الخَطابة . الشيخ أبو زهرة . ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ باختصار وتصرف .

(٢) السابق (نفس الموضع) باختصار وتصرف .

الأمثال في الفصاحة والبلاغة وقوة التأثير ، وكان منهم أعجوبة الزمان في الوعظ والخَطابة والتأثير ؛ الإمام ابن الجوزي رحمه الله ، وقد ذكرنا طرفا من الحديث عنه في المبحث السابق .

هذا « وإذا كانت الخَطابة قد ركدت لهذه الأسباب ؛ فقد خلَفها فنٌّ من فنون القول صاحبها زمنا ، ثم انفرد بعدها بالسلطان ، وذلك الفن هو المناظرة ، ويتفق مع الخَطابة في الارتجال ، ومحاولة الغلَب بالبيان ، والسبق باللسان ، ويخالفها في الموضوع ، وقد سادت المناظرة ذلك العصر ، لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة ، وعظم أمر العلم فكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم ، وصارت مجالس العلم ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية ، وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام ، وإيضاح البيان ، والتأثير بالإقناع بعد الإفحام » [(١)] .

من خطب هذا العصر

أ ــ خطبة لأبي العباس السفاح عندما ولي الخلافة

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه دينًا ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه والقُوّام به والذابّين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، خصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، ووضعنا بالإسلام وأهله في الموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلي عليهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٣٣] ، وقال : ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي

---

(١) السابق ص ٣٤٢ .

ﵟٱلۡقُرۡبَىٰۗﵞ [الشورى:٢٣] ، وقال : ﵟوَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَﵞ [الشعراء:٢١٤] .

وقال : ﵟمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِﵞ [الحشر:٧] الآية . فأعلمهم عز وجل فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمةً لنا ، وتفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم ، وزعمت (السبائية) الضُّلاّل أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت (١) وجوههم .

أيها الناس : بنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم ، ونصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا ، ورفع بنا الخسيسة وأتم النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم ، وإخوانا على سرر متقابلين في أخراهم ، فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بمحمد ﷺ ، فلما قبض إليه قام بذلك الأمرِ بعدُ أصحابُه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصًا (٢) منها .

ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم وتداولوها ، فجاروا فيها واستأثروا بها ، وظلموها أهلها ، فأملى الله لهم حينا ، ﵟفَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡﵞ [الزخرف:٥٥] فانتزع منهم ما بأيديهم بأيدينا ، ورد الله علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا ، ليمُنّ على الذين استضعفوا في

(١) أي قبحت .

(٢) أي جياعًا . والمعنى لم يحوزوا شيئًا لأنفسهم .

الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح الهائج ، والثائر المبير (١) .

وكان به وعَك فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ، ونهض عمه داود فألقى خطبة على الناس (٢) .

ب ـ خطبة المأمون يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يومٌ أبان الله فضله وأوجب تشريفه ، وعظّم حرمته ، ووفّق له مِن خلقه صفوته ، وابتلي فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح العظيم نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومُقدَّم الأيام المعدودات من النفْر ، يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ (٣) عَمِيقٖ ﴾ [الحج:٢٧] ، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، ولْتصِح التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول :

---

(١) المبير : أي المهلك .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٤٢ ـ ٤٣ .

(٣) الفج : شقةٌ يكتنفها طريقان ويستعمل في الطريق الواسع وجمعها فجاج . مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٢٥ .

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧] .

ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي ﷺ ، والوصية بالتقوى .

ثم ذَكَر الموتَ ، ثم قال :

وما مِن بعده إلا الجنةُ أو النار ، عظُم قدرُ الدارين ، وارتفع جزاء العملين ، وطالت مدة الفريقين ؛ اللهَ اللهَ ، فو الله إنه الجِدُّ لا اللعب ، والحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار (١) .

ج ـ خطبة عزاء في وفاة المنصور

لما هلك أمير المؤمنين المنصور ، قدمت وفود الأمصار على أمير المؤمنين المهدي ، وقدم فيهم أبو العيناء المحدِّث ؛ فتقدم إلى التعزية فقال :

آجَرَ اللهُ أميرَ المؤمنين على أمير المؤمنين قبلَه ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلَفه له ، فلا مصيبة أعظم من مصيبة إمامٍ والد ، ولا عقبى أفضل من خلافة الله على أوليائه ، فاقبل من الله أفضل العطية ، واصبر له على أعظم الرزية (٢) .

٤ ـ الخَطابة في العصر الحديث

ودّعنا الخَطابة في العصر العباسي ، وتركناها في نهاية ذلك العصر وهي في ركود وضعف ، ثم سارت عجلة الزمان بالخَطابة ، فلم تصادف رقيا كالذي

(١) العقد الفريد ٤/ ١٩١ ـ ١٩٢ .

(٢) السابق ٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

صادفته من قبل في عصورها الزاهرة ، حتى وصلت إلى العصر الحديث ، في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) .

وقد « ظلت الخَطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع ، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة »(١) .

ثم لم تلبث كثيرا حتى قامت أسبابٌ وثارت دواعٍ ، حرّكتها من ركودها ، وبعثت الحياة في كيانها ، وأخذت تدخل في حقبة جديدة من الانتعاش ، وطور من الحياة أكثر نشاطًا ، ويمكن أن نرصد ــ في ضوء الاستقراء والاستنتاج ــ أبرز هذه الدواعي التي نشّطت الخَطابة في هذا العصر على النحو التالي :

١ ـ في هذا العصر ابتليت كثير من البلاد الإسلامية باجتياح أوربي لها ، وتسلُّطٍ أجنبي عليها ، فيما عرف بالاستعمار ، وقد هبّت تلك البلاد لمقاومة المستعمر الأجنبي بكل ما تستطيع ، وقامت حركات التحرر في أرجاء الوطن الإسلامي في العصر الحديث لطرد الغاصب المحتل ، حتى كُلِّلت مجهوداتها بالنجاح ، والظفر بالاستقلال ، وقد دفعت ثمنا باهظا في مكافحة سلطان الاستعمار الأغشم ، وفقدت مئات الألوف من خيرة أبنائها ، الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد والشرف ، وما خبر الجزائر التي قدّمت مليونا من أبنائها ـ نسأل الله أن يتقبلهم في الشهداء ـ عنا ببعيد .

ولا شك أن مثل هذا الجو قد أتاح للخَطابة أن تزدهر وتنشط ، وللخطباء أن يبرزوا ، ويخطبوا في جموع الناس ويحمِّسوهم لتحرير الأوطان والدفاع عن

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص ٤٨٠ .

الحرمات والمقدسات .

٢ـ ثم إنه قامت في هذا العصر دعوات إصلاحية ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحارب البدع ، والمادية الجارفة ، وتعمل للتمكين لدين الله في الأرض ، وتطبيق شرعه في كافة المجالات كما أمر الله تعالى ، مثل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ، ودعوة الشيخ حسن البنا في مصر ، وغيرهما من الدعوات ، وبطبيعة الحال ، استعان أصحاب تلك الدعوات بالخَطابة ، وعولوا عليها في نشر مبادئهم ، وترويج أفكارهم ، فكان لها خطباء يجوبون الأقطار ، ويخطبون في الجماهير لإقناعهم واستمالتهم إلى صفوفهم .

٣ـ وبالإضافة إلى هذا فهناك المؤسسات والجامعات الدينية التي تأخذ على عاتقها نشر الإسلام والدعوة إلى تعاليمه ، وإعداد الدعاة الذين يقومون بواجب الدعوة والوعظ والإرشاد ، والتعليم الديني ، فكان لهذه المؤسسات كالأزهر الشريف في مصر ، والزيتونة في تونس وغيرهما في بلاد أخرى دور في إمداد الخَطابة برجالها وخطبائها ، من العلماء والدعاة إلى الله .

٤ـ وقد ظهرت في بعض البلدان التي سرت فيها روح الاستقلال ، ونعمت بالحرية السياسية ، وتنفست بنسماتها ؛ أحزاب سياسية تتنافس فيما بينها على الزعامة والحكم في بلادها ، وكان لكل حزب خطباؤه ودعاته ، الذين يتبنون الدعوة إلى أفكاره ومبادئه، ويحاولون التأثير في الجماهير واستمالتهم نحوهم، وإقناعهم بمبادئهم .

٥ـ وكذلك فهناك المحافل ، وما يدور فيها من مدح أو تهنئة ، أو تأبين ،

أو إثارة قضايا اجتماعية ، وسياسية ، ونحوها ، وفي مثل هذه المحافل والأندية وما يشبهها كالمجالس النيابية يبزغ نجم الخَطابة ، ويعلو صوتها .

٦ ــ ثم إن النظام القضائي الحديث ، وطريقة التقاضي والتخاصم التي نعهدها حاليا ، أسهَم في إنعاش الخَطابة ، حيث جرت العادة أن يوكِّل كُلٌّ من المتخاصمين محاميا عنه ، كما يقوم وكيل النيابة بعرض الجريمة ، وإثباتها إذا كان من داع لهذا ، فهذه الأطراف : المحامون ورجال النيابة ؛ « كلٌّ يحاول جذب القضاء إلى فكرته ، وإقرار دعواه وإجابة طلبه »[(١)] ، فوكيل النائب العمومي يجتهد في تقديم الأدلة المثبتة للدعوى ، والقرائن المعززة لمطالبه ، والمحامي يسعى لتبرئة موكله مما ينسب إليه ، أو إثبات حق يدعيه ، ونحو ذلك ، وفي هذا الميدان تترافع النيابة والمحامون، وكلٌّ يعتمد التأثير الخطابيّ بالصوت والإلقاء، والإشارات ، وجمال الشارة وقوة التعبير ، وفصاحة الأسلوب ؛ أداة فعالة ، وعُدّة أساسية لكسب الموقف ، وبلوغ المراد ، وقد حمل هذا كثيرًا من المشتغلين بالمحاماة على التمرن على الخَطابة ، وتمكن منهم أناس من النبوغ فيها وامتلاك ناصيتها .

٧ـ وفي هذا العصر ــ وبفعل التقارب بين دول العالم وشعوبه ــ صارت تعقد بين الحين والآخر مؤتمرات إقليمية وعالمية ، بالإضافة إلى المؤتمرات المحلية ، تتعرض لمناقشة مختلف القضايا والمشكلات ، ولاشك أن هذه المؤتمرات تشهد تباينًا في وجهات النظر بين دولة وأخرى ، أو شعب وآخر

---

(١) الخَطابة . الشيخ أبو زهرة . ص ١٦٩ .

بسبب اختلاف البيئات والثقافات والأديان ، وكل ممثل لدولة يحرص على استمالة الجميع لما يراه ، وإقناعهم بما تعتنقه دولته ، ولا ريب أن هذا الوضع يتطلب الخطباء اللُّسْنَ (١) والفصحاء المقاويل (٢) ، والمتكلمين المؤثرين ، ومن هنا تهتم كل بلدة بأن يكون لديها أمثال هؤلاء الخطباء .

٨ ــ ثم إن الحاجة الدائمة إلى الوعظ ، والتعليم الديني وإقامة الشعائر الإسلامية للمسلمين ؛ يعد من دواعي الخَطابة ، وعوامل رواجها ليس فقط في هذا العصر ، بل في كل العصور وفي كل مكان به مسلمون ، وإن كان هذا المجال من مجالات الخَطابة ، وهذا الداعي من دواعيها ، يتقلب بين مد وجزر ، وانكماش وازدهار ، نظرًا لأسباب معينة ؛ لكنه ـ على كل حال ــ يبقى عاملًا مُهمًّا من عوامل وجود الخَطابة ، على الأقل لاستمراره وعدم انقطاعه ، فخطب الجمعة وغيرها كالعيدين لا تتوقف ، ونأمل أن تكون الخَطابة في هذا الميدان أحسن حالًا ، وأكثر حيوية وجاذبية مما هي عليه الآن .

ولقد تنوعت أغراض الخَطابة في هذا العصر ، وتباينت أنواعها ، فكانت هناك الخَطابة السياسية ، والاجتماعية ، والوعظية ، والقضائية ، بالإضافة إلى خطب المحافل المشتملة على مدح أو تهنئة أو رثاء وتعزية ، ونحو ذلك .

وهكذا شهدت الخَطابة في العصر الحديث ازدهارًا ونشاطًا ، بسبب

---

(١) لسِن فلان : فصُح وبلُغ فهو لَسِن وهي لَسِنة ، وهو ألْسَن وهي لَسْناء جمع لُسْن . وأَلْسَنَ فلانٌ فَصُح وتكلم كثيرًا . ولاسَنَه ناطَقَه وقاوله . ويقال : كانت بينهما ملاسنة . المعجم الوسيط ٢/ ٨٥٧ .

(٢) المِقْوال : التقوالة ، وهو الكثير القول اللسن . السابق ٢/ ٧٩٧ .

العوامل التي أشرنا إليها وغيرها ، وبرز في ساحتها خطباء مشاهير من أمثال عبد الله النديم ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وحسن البنا ، وسعد زغلول ، ومصطفى كامل ، وغيرهم كثير .

من الخَطابة في هذا العصر

أ ـ من خطبة لمصطفى كامل في الإسكندرية سنة ١٩٠٧

تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل ، فنجيبكم أنا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل ، لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر ، وهي التي شهدت مولد الأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنسانيّ كله ؟

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصريَّ ، ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة .

فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروبَ غروبٌ ، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ، ولا نقول أبدًا : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي البلاد وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر

بجانبها كل غاية .

نعم !.. إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا ، ولْيباركِ الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادي !.. بلادي !.. لك حبي وفؤادي .. لك حياتي ووجودي .. لك دمي ونفسي .. لك عقلي ولساني .. لك لُبّي وجَناني ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر .

يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك : إنني متهور في حبها ، وهل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعوه إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

اسألوا العالم كله يجبْكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا . وإن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرُ جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمّتها للأجنبي .

إني لو لم أولد مصريًّا ؛ لوددِت أن أكون مصريًا .

قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبَد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان ، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأممَ كافة في العلم والمدنية والأدب ؟.. أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذًا لشعوب البشرية

ومربيًا للعالم كله ؟ أي سؤدد [1] ترمي النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصري من الظلمات إلى النور ، وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدُّجْنَة [2] الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان ؟ [3] .

ب - خطبة للإمام الشهيد حسن البنا في مظاهرة لتأييد فلسطين عام ١٩٤٧م

في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧م أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارها بأغلبية ٢٥ صوتا ، ضد ١٣ مع امتناع ١٧عضوًا عن الاقتراع ، بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وقد وقع هذا القرار على العرب جميعا موقع الصاعقة ، وأعلنت الدول العربية رفضها له ، وأعد الإخوان المسلمون لمظاهرة اهتزت لها جنبات القاهرة في ١٥/ ١٢/ ١٩٤٧م ، اشترك فيها الأزهر والجامعة ، وتجمعت في ميدان الأوبرا ، حيث خطب فيهم السيد رياض الصلح ، والأمير فيصل بن عبد العزيز ، والشيخ محمود أبو العيون ، وجميل مردم بك وصالح حرب باشا ، والقمص ميتاس الأنطوني ، والسيد إسماعيل الأزهري ، والأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، وكانت

(١) السودد والسؤدد : السيادة والمجد والشرف . المعجم الوسيط ١/ ٤٧٩ .

(٢) الدُّجْنة والدُّجُنَّة : السواد والظلمة . السابق ١/ ٢٨١ .

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . د/ محمد محمد حسين ١/ ٨٣ ـ ٨٥ مؤسسة الرسالة. بيروت ط السابعة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤م ، وقد وصف الدكتور محمد محمد حسين خطبة مصطفى كامل المذكورة بأنها أكبر خُطبِه وأروعها على الإطلاق .

المظاهرة أشبه بمؤتمر على أعلى المستويات الشعبية والرسمية [١] .

وخطب الأستاذ البنا فقال [٢] :

« لبيك فلسطين .. دماؤنا فداء فلسطين وأرواحنا للعروبة .. يا زعماء العرب .. يا قادة الأمة العربية .. إنني أنادي الأمم المجاهدة ، الحجاز وسوريا والعراق وشرق الأردن ولبنان وأبناء وادي النيل وكل عربي يجري في عروقه دم العروبة الحر .

أيها الزعماء .. أنتم القادة .. وهؤلاء الجنود .. قد وقفوا دماءهم لدفاعكم المقدس .. إن هذا الشباب ليس هازلًا .. ولكنهم جادون .. عاهَدوا الله وعاهَدوا الوطن على أن يموتوا من أجله . إنه وإن كان ينقصنا اليومَ السلاحُ فسنستخلصه من أعدائنا ونقذف بهم في عرض البحر ..

لقد تألبت الدنيا تريد أن تسلبنا حقنا ، وقد عاهدْنا الله أن نموت كرامًا أو نعيش كرامًا ، إنني أعلن من فوق هذا المنبر أن الإخوان المسلمين قد تبرعوا بدماء عشرة آلاف متطوع للاستشهاد في سبيل فلسطين .. وهم على أتم استعداد لتلبية ندائكم » أهـ .

*****

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ . محمود عبد الحليم ١/ ٤١١/ ٤١٢ بتصرف . دار الدعوة الإسكندرية .

(٢) السابق ١/ ٤١٢ .

الفصل الثاني

الخَطيب وفن الإلقاءِ

المبحث الأول

مقومات الخطيب

المبحث الثاني

فن الإلقاءِ

المبحث الأول
مقومات الخطيب

أهمية دور الخطيب في المقام الخطابي

إن الخطبة لا يمكن أن تنبعث فيها عناصر القوة ، وتدِب في كيانها الحياة ، وتتحقق منها الإفادة التامة ، والتأثير المطلوب ؛ إذا لم يوجد لها خطيب فصيح متمكن ، تتوافر فيه مقومات الخطيب وصفاته اللازمة والمؤهلة له ، كي يكون خطيبًا جيدًا ، ومتحدثا لبقًا ، يأسر القلوب بفصاحته ، ويستميل النفوس بقوة تأثيره .

وقد نرى خطبة مناسبة ومادة علمية جيدة ، وموضوعًا مهمًا يحتاج إليه الجمهور ، ولكن للأسف يقوم بعَرْض هذا كلِّه خطيبٌ هزيل المستوى ، ضعيف الأسلوب ، رديء الإلقاء ، فيضيع الموضوع وتضيع معه الفائدة ، وتنصرف أذهان الناس عن متابعته ، والتفاعل معه ، وينعدم الإقناع والاستمالة اللذان هما من أهم أسس الخَطابة .

وفي بعض الأحيان قد نرى نقصًا في بعض المواصفات الخاصة بالخطبة ، من حيث اختيار الموضوع وترتيب العناصر ونحو هذا ؛ إلا أن الخطيب يكون ذا مستوى راقٍ ، وأداء جيد ، وعرض حسن ، وإلقاء مؤثر ، فينجبر ذلك النقص ، وتكون الفائدة ، ولا يحس الناس مللا ، ولا تشرد أذهانهم عن متابعة الخطيب .

وأنا أعرف بعض الخطباء كان يُهْرَع الناس إليه من أماكن دانية وقاصية ،

وتضيق الساحات والشوارع عن استيعاب الجموع الوافدة ، والجمهور القادم من مسافات شاسعة ، مع أن الخطبة ـ في كثير من الأحيان ـ لم تكن ذات موضوع محدد ، وإنما خليط من موضوعات متفرقة وبالتالي لم تكن ذات عناصر متناسقة ، ولم تكن تحتوي على مادة علميه ثرية ، بل متواضعة ، إلى غير ذلك من نقصان المواصفات اللازمة للخطبة الجيدة ، لكن قوة أسلوبه ، وفصاحته وبلاغته ، وحُسنْ إلقائه وجودة عرضه ، كانت قمينة بجذب الأعداد الغفيرة إلى استماعه ، فقد كان بحق موهوبًا ، يتمتع بالخصائص الفنية للخطيب البليغ ، الماهر الجيد ، الذي لا يترك ثغرة يشرد عبرها ذهن المستمع .

وكم يشكو جمهور المدعوين من أن فلانًا ممن يخطب الجمعة عالم ، ويحضِّر موضوعه ، ولا يستطيع أن يقدح في علمه أحد ، لكنه لا يجذبنا ولا ينجح بالدرجة المطلوبة في توصيل المعلومة إلى المستمع ، بعكس فلان الذي هو دونه في العلم ، لكن عرضه جيد وإلقاءه جذاب ، ونستفيد منه ، بالرغم من أن علمه متواضع .

وهكذا نجد أهمية الخطيب ، وموقعه الحساس ، ودوره الخطير في العملية الخطابية .. إنه هو الذي ينفخ روح الحياة في الخطبة ، ويمدها بأسباب القوة وعوامل النجاح .

ولهذا كان إعداد الخطيب حرِيًّا بالعناية والاهتمام ، وهو ما جعلنا نقدِّم الحديث عنه على الحديث عن الخطبة .

وجدير بالذكر أن حديثنا عن الخطيب هنا إنما هو عن الخطيب المسلم

الداعية ، الذي يتوسل بالخَطابة لنشر الدعوة الإسلامية ، والتمكين للإسلام في الأرض ، ولشريعته بأن تسود وتحكم ، ولسنا نتحدث عن الخطيب من المنظور الفني البحت ، كما هو حال بعض من يكتبون في الخَطابة ، بل عن الخطيب المسلم باعتباره صاحب دعوة يحيا بها ، ويعيش من أجلها ، ويعمل لخدمتها ، ويضحي في سبيلها ؛ عن هذا الخطيب نكتب ، ولإيجاده نسعى ، وربنا المستعان .

وهذا الخطيب الداعية له مقومات يلزم أن تتحقق فيه ، كي ينجح في مهمته الخطابية والدعوية ، وهو ما نفصله ـ بتوفيق الله ـ على النحو التالي .

مقومات الخطيب

إن فن الخَطابة ليس شيئًا يتمنى المرء إجادته والنبوغ فيه ، فيصبح خطيبًا بمجرد التمني ، ولكنْ هناك مقومات وأسباب لابد لمن يريد الخَطابة من التحقق بها ، كما أن للخطيب الجيد صفات وخصائص لابد من توافرها فيه ، وتلك المقومات تعد أسسًا مهمة في الإعداد الفني للخطيب ، وبناء شخصيته الخطابية .

أهمية الاستعداد الفطري والنفسي

والاستعداد الفطري ، والموهبة الطبيعية ، من الأمور الهامة للخطيب ، مثل الخلوّ من عيوب النطق الكبيرة ، وسلامة الصوت ، بدرجة تسمح له بتوجيه الخطاب نحو الآخرين وإسماعهم ، ولو من خلال مكبر للصوت ، وأن يتمتع بالفصاحة وطلاقة اللسان ، وأن يكون ذا جرأة وثبات .

وعلى سبيل المثال فهناك بعض الطباع الفطرية التي تحول بين صاحبها وبين

أن يكون خطيبًا جيدًا ، كهذا الذي يتهيّب الناس ، وينفِر ـ بطبعه ـ من مواجهتهم ، وكمن لا تسعفه حنجرته بالصوت المطلوب والمناسب ، فضلا عن الصوت الجهوري الذي يحسُن أن يكون متوفرًا في الخطيب ـ كما سنشير بعد ـ وكمن عنده عيوب قادحة في النطق لا يمكن التغلب عليها ، فمثل هؤلاء ليسوا مؤهلين للخَطابة ، وأكثرهم لا يجدي معه تدريب أو مِران ، وكلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له .

وهذا الاستعداد الفطري لابد أن يصاحبه استعداد نفسي ، أي أن تكون لدى الشخص الرغبة القوية في أن يصير خطيبًا ، وأن يكون عنده ميول شديد نحو فن الخَطابة ، فإن وجود الرغبة والميول لدى الشخص ، له أكبر الأثر في حرصه على تعلم الخَطابة ، وأخذ الأمر بقوة ، والاهتمام بالتمرن عليها وإجادتها ، والإصرار على إدراك الغاية مع ما قد يعترضه من عقبات ، وهكذا ؛ فبقدر ما تكون الرغبة قوية ؛ بقدر ما يقصر الوقت والجهد في الوصول إلى إجادة الخَطابة ، والعكس صحيح ، فبقدر ما تكون الرغبة شاحبة هزيلة ؛ بقدر ما يكون البطء والتعثر في الوصول إلى الإجادة .

التعلم والمران طريق إلى الإجادة

هذا ؛ ولا يغني الاستعداد الفطري والنفسي عن التعلم والمران ، بل إن المرء إذا كانت لديه موهبة طبيعية ، ولم يتعهدها بالتعلم والتدريب ، فلن تنمو وترقى ، بل قد تتعرض إلى الموت البطيء ، فمع أهمية الموهبة ، لا غنى عن تعلم قواعد الخَطابة ، وقوانينها ، والتدرب عليها ، فهذا أدعى إلى تربية الملكات ، وتنمية الاستعدادات .

قال أبو داود بن حريز : « رأس الخَطابة الطبع ، وعمودها الدُّرْبة ، وجناحها رواية الكلام ، وحَلْيُها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه »[(١)] .

وقال خالد بن صفوان : « إنما اللسان عضو إن مرنته مَرَن ، فهو كاليد تخشنها بالممارسة ، وكالبدن تقويه برفع الحجر، والرِّجْل إذا عُوِّدت المشي مشت »[(٢)] .

والتعلم يرشد الخطيب إلى المنهج الصحيح لمخاطبة الناس وإقناعهم والتأثير فيهم ، والتدريب يكسبه ثقة بنفسه ، وإِلْفا للخَطابة ، كما يساعده في التخلص من عيوبه ، وتفادي أخطائه .

وقد يكون لدى شخص ما استعداد فطري قوي للخَطابة لكنه يهمل التعلم والتدرب فيذبل هذا الاستعداد ولا يؤهله لإجادة الخَطابة ، بينما قد يكون لدى شخص آخر استعداد فطري ضعيف لما يعتريه من بعض العيوب الخِلقية ، لكنه يأخذ نفسه بالتدريب المتواصل ، والتعلم المستنير ، ويروض نفسه ويعودها التغلب على عيوبه ، ويلح في التكرار والتمرين ، فإذا به ينمو استعداده ، وتتربى ملكاته ، ليصبح فيما بعد خطيبًا لا يشق له غبار .

وتاريخ الخَطابة ينبئنا عن أناس كانت لديهم بعض العيوب الخِلقية الكلامية التي تحول بينهم وبين النبوغ في الخَطابة ، وتنقص من تقدير الناس لهم ، لكنهم أصروا على التخلص منها ومعالجتها ، وتوسلوا إلى بلوغ ذلك بكثرة الارتياض

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٤ ، العقد الفريد ٤/ ١٣٩ .

(٢) فن الخَطابة ، الشيخ علي محفوظ . ص ١٨ .

والممارسة والتدريب ، حتى آل أمرهم إلى أن صاروا من الخطباء المشهورين ، وأرباب الفصاحة والبيان المعدودين .

ومن النماذج البارزة في هذا الصدد ؛ واصل بن عطاء ، حيث روّض نفسه على إسقاط الراء من حديثة ، وتجنب إيراد هذا الحرف في كلامه تمامًا ، ليتخلص من عيب يقدح في فصاحته ، ويفتح ثغرة لنقده من قِبل خصومه ، حتى تهيأ له ما أراد .

وفي هذا يقول الجاحظ : ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذا كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآله وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة ، كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب ، وتثنَى به الأعناق ، وتزيد به المعاني ... إلى أن قال :

ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هُجْنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمّل ، ولولا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلًا ، ولطرافته معلمًا ، لما استجزنا

الإقرار به ، والتأكيد له ، ولست أعني خطبه المحفوظة ، ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عَنَيْتُ محاجة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان [(١)] .

ومن الخطباء المشاهير الذين وصلوا إلى الإجادة بالتدريب ، وكثرة التمرين ؛ «ديموستنيس» اليوناني .

فلقد « مالت نفسه إلى الخَطابة فأخذ يُعِد نفسه لها ، رغم ما كان به من عيب خلقي يحول دون نبوغه فيها ، فقد كان ألثغ ثقيل اللسان لا يكاد يبين حروفه ، وكان الناس يضحكون منه ويسخرون من خطابته ، ولكنه بذل جهدًا في تعويد لسانه على النطق والإبانة ، ومن محاولاته أنه كان يحبس نفسه الأيام والساعات الطويلة ، وهو يقرأ بصوت جهير ، ولهجة خطابية تصحبها الإشارات والانفعالات كأنه يخاطب جمهورًا ، وكان ديموستنيس يحلق نصف رأسه فلا يستطيع أن يبرز للناس في هذه الحالة .

ومن محاولاته أيضًا أنه كان يذهب إلى البحر ، ويضع في فمه حصاة ثم يقف ليخطب ، محاولًا إبراز حروفه ، وتجويد كلماتها رغم وجود الحصاة في فمه ، وبهذا قاوم ما به من عيب خلقي ، وكان يتخيل الأمواج جموعًا حاشدة تستمع إليه ، فيظل يخاطبها ويهيب بها أن تفعل كذا أو كذا ، وكل هذه المحاولات خلقت منه خطيبًا كبيرًا » [(٢)] .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٤ـ ١٥ .

(٢) الخَطابة د/ عبد الجليل شلبي ص ١٤٨ـ ١٤٩ ، الخَطابة ، أبو زهرة ص ٢٥ـ ٢٦ .

هذا ، ولا يظن طالب الخَطابة ومريدها أنه لابد له من النجاح في تدريبه وارتياضه منذ البداية ؛ نعم إن وُفِّق إلى هذا فهو خير ، ولكن عليه أن يهيء نفسه لتقبل عدم التوفيق ، وشأنه شأن أي متعلم يتوقع النجاح والفشل ، فإذا لم يحصل النجاح من البداية ؛ فلا ييأس ، وينصرف عن مواصلة تدريبه ، بل يصبر ويصابر ، ويواصل التدريب والإعداد ، وفي كل مرة عليه أن يستفيد من أخطائه السابقة ، وينمي ما اهتدى إليه من إيجابيات ، وبالصبر ــ إن شاء الله ــ يبلغ ما يريد .

قوة الذاكرة

والخطيب بحاجة إلى ذاكرة حافظة تمسك عليه ما أعده من أفكار ، وما رتبه من معلومات تختص بموضوعه الذي يخطب فيه ، وإذا لم تكن ذاكرة الخطيب واعية وحاضرة ؛ تعرّض لما لا تحمد عقباه من الحَصَر [1] ، والإِرْتاج [2] ، والنسيان ، والتلعثم ، وغير ذلك من مشكلات تواجهه حال إلقائه ، ولذلك فإن على الخطيب أن يهتم بتحسين ذاكرته وتقويتها .

من عوامل تحسين الذاكرة

أ ـ التركيز والتكرار

ومما يساعده في هذا أن يركز جيدًا حال القراءة، وذلك بان يحصر تفكيرفي أثناء تحضير الخطبة ، فإن هذا أدعى لتثبيت ما يحصِّله، وكذلك فإنه يفيده تكرار قراءة مادته غير مرة، حتى يشعر بأنها قد رسخت في ذهنه ، كما أن عليه أن

(١) يقال : حَصِر القارئ والخطيب حَصَرًا ؛ عيّ في منطقه ولم يقدر على الكلام . المعجم الوسيط ١/ ١٨٥ .

(٢) أُرْتِج عليه : استغلق عليه الكلام . السابق ١/ ٣٣٩ .

يحفظ ما لابد من حفظه مثل الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والقدسية ، وشواهد الشعر ، ونحو ذلك ، وبعد الفراغ من الحفظ يُسمِّعه لنفسه أكثر من مرة ، أو يُسمِّع على غيره حتى يتأكد من متانة الحفظ ، فكأنه بهذا يختبر قوة الذاكرة ، فإن وجد ضعفًا عمد إلى تقويته وتدعيمه بالاستذكار، وإن آنس من ذاكرته حضورًا وإمساكًا للمعلومات ؛ ازداد ثقة وطمأنينة .

فالتركيز والتكرار من أكبر عوامل تحسين الذاكرة ، ويضاف إليهما عامل آخر ـ سنتحدث عنه بعد قليل ـ وهو ترابط الأفكار ، فهذه الثلاثة ، تعد كما ذكر أحد الباحثين « قوانين التذكر الطبيعية » (١) .

ولكن كثيرًا من الخطباء لا يتركون لأنفسهم فرصة يتحقق من خلالها التركيز ، والتكرار ، فلا يُحضرون خطبهم قبل موعد إلقائها بوقت كافٍ ، وإنما يَشرع أحدهم في تحضيرها قبل الموعد بوقت قصير ، فترى الوقت يطارده ، ويسرع ولا ينتظره ، وكل همه إذ ذاك أن يجمع ما يتيسر من هنا وهناك ، غير مطمئن ولا متأنٍّ ، وبهذا لا يحدث تركيز ولا تكرار ، بل قد يكون الخطيب بحاجة إلى حفظ نص معين ، ولكن الوقت لا يمهله ، ولذلك ننصح الخطيب أن يعد موضوعه في سعة من الوقت وبحبوحة من الزمن ، حتى يوفيه حقه من التركز والاستيعاب .

ومما يعين الخطيبَ على التركيز أن يختار للقراءة أو التحضير الوقت الذي يكون فيه جسمه مستريحًا ، وذهنه نشيطا ، وعقله غير مشتت أو مشغول ،

---

(١) فن الخَطابة ، كيف تكسب الثقة وتؤثر في الناس . دايل كارنغي ص ٤٩ . دار ومكتبة الهلال . بيروت ط الأولى ١٩٨٥م .

فيتجنب مثلًا التحضير وهو يدافع النوم ، مرهقًا يحتاج إلى شيء من الراحة ، فمن يقرأ بينما يداعب النوم جفونه أغلب الظن أنه لن يصفو له شيء ذو بال مما قرأ ، إن لم ينسه بالكلية .

ب ـ الترابط

ومن الطرق الجيدة التي تعين على قوة التذكر وتثبيت المعلومات ما أشرنا إليه وهو « ترابط الأفكار » ، فتكون أفكاره مترابطة ببعضها بحيث إذا تذكر فكرة أو عنصرًا ، استدعى هذا التذكرُ الفكرةَ الأخرى ، فيرتب عناصر موضوعه ترتيبًا متسلسلًا ، بحيث يفضي كل عنصر إلى ما بعده ويكون نتيجة لسابقه ، ومقدمة لتاليه ولاحقه ، فمثل هذا الترتيب الدقيق الجيد يعين على تسلسل الأفكار وتداعيها ، وسهولة تذكرها .

ويمكن أن يربط الخطيب الفكرة أو العنصر بشيء في الذهن خارجٍ عن الموضوع لكنه يعين على تذكره ، ولنضرب مثلًا هنا بتذكر بعض الأرقام .

اتصل بي أحد الأصدقاء وأملى عليّ رقم هاتفه الجديد ، وأرقامُ الهواتف عادة يكون بها رقمان أو ثلاثة ثابتة في بدايتها فهذان الرقمان أو الثلاثة الثابتة أعرفها جيدا لكن تبقي الأرقام الثلاثة الباقية بحاجة إلى قوة تذكر ، وهذه الأرقام كانت (٥٧٠) فأملاها عليّ صديقي ، وقال : (٥٧٠) قبل ميلاد النبي ﷺ بسنة ، وكلنا يحفظ تمامًا أن ميلاد النبي ﷺ كان موافقا لعام (٥٧١) الميلادي ، فكان ربط هذا الرقم بتاريخ محفور في الذاكرة أدعى لتثبيته هو الآخر في الذاكرة ، بحيث يكون نسيانه بعيدَ الحصول .

وصديق آخر أعطاني رقم هاتفه ، كان الرقمان الأولان من الأرقام الثابتة في أول هواتف المدينة الكبيرة كلها ، وبعدها كانت هذه الأرقام : (١٤٥٠) فربطتها بتاريخ أحفظه جيدًا ولا أنساه ، وهو تاريخ فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح رحمه الله ، الذي حدث عام (١٤٥٣) من الميلاد ، وقلت هاتف الأخ «فلان» قبل فتح القسطنطينية بثلاث سنين ، حتى صار تذكّره بعد ذلك أمرًا ميسورًا .

ج ـ المناقشة

ومما يساعد الخطيب في تحسين ذاكرته ، وتثبيت المعلومات بها أن يتناقش مع بعض الناس فيما قرأه ، فإن النقاش من شأنه أن يعين على التذكر ، وينشط الذهن ، ويبعث على التركيز ، والحصول على انطباع عميق وراسخ عن الشيء الذي يرغب في تذكره .

هل يُفضّل حفظ الخطبة بالنص ؟

هذا ؛ وقد يلجأ بعض الخطباء ـ لاسيما المبتدئين ـ إلى حفظ الخطبة بالنَّص .

وهذه الطريقة وإن كانت تعينه على التذكر إلا أن لها مخاطر لا يستهان بها ، ومن ذلك :

ـ أن الخطيب إذا نسي بعض العبارات التي حفظها ، لم يسهل عليه التصرف في الإتيان بعبارات في معناها ، وربما نسي باقي الخطبة بسبب نسيان بعضها ، ويفاجأ في موقفه بأن ليس عنده ما يقوله ألبتة .

ـ كما أن من مساوئ هذه الطريقة أنها لا تتيح للخطيب القدرة على التكيف

مع ما قد يستجد من حال المستمعين ، وما قد يتطلبه من تغيير حديثه ، أو التعامل مع أي طارئ يطرأ له أثناء خطبته ، فهو يخشى إن استطرد أو خرج عن الموضوع أن يضل طريق العودة إليه ، والتقاط الخيط من جديد .

ـ كما أن من يحفظ بالنص يكون في الغالب منشغلًا ، أكثر من اللازم بالخوف من تفلت المحفوظ ونسيانه، وهذا يكون على حساب ثقته في نفسه، وثباته حال الإلقاء .

وعلى كل حال فإن الخطيب إذا لم يحسن غير تلك الطريقة ؛ فعليه أن يعد نفسه للتخلص منها مستقبلًا ، وأن يحاول التخفف منها تدريجيًا ، بأن يحفظ مرة ، ثم في المرة التالية يعمد إلى رؤوس العناصر وبعض الأفكار فيكتبها في وريقة يجعلها في يده ينظر فيها حين إرادة الانتقال من عنصر إلى آخر ، أو فكرة إلى غيرها، وعليه أن يكثر من التمرن على إلقاء الخطبة دون حفظ في مكان منعزل، أو بين بعض أصدقائه ، قبل أن يواجه الجمهور، فلاشك أن هذا سوف يكسبه مرونة وقدرة على التذكر والاستحضار، دون اللجوء إلى طريقة الحفظ السابقة بالإضافة إلى أن يأخذ في الاعتبار عوامل تحسين الذاكرة التي أشرنا إليها .

حضور البديهة

ونقصد بالبديهة : سداد الرأي عند المفاجأة ، كما جاء في كتب اللغة [1] .

ذلك أن الخطيب عرضة لأي أمر قد يطرأ في أثناء الخطبة ، أو مقاطعةٍ تصدر من أحد المستمعين بقصد إحراجه ، أو اعتراضٍ يواجهه .. وما شابه

(١) المعجم الوسيط ١/ ٤٦ .

ذلك ، فعليه في هذه الحال أن يحسن الجواب عما يعترضه ، أو يحسن التخلص إن لم يستطيع الإجابة .

ذكر الأستاذ عبد البديع صقر رحمه الله « أن زعيمًا اشتُهر بالقدرة الخطابية ، وذات مرة فاجأه أحد السامعين أثناء المحاضرة بقوله : «هذا غير صحيح » ، وفطن الخطيب إلى ما يريده المعترض ، فاكتفى بقوله : « هذا رأيك » ، واستمر دون أن ينقطع .

«وكان طالبٌ يؤدي اختبارًا في دروس التربية العملية، تحت إشراف أحد الأساتذة ، فوقف أحد التلاميذ ووجه إليه سؤالا كان لا يعرف الإجابة عليه، وكان الطالب سريع البديهة، فقال للتلميذ: "ذكرني في آخر الدرس"، وبمجرد أن دق الناقوس خرج التلاميذ يهرعون إلى فناء المدرسة، ونسي التلميذ سؤاله، فكتب المشرف الملاحظة الآتية: الطالب ذكي حسن التخلص» [(١)] .

وخطب أبو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه ، فقال أحد السامعين : « أذكّرك من ذَكّرت به » فأجاب أبو جعفر بلا تفكير ولا روية : « سمْعًا سَمْعًا لمن حفظ عن الله وذكّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جبارًا عنيدًا ، وأن تأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذا وما أنا من المهتدين ، وأنت أيها القائل فوالله ما أردت بها وجه الله ولكن ليقال : قام فعوقب فصبر ، وأهوِنْ بها لو كانت ،

---

(١) كيف ندعو الناس . عبد البديع صقر . ص ٣٥ . مكتبة وهبة . القاهرة . ط العاشرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .

وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا انبثّت ثم عاد إلى الخطبة [(١)] .

وكان لو يد جورج الإنجليزي المعروف ، يخطب ، ويَعد بالحكم الذاتي ، فيقول : سنعطي الحكم الذاتي لكندا ، وسنعطيه لأيرلندة ، وسنعطيه ... ولم يتم الكلمة حتى قال أحد المستمعين: « لجهنم » فرد عليه لويد جورج بقوله : هو ذاك، يعجبني أن يتذكر كل إنسان وطنه [(٢)] .

وكان الإمام ابن الجوزي رحمه الله يخطب في مجلس الوعظ ، وقام إليه رجل بغيض ، فقال: يا سيدي نريد كلمة ننقلها عنك، أيهما أفضل أبو بكر أو علي ؟ فقال : اجلس ، ثم قام فأعاد مقالته ، فأقعده ثم قام ، فقال : اقعد فأنت أفضل من كل أحد [(٣)] .

وسأله آخَر أيام ظهور الشيعة ، فقال : أفضلهما من كانت بنتُه تحته ، وهذه عبارة محتمِلة تُرضي الفريقين [(٤)] .

ثم إن الخطيب قد يتعرض لنسيان ما كان قد أعده للموقف من مادة علمية ، أو يعتريه الرّتَج والحصَر [(٥)] ، ونحو هذا من المآزق الحرجة ؛ وهنا لابد أن

---

(١) فن الخَطابة د/ أحمد الحوفي ص ٢٢ نقلًا عن تاريخ الطبرى ٩/ ٣١١ .

(٢) السابق ص ٢٤ نقلًا عن الخَطابة ، نقولا فياض .

(٣) أفضل : من الفُضول .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧١ .

(٥) رَتِجَ على وزن فرِح ، رتَجًا : استغلق عليه الكلام وأُرتِج عَلى القارئ ـ بالمبني للمجهول ـ وارُتتِج واستُرتِج إذا استغلق عليه الكلام ولم يقدر على القراءة، كأنه أُطبِق عليه كما يُرْتَج الباب، ولا تقل: ارتُجّ بالتشديد . بتصرف عن المعجم الوسيط ١/ ٣٣٩ ، مختار الصحاح للرازي ص ٩٨، مكتبة لبنان . بيروت ، القاموس المحيط ص ٤٣ . والحَصَر هو احتباس الكلام وامتناعه .

يكون حسن التصرف ، سريع التخلص في موقفه ، كي لا يكون في وضع محرج وموقف لا يحسد عليه ، وليستعن بالله تعالى بضراعة وإخلاص أن يوفقه إلى مخرج حسن .

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجني عليه اجتهاده

ومن الخطباء من تعرضوا لمواقف صعبة ، فأسعفتهم بديهة حاضرة ، ونجوا من الإحراج ، ومنهم من ارتبكوا وأخفقوا في إيجاد عذر أو مخرج حسن مما حلّ بهم ، والإكثار من قراءة تلك النماذج ، يزود الخطيب بخبرة نافعة في هذا الأمر ، ويمرّنه على كيفية التصرف المناسب عند اللزوم ، وخاصة إذا تشابهت المواقف ، ونورد هنا طرفا من أخبار هؤلاء وأولئك تعميما للنفع :

أ ــ من أرتج عليه فحسن تخلصه ، بحضور بديهته :

ذكر صاحب العقد الفريد أن أول خطبة خطبها عثمان بن عفان رضي الله عنه أُرْتج عليه فيها ، فقال : أيها الناس إن أول كلِّ مركبٍ صعب ؛ وإن أَعِش تأتكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا إن شاء الله .

وقدم يزيد بن أبي سفيان الشام واليا عليها لأبي بكر ، وخطب الناس فأُرْتِج عليه ؛ فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرْتِج عليه ، فعاد إلى الحمد ، ثم أُرْتِج عليه ، فقال : يا أهل الشام عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرا ، وبعد عِيٍّ بيانا ، وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل، ثم نزل، فبلغ ذلك عمرَو بنَ العاص فاستحسنه.

وصعد ثابت بن قطنة منبر سجستان ، فقال : الحمد لله ، ثم أُرْتِج عليه ،

فنزل وهو يقول :

فإن لا أكن فيهم خطيبا فإنني بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس .

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي فحَصِر ، فقال : أيها الناس : إني كنت أعددت مقالا أقوم به فيكم ، فحُجِبت عنه فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، كما قال في كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل ، أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله ، وأستغفر الله لي ولكم .

وصعد خالد بن عبد الله القسريّ المنبر فأُرتِجَ عليه ، فمكث مَلِيًّا (١) لا يتكلم ، ثم تهيأ له فتكلم ، فقال : أما بعد ، فإن هذا الكلام يجيء أحيانا ويعزُب (٢) أحيانًا ، فيسِحّ (٣) عند مجيئة سيبُه (٤) ، ويَعِزّ عند عُزوبه طلبُه ، ولربما كُوبِر فأبى ، وعُولِج فنأى ، فالتأنّي لمجيّه ، خير من التعاطي لأبيّه ، وترْكُه عند تنكره ، أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يُرتَجْ على البليغ لسانه ، ويَختلِج (٥)

---

(١) مَلِيّا : زمانا طويلا . مختار الصحاح ص ٢٦٤ .

(٢) عزَب : بعُد وغاب ، وبابه دخَل وجلَس . السابق ص ١٨٠ .

(٣) سحَّ الماءَ صبّه ، وسَحّ الماءُ بنفسه سال من فوق . وكذا المطر والدمع ، وبابهما ردّ . السابق . ص ١٢٢ .

(٤) ساب سَيْبا وسَيَبانا : ذهب حيث شاء ، وساب فلانٌ في كلامه أفاض فيه من غير رويّة . المعجم الوسيط ١/ ٤٨٤ .

(٥) اختلج : اضطرب . راجع السابق ١/ ٢٥٧ .

من الجريِّ جَنانُه ، وسأعود فأقول إن شاء الله [١] .

ب ـ من أرتج عليه فأخفق في حسن التخلص

ذكر الجاحظ أنه قد خطب مصعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحَصِر ، فقال : لَقِّنوا موتاكم قولَ لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية : عجّل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟ [٢] .

وقيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد حصر ، وقال : الحمد لله الذي يرزق هؤلاء ، وبقي ساكتا ، فأنزلوه .

وصعد آخر فلما استوى قائما، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صَلَعة رجل ، فقال : « اللهم العن هذه الصّلَعة » !

وقيل لوازعٍ اليشكريِّ : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال : لولا أن امرأتي حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جَمَّعت [٣] ، وأنا أُشهِدكم أنها مني طالق ثلاثًا [٤] .

ولذلك قال الشاعر :

وما ضَرَّني أن لا أقوم بخطبة   وما رغبتي في ذا الذي قال وازع [٥]

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٢٥٠ .

(٣) جَمّع القوم تجميعًا : شهدوا الجمعة وقضوا الصلاة فيها . مختار الصحاح ص ٤٧ . ويُقال أيضا : عيّد الناس : شهدوا العيد ، ووسّموا : حضروا المُوسِم ، وعرّفوا : حضروا عرفة .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢٥١ .

(٥) السابق ٢/ ٢٥٢ .

إن حضور البديهة ، أو سداد الرأي عند المفاجأة له أثره الطيب على الخطيب والخطبة، وهو مرتبط ارتباطا وثيقًا بأمر آخر من مقومات الخطيب وهو الثبات، والذي نشير إليه في السطور التالية .

رباطة الجأش (١)

والمقصود برباطة الجأْش : ثبات النفس والقلب لدى الخطيب عند مواجهة المستمعين ، وثقته في نفسه حال إلقاء خطبته ، فلا يتهيب الناس ، أو يتخوف من مواجهتهم ، ولا يضطرب ولا يهتز أمامهم .

إن الخطيب الداعية ، عليه أن يستشعر أن مقامه في الناس ، ومكانه بين الجمهور ، هو مقام التوجيه والنصح ، والهداية والإرشاد ، وهذا مما يبعث على العزة والفخر ، وليس الخجل والتهيب ، كما أنه يجب أن يستشعر أنه قويٌّ يستمد قوته من قوة الحق الذي يدعو إليه ، وأن يعلم أن وظيفته في الدعوة إلى الخير ، والدلالة على الحق ؛ إنما هي امتداد لوظيفة خيار البشرية ، وصفوة بني آدم ، وهم الأنبياء والمرسلون ، وهل كان شغلهم ــ عليهم صلوات الله وسلامه ـ إلا دلالة الخلق على الحق ، ثم إنه في كل حال يتوكل على ربه ، ويستعين به ويستهديه ، ويُعِدّ للموقف عُدته ، ويأخذ بالأسباب .

لهذا وغيره ، ينبغي على الخطيب أن يكون ثابتا واثقا في نفسه ، وعليه أن يدفع عن ذهنه أيَّ خاطر من شأنه أن يفسد عليه ثباته ، كأن يتوهم أنه قد ينسى ما حضّره ، أو أنه لن يجيد أمام من يواجههم لسبب أو لآخر .. إلى غير

(١) الجأْش : النفس والقلب . المعجم الوسيط ١/ ١٠٨ .

ذلك ، فإن خطر له مثل هذا فلا يستمع إليه ، ولا يقع فريسة لمثل هذه الأوهام ، بل يطمئن ، ويثبت ، وقد أُثِر عن ابن سينا أنه قال : « الوهم نصف الداء ، والاطمئنان نصف الدواء ، والصبر أول خطوة في الشفاء » .

ثم إن الخطيب إذا افتقد رَباطة الجأش اعتراه البُهْر (١) والارتعاش والرّعدة والعَرَق ، والحصَر ، وافتقد معها بعض مقوماته الضرورية مثل سرعة البديهة ، وقوة الملاحظة ، وحضور الذاكرة ، ولذلك نقول له : الثبات .. الثبات .. الثبات .

الحلم وسعة الصدر في أثناء الموقف الخطابي

ثم إن الحلم وسَعة الصدر من أسباب الثبات في أثناء الموقف الخطابيّ .

والخطيب بحاجة ماسة إلى أن تكون أعصابه هادئة ، يتحمل جهل من يجهل عليه ، ويفوّت الفرصة على من يريد استفزازه ، ويمتص غضب من يثور في وجهه .. وهكذا .

والموقف الخطابيّ ، والدعَوِيّ بشكل عام قد يكون فيه ما يثير أو يستفز ، بسبب تصرفات بعض الحاضرين الذين قد يتعمد أحدهم الاستفزاز ، فعلى الخطيب أن يتحلى بالهدوء والحلم .

وقد يعمد أحد الناس إلى إثارة آراء مخالفة لما طرحه الخطيب ، ويحاول أن يهدم كل ما دعا إليه ، فعليه أن يتسع صدره لسماع الرأي المخالف ، ويستجمع قواه الذهنية والنفسية للرد على المعارضين ، وتفنيد شبهاتهم ، بكل ثبات وكأنه لم يواجَه بأية معارضة .

---

(١) البُهْرُ بالضم تتابع النفس من الإعياء ، السابق ١/ ٧٦ ، مختار الصحاح ص ٢٧ .

يقول الدكتور عبد الجليل شلبي رحمه الله : وربما قاطعه بعض السامعين بما هو ضد ما يقول ، وفي المساجد قد يصفق بعض الحاضرين ، وفي هذه الحالات لا يستطيع الخطيب أن يتخلص بمجرد الانصراف بوجهه إلى الآخرين ويتجاهل من يقاطعه ، ولكن عليه أن يكون ثابتًا هادئًا مبديًا للناس بمظهره وثباته أن هذا ليس بشيء يُهتم به ، ثم يستمر في بساطة وهدوء ، فهذا موقف يعتمد على الشجاعة .

ويفيد الخطيبَ في هذا إشارةٌ عابرةٌ باليد أو الرأس لإظهار عدم اكتراثه ، وبيان أن ما عورض به ليس بشيء ذي بال ، ويجدي في هذا مجردُ ابتسامة ، أو مدٌّ شفتيه مع استمراره في حديثه ، ويفشل الخطيب كلَّ الفشل إذا انفعل أو غضب أو بدت عليه سمات الضعف ، فهو بهذا يخسر الموقف الخطابيَّ كله .

ولقد رأيت بنفسي خطيبًا عارضه أحد سامعيه ، وشرح فساد رأيه فصفق الحاضرون جميعًا لهذا المعارض ، فلما انتهى تصفيقهم وضحكُهم ومظهرُ سخريتهم ، بدأ الخطيب في هدوء تام يصيح بالحاضرين : أيها السادة ... إلى هنا صفقتم وضحكتم لأن هذا الرجل خدعكم بكلام معسول ، ولكن انظروا هاهنا ما يستحق أن تتأملوا .. ثم بدأ يشرح رأيه من جديد في ثبات وهدوء ، كأنه لم يعترضه أحد أو يسخرْ منه أحد [1] .

قوة الملاحظة

ومن الأهمية بمكان أن يتوفر للخطيب قوةُ ملاحظةٍ وإدراكٍ لحال جمهوره ومستمعيه ، فهو ينظر فيهم ، ويتفرس في وجوههم ، ويلاحظهم ليقف على

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب . ص ٣٧ .

حالهم من حيث الإقبال عليه ، أو الإعراض عنه ، ومن ناحية تسرب الملل والسآمة إلى نفوسهم أو عدم ذلك ، فإن وَجَد صدودًا أو إعراضا حاول أن يجدد نشاط المستمعين بطُرفة ، أو أن يأتي بقصة مثيرة ومشوقة ، ثم يعود إلى متابعة حديثه في الموضوع الذي يخطب فيه ، وإن لاحظ أنه لا يجدي معهم شيء في استعادة نشاطهم الذهني ، أو إعادتهم إلى متابعته والإقبال عليه ، فعليه أن يحاول إنهاء الموضوع ، ولا داعي للاستمرار ، أو أن يختصره عما أراد له ، وخاصة إذا كان قد أرهقهم بالإطالة .

وعلى الخطيب أن يشمل بملاحظته كل الظروف المحيطة بالجمهور ، مثل أعمارهم وصحتهم ، وظروف الجو من حيث الحرارة أو البرودة ، وعلى ضوء ملاحظته يكيف حديثه .

وإهمال الخطيب هذا الأمر قد يودي بالفائدة المرجوة ، ويضيع الهدف المبتغى ، مثل ذلك الخطيب الذي يسترسل في خطبته دون أن يلاحظ أن نصف جمهوره تلهبهم حرارة الشمس ولظاها ، أو أن أغلب من يستمعون إليه في خطبة جمعة مثلا ؛ مسافرون يرتبطون بمواعيد مواصلات وهم حريصون على اللحاق بها .

وليكن الخطيب في هذا الأمر كالمعلِّم الذي يتفرس من يعلمهم ، ويراعي في تعليمهم أحوالهم التي لو أهملها لتعب، وتعبوا معه ، وربما ضاع مجهوده سدى، وكان سيره معهم على غير هدى .

بل إن على الخطيب أن يتجاوز ملاحظة الأمور الظاهرة ، والأحوال البادية ، إلى محاولة استكناه ما في نفوسهم ، من خلال استقراء ملامح وجوههم ، ليعرف رضاهم ، أو عدم رضاهم ، وتفاعلهم أو عدم تفاعلهم معه .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسّم** »[(١)] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا أنا لم أعلم ما لم أر ؛ فلا علمتُ ما رأيتُ ، وقال عبد الله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينيه ، وقال ابن الرومي :

أَلمعيٌّ [(٢)] يرى بأول رأي ... آخِر الأمر من وراء المغيب
لَوْذَعيٌّ [(٣)] له فؤاد ذكيّ ... ما له في ذكائه من ضريب [(٤)]
لا يُروِّي [(٥)] ولا يقلِّب طَرْفا ... وأكُفّ الرجال في تقليب [(٦)]

فصاحة اللسان :

ونقصد بها أن يكون الخطيب طلق اللسان ، سليم النطق ، جيد التعبير ، فيُخرِج الحروف من مخارجها ، ويتجنب اللحن في اللغة ، فلا يخطئ في قواعد

---

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن ، كما في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين بن علي بن أبي بكر الهيثمي ١٠/ ٢٦٨ . دار الكتاب العربي . بيروت .

(٢) الألْمَعِي : الذكي المتوقد . مختار الصحاح ص ٢٥٢ .

(٣) اللّوْذَعِيّ : الظريف الحديد الفؤاد . السابق ص ٢٤٩ .

(٤) الضريب : الشبيه .

(٥) أي لا يطيل التفكير والنظر . راجع : السابق ص ١١١ .

(٦) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ص ١٠٩ ــ ١١٠ تحقيق محمد فتحي أبو بكر . الدار المصرية اللبنانية . القاهرة . ط الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م . ومعنى وأكُفّ الرجال في تقليب : يقلِّبون أكفَّهم كناية عن التردد والاضطراب . السابق : من حواشي المحقق .

النحو ، ولا يتعثر في كلامه ، ولا يتردد أو يتلعثم أو يتلجلج ، وأن تكون ألفاظه بيِّنة غيرَ متداخلة.

ولما للفصاحة من أهمية كبرى للخطيب ؛ فقد طلب سيدنا موسى عليه السلام من ربه تبارك وتعالى أن يرزقه فصاحة اللسان ، وبيان المنطق ، بإزالة الأسباب التي تحول دون ذلك ، حين كلفه الله تعالى بتبليغ الرسالة ، ومخاطبة فرعون وقومه ، إذ قيل كان في لسانه رُتّة [(١)] .

ويشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٧، ٢٨] .

والظاهر أن الله تعالى قد استجاب له ، بدليل قوله سبحانه : ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦] .

والفصاحة هامة للخطيب ، حتى يؤدي مهمته ويبلغ رسالته على الوجه الأكمل، وكيْ لا يكون عرضة لنفور الجمهور منه، وانصرافهم عن متابعة خطابه، وإن كانت لديه بعض العيوب التي تؤثر على فصاحته وبيانه ؛ فليتعهد نفسه بعلاجها والتخلص منها ، أو التغلب عليها ، والتقليل من حجمها ، بحيث يصير نطقه سليما أو أدنى إلى السلامة ، فيكون أدعى للقبول والارتياح .

من عيوب النطق

وقد عدد الجاحظ صورا لهذه العيوب [(٢)] ، فمنها اللُّثغة ، وذكَر أنها تدخل في أربعة أحرف ، هي القاف والسين واللام والراء .

---

(١) الرُّتة : العُجْمة في اللسان ، وهي اللُّثْغة والتردد في النطق . المعجم الوسيط ١/ ٣٣٩ .

(٢) يراجع : البيان والتبيين ١/ ٣٤ وما بعدها .

فاللُّثغة التي تعرض للسين تكون ثاء : كقولهم لأبي يكسوم : أبي يكثوم ، وبثم الله إذا أرادوا بسم الله .

والثانية : اللثُّغة التي تعرض للقاف ، فإنّ صاحِبها يجعل القاف طاءً ، فإذا أراد أن يقول : قلت له ؛ قال : طلتُ له .

وأما اللُّثغة التي تقع في اللام ؛ فإن من أهلها من يجعل اللام ياءً ، فيقول بَدل قوله : جمل : جمي ، وآخرون يجعلون اللام كافا ، كالذي عرض لعمر أخي هلال ، فإنه كان إذا أراد أن يقول : ما العلة في هذا ، قال : مكعكة في هذا .

وأما اللُّثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف : فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ؛ فيجعل الراء ياء ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ؛ قال : عمغ ، فيجعل الراء غينا ، ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو : قال عمذ ، فيجعل الراء ذالا ، ومنهم من يجعل الراء ظاء معجمة ، فإذا أراد أن يقول :

واستبدت مرّة واحدة   إنما العاجزمن لايستبد

يقول :

واستبدت مظة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

وأما اللُّثغة الخامسة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء ولسليمان بن يزيد العدوي الشاعر ؛ فليس إلى تصويرها سبيل ، وكذلك اللُّثغة التي تعرض في السين فإن تلك أيضًا ليست لها صورة في الخط ترى بالعين ، وإنما يصورها اللسان .

ثم قال الجاحظ : وأما اللُّثغة في الراء : فتكون بالياء والظاء والذال والغين ،

وهي أقلها قبحا ، وأوجدها في ذوي الشرف والمروءة وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم .

ومما يعتري اللسان من ضروب الآفات كذلك ما قاله الأصمعي : إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام ، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء .

قال الخولاني :

إن السياط تركن لإستك منطقا كمقالة التمتام ليس بمُعْرِب

فجعل الخولاني التمتام غير مُعْرِب عن معناه ولا مُفصِح بحاجته .

وقال أبو عبيدة : إذا أَدخل الرجلُ بعض كلامه في بعض فهو أَلَفّ ، وقيل بلسانه لَفَف .

ويقال في لسانه حُبْسة ، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حدّ الفَأْفاء والتمتام ، ويقال في لسانه عُقْلة : إذا تعقل عليه الكلام ، ويقال : في لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب ، وجذبت لسانَه العادةُ الأولى إلى المخرج الأول ، فإذا قالوا في لسانه حُكلة ؛ فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق ، وعجز أداة اللفظ حتى لا تُعرف معانيه إلا بالاستدلال . أ هـ .

ومن تلك العيوب كذلك اللجلجة ، وهي التردد في الكلام وعدم الإبانة لثقل في اللسان (١) .

---

(١) جاء في المعجم الوسيط (٢/ ٨٤٩) : لجلج فلان : تردد في كلامه ولم يُبِن فهو لَجلاج ، واللَّجلاج مَن كان ثقيلَ اللسان يتردد في كلامه . واللَّجْلَج : المختلِط الذي ليس بمستقيم . يقال : الحق أبلج والباطل لجلج .

وقال اللهبيّ في اللجلاج :

ليس خطيب القوم باللجلاج ولا الذي يُزْحَل كالهلباج [1]

هل يمكن لطالب الخَطابة التغلب على هذه العيوب ؟

نعم ، يمكن للخطيب أن يروض نفسه ويعودها على التغلب على مثل تلك العيوب أو التخلص منها ، وهو قد يجد مشقة في هذا ، وتكلّفا في بادئ الأمر ، ولكن مع النية الصادقة ، والعزيمة القوية ، والهمة العالية ، والصبر الجميل ؛ سوف يصل بتوفيق الله إلى نتيجة مرضية .

وهناك أناس كثيرون فعلوا هذا ، وحالفهم التوفيق ، فأدركوا ما قصدوا إليه وطلبوه ، وقد ذكرنا من قبل ما كان من أمر واصل بن عطاء، والخطيب اليوناني «ديموستنيس» ، وكيف أنهما قد نجحا في التغلب على ما كان اعتراهما من بعض عيوب النطق بالتدريب والمعالجة الصبورة.

ومن هؤلاء أيضا محمد بن شبيب ، وفيه يقول الجاحظ : « وقد كانت لُثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، وكان إذا شاء أن يقول عمرو ، ولعمري وما أشبه ذلك على الصحة قاله ، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيؤ لذلك ، فقلت له : إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر ، فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهرًا واحدًا أن لسانك كان يستقيم » [2] .

ثقافة الخطيب الداعية

الخَطابة ــ كما ذكرنا من قبل ــ لا تقتصر على مجال معين ، وإنما تتطرق إلى

---

(١) البيان والتبيين ، ١/ ٣٩ ، ومعنى يزْحَل يزلّ عن مقامه ، والهلباج الأحمق الشديد الحمق . السابق من حواشى المحقق .

(٢) السابق ١/ ٢٦ .

شتى المجالات ، وتخوض في سائر الموضوعات ، والخطيب الداعية لا تنحصر خطابته في ميدان واحد ، بل هو يصول ويجول في شتى الميادين ، روحية كانت أم خلقية ، أم اجتماعية ، أم سياسية ، وغيرها ، إذ الإسلام الذي يدعو إليه دين شامل لكل أمور المعاش والمعاد ، ومبادئه تنتظم جميع شئون العباد .

ومن هنا لزم أن تتعدد مصادر الخطيب الداعية وروافده ، وأن تتنوع ثقافته ومعارفه ، وهذا المطلب من أوكد الأمور في حقه ، لاسيما في عصرنا هذا ، الذي لابد فيه من التسلح بالمعرفة والثقافة الشمولية ، في مواجهة الحرب الفكرية والثقافية التي ترمي إلى إبعاد الناس عن الإسلام ، وزعزعة اعتقاد المسلمين في دينهم ، وجدارته بقيادة الحياة ، وإسعاد البشرية .

والعدة الثقافية للخطيب ـ بإجمال ـ يأتي على رأسها المعارف والعلوم الشرعية ، المتعلقة بجوانب الشريعة الإسلامية ، من عقيدة وشريعة وآداب وأخلاق ، وبعدها تأتي الثقافة التاريخية ، والتي تدخل فيها السيرة النبوية ، ثم المعارف والعلوم الإنسانية ، ثم العلوم الكونية ، ثم علوم الدعوة الإسلامية ، ثم علوم اللغة العربية وآدابها ، ثم دراسة ما يتعلق بالتحديات والمؤامرات والتيارات المعادية للإسلام ، وأخيرا الثقافة الواقعية .. وهناك بعض الدراسات التي فصّلت القول في ثقافة الداعية ، مثل كتاب (ثقافة الداعية) للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي ، فليرجع إليه الخطيب ففيه إفادة عظيمة في هذا الأمر .

أخلاق الخطيب الداعية

إن الخطيب الداعية محط أنظار الناس ، يراقبون سلوكه وأفعاله ، ويقتدون به في أعماله ، وهم دائمًا ينظرون إليه على أنه مثال للصلاح والاستقامة ولذا فإن صدمتهم تكون كبيرة إذا رأوه يقارف عملًا قبيحًا ، أو يتخلق بخلق

مرذول ، فضلا عن أنهم قد ينفضّون من حوله ، لأنهم لم يروا فيه ما كانوا يؤملونه ويتوقعونه من التزام أخلاقي ، وتمسك بالمباديء التي يدعو إليها .

وجدير بالذكر أن كل مسلم مطالب بأن يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأن يتخلى عن سيئها ، فكيف إذا كان داعية إلى الفضيلة والإصلاح ؟

وقد مدح الله تعالى إمام الدعاة وقدوتهم ﷺ بعظمة الخلق وسموه ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤] .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ، وكان يقول: « **خياركم أحسنكم أخلاقًا** » (٢) .

وعن معاذ بن جبل قال : آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رِجلي في الغَرْز أنه قال : « **أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل** » (٣) .

لذا كان حريًّا بالخطيب الداعية أن يكون سبّاقًا إلى التحلي بمكارم الأخلاق ، لما لذلك من أثر مباشر وفعال في نجاحه في مهمته . والله المستعان .

---

(١) رواه الترمذي في ك البر ب ما جاء في معاشرة الناس رقم ١٩٨٧، وقال : هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ٦/ ١٩٧ رقم ٢٠٨٩٤ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٤ وصححه ، والدارمي في ك الرقاق ب في حسن الخلق رقم ٢٧٩١ .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد . ب حسن الخلق . ص ١٢١ ط وزارة الأوقاف بالإمارات العربية المتحدة ، ومسلم في صحيحه . ك الفضائل . ب كثرة حيائه ﷺ . شرح النووي ١٥/ ٧٨ رقم ٢٣٢١ .

(٣) رواه مالك في الموطأ . ك حسن الخلق ب ما جاء في حسن الخلق ٢/ ٩٠٢ .

المبحث الثاني
فن الإلقاء

أهمية حسن الإلقاء وجودته

إننا لا نبالغ إذا قلنا إن الإلقاء الحسن الجيد هو سر نجاح الخطبة ، وأهم شيء في الموقف الخطابي ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن رداءة الإلقاء وسوء العرض وضعف الأداء ؛ يهبط بقيمة الخطبة ، ويضيع فائدتها ، ويذهب برونقها وبهائها ، حتى ولو كانت تحتوي على مادة علمية جيدة ، وذات موضوع هام ، فكل هذا يضيع حينما يصطدم بالإلقاء الرديء المتدني .

ونقصد بالإلقاء هنا الكيفية التي يعرض بها الخطيب موضوعه ، والهيئة التي يكون عليها حين يخاطب جمهوره ، والطريقة التي يوصل بها للناس ما عنده .

والإلقاء ــ على هذا ــ هو المرحلة الأخيرة من مراحل إعداد الخطبة وتكوينها، ونجاحُ تلك المراحل السابقة من اختيارٍ للموضوع وتقسيمِه إلى عناصر ، وجمعٍ للمادة العلمية ، وغيرها ـ على ما سيأتي بيانه في الفصل القادم ــ ؛ مرتبط ارتباطًا وثيقًا بإجادة الإلقاء وتحسينه ، فإذا كان الخطيب فيه موفقا ؛ كان تتويجا لتلك المراحل بالنجاح ، وإن كان فيه مخفقًا ؛ ضاع كثير من الجهد أدراج الرياح .

قال أحد الغربيين : « هناك ثلاثة أشياء مهمة في الخطاب :

من يلقيه ؟

وكيف يلقيه ؟

وما الذي يقوله ؟

والشيء الأقل أهمية من بين هذه الصفات الثلاثة ؛ هي الأخيرة » [(١)] .

هذا ، وكل مقومات الخطيب التي سبقت الإشارة إليها تؤدي إلى حسن الإلقاء ، وتسهم في جودته ، فهي في الجملة خادمة له ، ويضاف إليها عناصر ومقومات أخرى نشير إليها على النحو التالي :

مقوّمات الإلقاء الحسن

أ ـ حيوية الإلقاء

فالخطيب الجيد يتسم إلقاؤه بالحيوية ، وينبض بالحماس ، وبإثارة المستمعين ، وإيقاظ أذهانهم ، وإغلاق المنافذ أمام أي فرصة يتسلل من خلالها الشرود والإعراض إليهم ، فهو يجذب اهتمام الجمهور بحيويته وحرارته وحماسته .

ولقد كان النبي ﷺ يتسم إلقاؤه بالحرارة والحيوية، ويفيض حماسة وجاذبية، حيث يرفع صوته ويُجزِل كلامَه ، ويَظهَر انفعالُه على ملامح وجهه الشريف ﷺ وحركتِه وإشارته ، فيبدو في هيئة نشطة ، وصورة جذابة ، تشد المستمعين إليه ، وتربطهم به .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم

(١) فن الخَطابة . دايل كارنغي . ص ٧٤ .

ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول : أما بعد ؛ فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدْي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليّ وعليّ(١) .

ولْيتجنب الخطيبُ كل ما من شأنه أن يجعل إلقاءه فاترًا ، وطاقته خامدة ، وحيويته ضعيفة ، ولهذا فإن عليه أن يريح جسمه قبل إلقاء خطبته أو محاضرته ، وأن يتجنب ملء معدته بالطعام حالما يتأهب للإلقاء ، ويكتفي بقليل من الطعام حتى ينتهيَ من إلقاء خطبته ، ثم ليأكل بعد ذلك ما طاب له الأكل ، ولْيحرص على راحة ذهنه ، وليبتعد عما يوتر أعصابه ويرهق بدنه ويضعف ذهنه ، ويستهلك طاقته ، فإن الخطيب المتعَب يَفتُر إلقاؤه ، ولا يكون جذابًا .

ب ـ حسن توظيف الصوت

والصوت منحة ربانية ، وهِبة جليلة من الله تعالى ، وهو بالنسبة للخطيب رأس ماله ، وأقوى أدواته الفطرية ، والخطيب الذي وهبه الله تعالى صوتًا قويًا ، عذبًا جميلًا ، لا شك في أنه يكون أجدر بالإلقاء الجيد ، والإفهام والإفصاح أكثر من آخر ليس عنده مثل هذه النعمة .

وقد يسمع المرء خطيبا يحسن توظيف صوته وتوجيهه ، فتنساب الكلمات من فمه عذبة جميلة ، متناغمة تبعث على الارتياح والاستئناس ، بينما قد يسمع خطيبا لا يجيد توظيف صوته ، فتخرج منه الكلمات رتيبة باردة ، فاقدة لجاذبيتها ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، ك الجمعة . مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٥٣ـ ١٥٤ حديث رقم ٨٦٧ ، والنسائي في ك صلاة العيدين ب كيف الخطبة ٣/ ١٨٨ـ ١٨٩ .

ليس هناك انسجام بين أداء اللفظ ونطقه ، وبين المعنى الذي يتضمنه .

وعلى الخطيب أن يحرص على أن يكون صوته دالًا على معاني كلماته ، متناسقا مع مضامينها ، وهنا تختلف نبرة الصوت لدى الخطيب الجيد حال التعجب ، عنها حال التقرير ، كما تختلف لهجته في مقام الزجر أو الترهيب ، عنها في مقام الشكر أو الترغيب ، كما أنه يتفنن في طبقات صوته ، وعلوه وانخفاضه ، وتمهله وسرعته ، فالمكان الواسع المزدحم يحتاج إلى صوت أقوى وأعلى بعكس المكان الضيق المحدود ، الذي لا يتطلب ما يحتاج المكان الواسع ، وإذا كان الخطيب يعيش موضوعه ويتفاعل معه ، ويخرج كلامه من القلب ، كان صوته مطابقا للمعنى الذي يعيشه بلا تكلف أو تصنع ، وهذا يؤثر في الجمهور ويجذبهم ، بعكس ذلك المتكلف المتصنع ، فإنه يفقد احترام المستمعين ، لأن الناس تمقت التكلف ، والتصنع ولا تستريح إليه ، ويحبون من الخطيب أن يكون طبيعيًا .

ومما يفيد الخطيبَ ويجعل إلقاءه جيدًا ؛ أن يبدأ خطبته هادئًا متمهلا ، ثم يأخذ صوته في الارتفاع تدريجيا ، حتى يصل إلى مداه ، فيجعله يتردد بين العلو والانخفاض ، والقوة واللين ، لأنه إن بدأ عكس ذلك ، وبقي على وتيرة واحدة من الشدة والارتفاع والإسراع كان عرضه للتعب ، وصوته عرضة للإجهاد ، فضلًا عن أن هذا يؤدي إلى الرتابة والملل .

وينصح بعض المتخصصين الخطيب في هذا الصدد بالآتي :

« **أولًا** : شدد على الكلمات المهمة ، واخفض الكلمات غير المهمة .

ثانيًا : غيّر طبقات صوتك .

ثالثًا : غيّر معدل سرعة صوتك .

رابعًا : توقّف قبل وبعد الأفكار المهمة »(١) .

ومن حسن توظيف الصوت أن يكون الإلقاء بتمهل ، ونقصد بالتمهل في الإلقاء أن لا تنحدر العبارات من الخطيب بسرعة ، ولا يعني هذا أن يكون بطيئًا بُطئًا تامًا ، وإنما هو التوسط ، فلا يتسم النطق بالسرعة أو العجلة ، كما لا يتصف بالبطء أو الهدوء الشديد الذي يفقد الخطبة حياتها وقوتها ، ولا يعني هذا أن الخطيب لا يسرع في بعض العبارات ؛ بل قد يقتضي الموقف أن تتغير نبرات صوته في التمهل والإسراع ، فيسرع في نطق جملة ، وقد يريد التوكيد على أهمية معنى أو جمله فيعمد إلى نطقها بتمهل أكثر من غيرها ، ثم يعود إلى اعتداله ، فإن هذا مما يعطي الخطبة حرارة وحيوية .

ولكن الأصل في الإلقاء هو التمهل ، والاحتراز عن الإسراع ، لما يأتي :

« أ ـ النطق السريع المتعجل حيث تجب الأناة ينتج منه تشويه المخارج ، وخلط الحروف بعضها ببعض ، لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال من لفظ إلى لفظ .

ب ـ والإسراع المفرِط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة .

ج ـ والخطيب السريع في نطقه لا يعطي السامع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع ، وتذوق ما فيه من صقل اللفظ ، وجودة المعنى ، وحسن الخيال ، فإذا قرعَت أذنَه عبارةٌ قبل أن يذوق ما في الأول من جمال ، يعروه التعب ، ويسكن

---

(١) فن الخَطابة دايل كارنغي ص ٨٣ ـ ٨٥ باختصار .

قلبَه السّأَمُ ، وينصرف عن الإصغاء .

د ـ والتمهل فوق ذلك يجعل الصوت يسري إلى السامعين جميعا بأيسر مجهود ، متناسبًا مع المكان والعدد ، بينما الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتي أكبر ، ليصل الكلام إلى الآذان » [١] .

وهناك بعض الخطباء لا يترك صوته على سجيته وطبيعته ، بل يتكلف تقليد هذا الخطيب أو ذاك ، ويسير على هذا النمط طيلة الإلقاء ، وهذا مما ينبغي أن يتحاشاه الخطيب ـ لاسيما المبتدئ ـ ويترك صوته ينساب بحريته وطبيعته ، لأن هذا التقليدَ الحرفيَّ لغيره يحطم فيه نزعة التجديد والابتكار والإبداع ، ولا يجعل له شخصيته المتميزة .. نعم لا مانع من أن يستمع إلى الخطباء المجيدين ويستفيد من أدائهم وإمكانياتهم الفنية ، ويطور نفسه على ضوء ما يفيده من هؤلاء الفصحاء ، ويرقى بأدائه ، وقد انتفعْتُ أنا شخصيًا من بعض الخطباء المشاهير البلغاء الذين كنت أحرص على الاستماع إلى خطبهم في بداية مشواري مع الخَطابة في مرحلة الصِّبا وما بعدها [٢] ، ولا أزال أتعلم وأستفيد من أساتذتي وشيوخي ، فالإنسان يطلب العلم من المهد إلى اللحد ؛ لكن يبقى المرء محافظا على استقلاله وتميزه ، وعلى شخصيته أن تذوب في شخصية غيره .

ذُكر لي أن خطيبًا خطب في أحد المساجد القريبة من بيتنا في البلدة ، وكان

---

(١) الخَطابة . الشيخ أبو زهرة ص ١٤٧ .

(٢) في مقدمة هؤلاء خطيب عصره ، وحامل لواء الوعظ في زمانه بلا منازع ، العالم الداعية الأستاذ الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله تعالى ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

يلقي خطبة من خطب فضيلة العالم الداعية الشيخ عبد الحميد كشك ـ رحمه الله ـ وأراد الخطيب أن يقلد الشيخ بالحرف ، حتى بعض العبارات التي كان ينبغي أن يتنبه هذا الخطيب إلى أنها لا تناسب مقامه ، فكان مما قال ـ مقتبسا من كلام الشيخ كشك ـ : « هنا مدرسة محمد ... مع الدرس الثاني بعد المائة الأولى ... » وسار على هذا المنوال ، وهو ربما لم يخطب في حياته كلها عشرين خطبة ، ومع ذلك يقول مع الدرس الثاني بعد المائة الأولى !!!

ج ـ وقفة الخطيب

وعلى الخطيب أن يتحرى حال إلقائه الوقفة الحسنة المناسبة ، التي تُضفِي عليه المهابة والوقار ، فليحرص على أن يكون بارزا للجمهور ، يراهم ويرونه ، فهذا يتيح الفرصة للتفاعل والتجاوب بينه وبينهم ، فيستطيع أن يستقرئ ما في وجوههم ونظراتهم ، وهم يرون إشاراته وتفاعله بما يقول ، فيسهم في إيجاد التواصل بينه وبينهم ، ولاشك أن متابعة الجمهور للخطيب من خلال الرؤية والسماع ، يكون أكثر فائدة ، وأقوى تأثيرًا من المتابعة بالسماع فقط .

ولهذا يحسن أن يقف الخطيب على مكان مرتفع ، ولا ينبغي له أن يتجاهل الجمهور ، بحيث لا ينظر إليهم ، بل ينظر فيهم ، ويحاول أن يستنطق أفكارهم ، ولا يثبّت نظره في جهة واحدة ، كأن ينظر إلى أعلى دائمًا ، أو إلى الأرض دائمًا ، ولا يستحب أن يتكلف هيئة واحدة يثبت عليها طوال خطابه ، مثل جعل اليدين على الصدر ، كهيئة المصلى حين قراءة الفاتحة والقرآن في الصلاة .

وليحرص على « اجتناب بعض العادات المستهجنة ، كوضع اليد في الخاصرة ، أو

كثرة الحركة ، وذلك بأن يعتدل في وقفته ، ويبرز إلى الأمام صدره ، ويقدم رجلا على الأخرى ، ليتزن جسمه ، ويستريح نَفَسُه ، ولا يعيا صوته »[١] .

وإذا كنا نقول بضرورة أن يتحرى الخطيب الوقفة التي تضفي عليه المهابة والوقار ؛ فليس معنى ذلك أن يقف وقفة المستكبر المتعالي ؛ لا بل يجب أن يكون متواضعًا ، ولا تعارض بين التواضع والمهابة .

« ويحسن بالرأس أن يحيد عن الانتصاب الزائد ، والانحناء المفرط ، وبالوجه والنظر أن يكون كمرآة للنفس في بيان عواطفها ، وباليدين أن لا تُرخَيا مهملتين ، ولا تُمدّا بإفراط أو تُلصقا بالصدر »[٢] .

د ـ الإشارة

وللإشارة دور لا يستهان به في الإبانة عن المقصود ، وتبليغ المراد ، وقد يسكت المرء أحيانًا ، وتعبر إشارته عما يقصده أبلغ تعبير ، وتوصّل رسالته خير توصيل ، فكيف إذا اشتركت مع اللفظ والصوت في أداء متناسق متناغم ، يقوم به خطيب حاذق ماهر ، يتفاعل مع رسالته ، ويخرج الكلام من قلبه ؟ لاشك أن هذا يسهم في إخراج خطبة جذابة مؤثرة ممتعة ، وإقبال الجمهور على الخطيب ، والتفاعل معه ، والتأثر بما يقول .

قال الجاحظ : والإشارة واللفظ شريكان ، ونِعم العون هي له ، ونِعم

---

(١) فن الخَطابة . د/ أحمد الحوفي ص ٢٦ .

(٢) فن الخَطابة . علي محفوظ ص ٦٧ .

الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط ، وبعدُ فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة ، وحيلة موصوفة ، على اختلافاتها في طبقاتها ودلالاتها .

وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مَرْفِق كبير ، ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصّ الخاصِّ ، ولجهلوا هذا الباب ألبته .

وقد قال الشاعر في دلالة الإشارة :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنْت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر :

وللقلب على القلب دليل حين تلقاه

وفي الناس مِن الناس مقاييسُ وأشباه

وفي العين غنىً للمرء أن تنطق أفواه

وقال الآخر :

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان [1] .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٨ ـ ٧٩ باختصار .

ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم ، فإذا أشاروا بالعِصيّ ، فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيديًا أخرى [(١)] .

وقد كان من عادة خطباء العرب أنهم يشيرون بالعصا في خطبهم ، ويذكر الجاحظ أن ذلك شيء خاص بهم ، ومقصور عليهم ، ومنسوب إليهم [(٢)] .

قال عبد الملك بن مروان: لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي [(٣)] .

وأراد معاويةُ سحبانَ وائل على الكلام ، وكان قد اقتضبه اقتضابًا [(٤)] ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة [(٥)] فرطلها [(٦)] ، فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرة من بيته [(٧)] .

هذا ؛ واستخدام الإشارة في الخطبة يجب أن يكون في موضعه ، بحيث تؤدي الإشارة مع اللفظ إلى توكيد المعنى وتجليته ؛ ألا ترى إليه ﷺ ، حين كان يقول في خطبته ـ كما أشرنا سابقًا ـ : « **بُعثْت أنا والساعة كهاتين** » ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ـ ؛ أن هذه الإشارة جاءت في مناسبتها ، وأنها

---

(١) السابق ٣/ ١١٦ .

(٢) السابق ٣/ ١١٧ .

(٣) السابق ٣/ ١١٩ .

(٤) أي ارتجله وتكلم به من غير تهيئة .

(٥) المِخصرة : ما يُتوكأ عليها كالعصا ونحوها، أو هي قضيب يشار به في أثناء الخَطابة والكلام ، وكان يتخذه الملوك والخطباء . المعجم الوسيط ١/ ٢٤٦ .

(٦) أي حاول معرفة وزنها ، راجع السابق ١/ ٣٦٤ .

(٧) البيان والتبيين ٣/ ١٢٠ .

أسهمت مع اللفظ في توكيد معنى الاقتران والتزامن بين البعثة النبوية الشريفة ، وبين الساعة ، وقرب قيامها .

كما ينبغي أن تكون إشارة الخطيب متوافقة مع مضمون كلامه ، ومعاني ألفاظه ، فليس من المناسب أن يتحدث الخطيب ـ مثلًا ـ عن النار وجحيمها ، وجهنم ولهيبها ، بوجه منبسط وثغر باسم ، كما لا يكون من المناسب أيضًا أن يخطب عن الأمل ، ويدعو إلى التفاؤل والاستبشار بالفرج ، بينما هو عابس الوجه ، مقطب الجبين .

ثم إن الاستخدام المنظم للإشارة ، والذي يساعد في جودة الإلقاء ؛ يختلف تمامًا عما تعوده بعض الخطباء من كثرة الحركة ، والعبث بملابسهم أو لِحاهم أو جبين أحدهم ، أو الضغط بقبضة أيديهم بعصبية شديدة ، وتوتر غير ملائم ، أو الإكثار من خلع النظارة ولبسها ، وبعضهم كثير التحرك في مكانه إلى الأمام تارة وإلى الوراء أُخرى .. ونحو هذا ، فهذا العبث ونحوه لا يدخل فيما نحن فيه ، بل نرى أنه يخل بالأداء ، وربما يضر بهيبة الخطيب ووقاره .

هذا ؛ ويجب ألا تؤدي الإشارة إلى معنى فاسد ، مثل ما حدث من بعض الخطباء حين ذكر الحديث الشريف : « **إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن** » [1] ؛ حيث قرن الكلام بأن أشار بأصبعيه السبابة والوسطى ،

---

(١) جاء هذا في حديث عمرو بن العاص مرفوعًا ، وقد رواه مسلم في ك القدر ب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء . شرح النووي ١٦/ ٢٠٣ـ ٢٠٤ رقم٢٦٥٤ ، وابن ماجة في ك الدعاء ب دعاء رسول الله ﷺ . رقم ٣٨٣٤ ، وأحمد ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ رقم ٦٥٣٣ .

فهذا يوهم أن أصبعي الرحمن مثل أصبعي هذا الخطيب ـ تعالى الله .

وعلى الخطيب أن يعرف مدلول الحركات والإشارات لتتناسب مع المعنى الذي يقصده ـ كما يذكر ذلك بعض الباحثين :

« فمثلا العين المفتوحة تمثل الغيظ أو الخوف أو الإعجاب ، والعين المغلقة تشير إلى التواضع أو البغضاء، والنظر الشزر يترجم عن الاحتقار والاستهانة والكراهية .

والعين المتحركة يمينًا وشمالًا تنبئ عن الرياء والاشمئزاز، والعين المتطلعة إلى السماء ترمز إلى الدعاء ، والنظر إلى الأرض تعبير عن اليأس أو الخشوع أو الحياء ، والعين المستقرة في نظرتها تفصح عن الشدة والإثبات والرجاء ، والعين اللامعة ترجمان عن الظفر .

والوجه كله معبر عن الانفعالات بما يرتسم على صفحته من خطوط وأشكال ؛ فارتفاع خطوط الجبهة قليلًا يمثل الانتباه ، وارتفاعها كثيرًا يرسم الدهشة أو الفرح العظيم ، أو الألم الأليم ، وانخفاضها يدل على القلق والتفكير .

والوقفة المعتدلة الناهضة تدل على التحدي ، والوقفة المنحنية تدل على الحنان والشفقة والاستسلام ، وانطلاق الذراع إلى الأمام ينبئ عن التقدم وعن التهديد وهكذا »[١] .

---

(١) فن الخَطابة د/ أحمد الحوفي ص ٢٧ ـ ٢٨ .

ويحسن أن تسبق الإشارة القول ممهدة له منبئة به ، فيتنبه السامعون له ويترقبونه ، ليجيء في وقت الحاجة إليه ، فيثبت فضلَ ثبات ، فالإشارة تكون مع الفكرة مصاحبة لها ، والفكرة سابقة على القول ، فالإشارة مثلها (١) .

هـ ـ حسن المظهر

إن الخطيب المسلم عنوان لدعوته ، وسفير لدينه ، أينما حلّ وأينما ارتحل ، فليكن جميلا ، حسن المظهر ، وليكن تطبيقا عمليا لمبادئ الدعوة الإسلامية ، الداعية إلى النظافة والتجمل والتطهر .

قال تعالى يوصي الداعية الأول ﷺ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر:٤] ، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** » ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنة ، قال : « **إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطَرُ الحق وغَمْطُ الناس** » (٢) .

والخطيب يكون محط أنظار الجمهور ، وفي دائرة الضوء ، وأي إهمال في مظهره ، أو هندامه ، لاشك في أنه سوف ينعكس بالسلب على نظرة الجمهور له ، وربما يقلل من احترامهم وتقديرهم له ، والعكس صحيح ، فالخطيب الأنيق في ملبسه ، الجذاب في مظهره ، النظيف في سمته ومنظره ؛ تكبره العين ،

---

(١) الخَطابة . الشيخ أبو زهرة ص ١٥٢ .

(٢) رواه مسلم في ك الإيمان ب تحريم الكبر . شرح النووي ٢/ ٨٩ رقم ٩١ ، ومعنى بطَر الحق : دفعه وردّه ، وغَمْط الناس : احتقارهم .

وتهابه النفس ، وتبعث على الارتياح رؤيته .

بل إن حسن المظهر له أثر طيب على الخطيب نفسه ، إذ يمنحه شعورًا بالثقة والارتياح ، وقد « أُرْسِل سؤال إلى مجموعة كبرى من الناس من قِبَل عالم نفسي ورئيس جامعة ، يتساءل عن التأثير الذي تتركه الملابس في أنفسهم ، فأجمع كل الأفراد على أنهم عندما يكونون بمظهر لائق وأنيق ، ويتأكدون من ذلك ، يشعرون بتأثير ذلك ، ومن الصعب شرح ذلك الشعور، لأنه غير محدد ، رغم كونه حقيقيًا ، فقد منحهم الثقة بالنفس ، ورفع تقديرهم الذاتي (١) .

و ـ الأسلوب

ونقصد بالأسلوب : نَصَّ كلام الخطبة الذي يتفوه به الخطيب من عبارات وجُمل وتراكيب لفظية ، فهذا الأسلوب ينبغي أن يكون بليغًا مؤثِّرا ، ومصوِّرًا للمعاني التي يقصدها الخطيب أصدق تصوير، ومعبرًا عنها أجمل تعبير .

وقد مر بنا عند تعريف الخَطابة أن من أهم أسسها الإقناعَ والاستمالةَ ، فهما جناحان ترقى بهما الخطبة إلى منزلة القبول ، وتلِج بهما القلوبَ والعقول ، وبهما يُقبِل على الخطيب المستمعون ، ويتفاعل معه المخاطَبون ، ومن هنا كان على الخطيب أن يصوغ أسلوبه صياغة تحقق الإقناع والاستمالة ، ليكون القبول والتأثير .

والأسلوب الذي يتحقق به هذان العنصران ينبغي أن يتسم بالبلاغة والقوة .

فالبلاغة تمنح الوضوح والإقناع .

---

(١) فن الخَطابة دايل كارنغي ص ٩٠ .

والقوة تمنح التأثير والاستمالة .

فليحرص الخطيب على أن يكون أسلوبه بليغا وقويا ومؤثرا .

قال الجاحظ : وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدًا من الاستكراه ، ومنزّها عن الاختلال مصونا عن التكلف ؛ صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى فصَلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ؛ أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة ، ولا يَذهَل عن فهمها معه عقول الجهلة [(١)] .

وكلما كان الخطيب قادرا على إفهام الناس والإبانة عن مقصده فقد حاز البلاغة مع الفصاحة ، « قال إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع » [(٢)] .

وإذا كان كلامُ الخطيب يَخرج من قلبه ؛ كان أسلوبه قويا ، ووصل إلى قلوب الناس وأثّر فيهم .

« وقد قال عامر بن عبد قيس : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٨٣ .

(٢) السابق ١/ ٨٧ .

القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان ، وقال الحسن رحمه الله ـ وسمع رجلا يعِظُ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ، ولم يرِقّ عندها ـ فقال : يا هذا إن بقلبك شرا أو بقلبي »[(١)] .

ويضاف إلى هذا :

❊ أن يكون الأسلوب خاليا من التعقيد .

❊ وأن يختار الخطيبُ المقاطعَ التي سيقف عليها بعناية .

❊ وأن تكون الجمل قصيرة بقدر الإمكان .

❊ وأن يكون الكلام خاليا من الأخطاء النحوية ، واللغوية .

❊ وأن يستعمل الخطيب الخيال والاستعارة والمجاز والكناية فيثير بهذا المشاعر والعواطف .

❊ وينبغي أن ينوِّع في الأسلوب ويتفنن فيه ، فتارة يأتي بأسلوب الاستفهام، وأخرى بأسلوب التعجب ، وثالثة يعمد إلى تقرير الحقائق وسوقها في أسلوب خَبريٍّ ، ورابعة يأتي بأسلوب ضرب المثل... وهكذا .

❊ وأن يكون الأسلوب متينًا ، أي يفرغ المعنى في لفظ يناسبه ، فالمعاني الجزله تحملها ألفاظ فخمة قوية ، والرقيقة تحملها ألفاظ لينة لطيفة .

ولنا عوْدٌ مرةً أخرى نفصّل فيها هذا الإجمال ونوضح المقصود ، فيما يتعلق

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٨٣ ـ ٨٤ .

بالأسلوب ، وذلك عند الحديث عن المرحلة النهائية من مراحل تكوين الخطبة ، وهي مرحلة التعبير ، وصياغة الخطبة ، وهو مكمِّل لما هنا .

تلك مقومات الخطيب الداعية التي لا يسعه إلا التحققُ بها ، ولا يتأتّى له النهوضُ والنجاحُ في رسالته بدون الأخذ بها ، والله المستعان .

صحيفة بشر بن المعتمر في تعليم الخطابة (١)

مرّ بِشرُ بنُ المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب ، وهو يعلِّم فتيانهم الخَطابة ؛ فوقف بِشرٌ فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلًا من النَّظَّارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صَفحًا واطووا عنه كشحًا (٢) ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغِ بالك وإجابتِها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا ، وأشرف حسبًا ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عينٍ وغُرّةٍ (٣) ، من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأطولُ بالكَدّ والمطاولة

---

(١) أورد هذه الصحيفة كلٌّ من ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤/ ١٣٩ ـ ١٤١ ، والجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٣٥ـ ١٣٩ ، وعند الجاحظ زيادة لم يوردها ابن عبد ربه ، وقد أثبت هنا رواية الجاحظ .

وبشر بن المعتمر الكوفيُّ ، ثم البغداديُّ ، كان شيخَ المعتزلة ، وصاحبَ تصانيف ، وكان أخباريا شاعرا متكلما ، مات سنة عشر ومئتين . يُراجَع : سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٣ .

(٢) أي : اعرضوا عما قاله .

(٣) العين والغُرّة من كل شيء أنفسه وأكرمه .

والمجاهـدة، وبـالتكلف والمعـاودة، ومهـما أخطـأك لم يخطئـك [1] أن يكـون مقبـولًا قصدًا، وخفيفًا على اللسان سهلًا، وكما خرج مـن ينبوعـه ونجـم مـن معدنـه، وإيـاك والتوعّر [2] فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هـو الـذي يستهلك معانيَك، ويُشين ألفاظك، ومـن أراغ [3] معنـى كـريمًا؛ فليلتمس لـه لفظًـا كـريمًا، فـإن حـق المعنـى الـشريف اللفـظ الـشريف، ومـن حقهـما [4] أن تـصونهما عـما يفـسدهما ويهجنهما [5]، وعـما تعُـودُ مـن أجلـه أن تكـون أسـوأ حـالًا منك قبـل أن تلـتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما.

فكـن في ثـلاث منـازل؛ فـإن أولى الـثلاث أن يكـون لفظـك رشـيقًا عـذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إما عند الخاصـة إن كنتَ للخاصة قصدْتَ، وإما عنـد العامـة إن كنـتَ للعامـة أردْت، والمعنـى ليس يشرف أن يكون من معاني الخاصة، وكذلك لـيس يتّـضع بـأن يكـون مـن معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعـة مـع موافقـة الحـال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامّيُّ والخـاصّيُّ، فـإن أمكنـك أن تَبْلغ من بيان لسانك، وبلاغـة قلمـك، ولطـف مـداخلك، واقتـدارك عـلى نفسك، إلى أن تُفهِم العامة معانيَ الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التـي لا

---

(١) أي مهما يغب عنك من المعاني والألفاظ فلن يفوتك أن يكون مقبولًا وخفيفا ... الخ.

(٢) تـوعَّر فـلان: تـشدد، وتـوعر الأمـرُ عليـه تعـسر، وتـوعر في الكـلام تحـيّر. المعجـم الوسيط٢/ ١٠٨٥ ـ ١٠٨٦.

(٣) أي: أراد وطلب. راجع المعجم الوسيط ١/ ٣٩٦.

(٤) أي: اللفظ والمعنى.

(٥) أي: يقبحهما.

تلطف عن الدهماء ، ولا تجفُو عن الأكفاء فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلةُ الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّف ، وتجدُ اللفظةَ لم تقع موقعَها ولم تَصِر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافيةَ لم تحُلّ في مركزها وفي نصابها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قلِقة في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تُكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول في غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاطَ قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعِبْك بترك ذلك أحد .

فإن أنت تكلفتها ، ولم تكن حاذقًا مطبوعًا ولا مُحْكِما لشأنك ، بصيرًا بما عليك وما لك ، عابَك مَن أنت أقلُّ عيبًا منه ، ورأى مَن هو دونك أنه فوقك ، فإن ابتُلِيت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة ، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك ، وعاوِده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عِرْق [١] .

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادثِ شُغْلٍ عَرَض ، ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود مع

---

(١) العِرْق : الشيء القليل . المعجم الوسيط ٢/ ٦١٧ .

الشهوة والمحبة فهذا هذا .

وقال : ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازنَ بينها وبين المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعلَ لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يَقْسِم أقدارَ الكلام على أقدار المعاني ، ويَقْسِمَ أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . أ هـ .

*****

الفصل الثالث

إعداد الخطبة وتكوينها

المبحث الأول

بناء الخطبة، وأجزاؤها

المبحث الثاني

بين الخطبة وبعض فنون القول الأخرى

المبحث الأول
بناء الخطبة، وأجزاؤها

تمهيد :

إن الخطبة في نظر الخطيب الداعية رسالة خطيرة ، ومهمة جسيمة ، وأمانة ثقيلة ، إذ إنه يوظف خطبته لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، ويتوسل بها إلى دعوة الناس للإسلام عقيدة ومنهجًا ، وتحذيرهم من غيره ، وإيقاظ المسلمين في هذا الزمن من سبات عميق ، وإنعاشهم من غيبوبة طال أمدها ، حتى صاروا ـ بكل أسف ـ في ذيل القافلة ، ومؤخرة الركب ، وقد سبقهم من كان بالأمس خلفهم ، وتبعا لهم ، فهو يعمل على إنهاضهم من هذه الكبوة ، والأخذ بأيديهم إلى صراط الله المستقيم ، الذي يوصلهم إلى العزة والفلاح في معاشهم ومعادهم.

ومن ثم كان من الضروري الاهتمام بإعداد الخطبة وتشييد بنيانها بدقة وعناية ، على هدى وبصيرة ، وإخلاص في الإعداد لله رب العالمين ، مع شعور دائم من الخطيب بالمسؤولية ، وعظم الأمانة ، وقدر المهمة التي يقوم بها ، كي تتحقق الأهداف .

وقد قيل لعبد الملك بن مروان : عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ! قال : « وكيف لا يعجل عليَّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين » يعني خطبةَ الجمعة ، وبعضَ ما يعرض من الأمور » [1] .

---

(1) البيان والتبيين ١/ ١٣٥، والعقد الفريد ٤/ ٢٣٣.

الخطبة بين الإعداد والارتجال

هـذا ، وأي خطبـة تُلقَـى إمـا أن يكـون قـد سـبقها إعـدادٌ وتحـضيرٌ لمادتهـا وأجزائِها ومكوِّناتها ، وإما أن تكون قـد أُلقيـت عـلى البداهـة ، أو ارتجـالًا ، أي دون تحضير سابق .

ونلقي ضوءً على كل من الإعداد والارتجال ، قبـل الـشروع في الحـديث عـن كيفية إعداد الخطبة وتكوينها ، وذلك على النحو التالي :

الإعداد وأهميته :

والمقصود بالإعـداد : الأخـذ بالأسـباب الممكنـة لتحـضير الخطبـة ، باختيـار موضـوعها وتقـسيم عناصرهـا وإعـداد مادتهـا العلميـة ، وأدلتهـا المختلفـة ، وتنسيق أجزائها تمهيدًا لإلقائها .

ولا شك أن للإعداد مزايا وفوائد جمّـة ، لا يـماري فيهـا أحـد ، كـما أنـه يَعـود بالآثار الحسنة على إلقاء الخطبة ، وبلوغ الخطيب أهدافه المرجوة .

ولقـد « كـان كثـير مـن البلغـاء يُعِـدون خطـبهم ويهـذبونها ، ويتمرنـون عـلى إلقائها ، هكذا كان يفعل شيشرون ، وكـان كانتليـان مـن أسـاتذة الخطابـة عنـد اللاتـين يـرى أن الارتجـال لا يتهيـأ للمـرء إلا في آخـر عمـره بعـد أن يكـون قـد تدرب وتمرن ، وكتاب الجمهورية لأفلاطون يوضح أن جميع خطباء أثينـا كـانوا ينمقـون العبـارات قبـل أن يُلقـوا خطـبهم ، ولـذلك تـتراءى فيهـا آثـار التعمّـل والتنقيح والإعداد .

وكـــان محظـــورًا عـــلى المتقاضـــين أن يترافعـــوا في المحـــاكم ، فـــاحترف

السُّفسطائيون بإعداد الخطب وبيعها لأصحاب القضايا ليستظهروها ، ويلقوها في المحاكم ، ولهذا قلّ المرتجلون في اليونان وقل فيهم من يجسر على الخطابة قبل التروي والتملّي في موضوعه ، لأنه يخشى نقد السامعين لخطبته » (١) .

وكان الغالب في العرب أنهم يلقون خطبهم على البديهة ارتجالًا ، ومع هذا فقد كان تحضير الخطبة موجودًا فيهم ، وكذلك الشأن في الشعر ، حيث كان من كبار شعرائهم وخطبائهم من لا يُقبل على القول دون إعداد سابق .

قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يَدَع القصيدة تمكث عنده حولًا كَرِيتًا (٢) ، وزمنًا طويلًا ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه ، اتهامًا لعقله ، وتتبعًا على نفسه ، فيجعل عقله زمامًا على رأيه ، ورأيه عيارًا على شعره ، إشفاقًا على أدبه ، وإحرازًا لما خوله الله تعالى من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوْليات ، والمقلَّدات ، والمنقّحات ، والمحَكّمات ليصير قائلها فحلًا خِنْذيذا (٣) وشاعرًا مُفْلِقًا » (٤) .

وقال البُعيث الشاعر ـ وكان أخطب الناس :

إني والله ما أرسل الكلام قضيبًا (٥) خشيبًا (٦) ، وما أريد أن أخطب يوم

---

(1) فن الخطابة ، د/ أحمد الحوفي . ص ١٨٦ ـ ١٨٧ باختصار .

(2) سنة كَريت ، وحَوْل كَريت : تام العدد ، وكذلك اليوم والشهر ، المعجم الوسيط ٢/ ٨١٣ .

(3) الخِنذيذ من الشعراء : الشاعر المجيد المنقِّح ، والخطيب البليغ المفوَّه ، السابق ١/ ٢٦٧.

(4) البيان والتبيين ٢/ ٦ ، ومعنى « مُفلِقًا » أي : حاذقًا ، وفي المعجم الوسيط (٢/ ٧٢٧) : أفلق الشاعرُ : أتى بما يُعجِب في شعره ، فهو مُفْلِق .

(5) اقتضب الكلام : تكلم به على غير إعداد وتهيئة ، المعجم الوسيط ٢/ ٧٧٠ .

(6) يقال : خشَب الشِّعرَ أو الكلامَ أو العملَ ، أي : لم يتأنّق فيه ولم يتقنه ، السابق ٢/ ٢٤٣ بتصرف .

حفل إلا بالبائت المحكَّك [١] .

قالوا : وأرادوا عبد الله بن وهب الراسبيَّ على الكلام يوم عَقدت له الخوارج الرياسة ، فقال : « وما أنا والرأي الفطير [٢] والكلام القضيب ، ولما فرغوا من البَيْعة له قال : « دعوا الرأي يغِبّ [٣] فإن غُبوبه يكشف لكم عن مَحْضه » .

وقيل لابن التوأم الرقّاشيّ : تكلم ، فقال : « ما أشتهي الخبز إلا بائتًا » [٤] .

وقد أخبر عمر بن الخطاب أنه في يوم السقيفة ــ حين مبايعة أبي بكر بالخلافة ـ قد عزم على أن يقول كلامًا كان قد أعدّه وجهّزه سلفًا ، وفي هذا يقول : « فلما سكت ـ يعني خطيبَ الأنصار ــ أردْت أن أتكلم ، وقد زوّرتُ [٥] في نفسي مقالة قد أعجبتني لأريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر ... » إلخ كلامه [٦] .

فهذه الأقوال والمواقف ، تفصح عما للإعداد من قيمة وتقدير في نفوس أولئك الخطباء والشعراء البلغاء .

---

(1) أي : لا يتكلم إلا بكلام سبق له إعمال الذهن وإجراء التفكير فيه ، قبل أن يصبح في الحفل .

(2) الفطير : كل ما أُعجِل به قبل نضجه ، ويقال : رأي فطير ، أي خطر بالبال وأُبْدي بلا تثبت ، المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٠ .

(3) أي يبقى زمنًا يقلب فيه الرأي ويردد فيه النظر ، ليقال بعد أناة ورويّة .

(4) البيان والتبيين ١/ ٢٠٤ـ ٢٠٥ .

(5) زوّر الكلام في نفسه : هيّأه وأعده ، المعجم الوسيط ١/ ٤٢١ .

(6) السيرة النبوية ٢/ ٦٥٩ .

ثم إن إعداد الخطبة وتحضيرها لا ينقص من قدر الخطيب ، وإنما الذي ينقص من قدره أن لا يجيد في خطبته ، ويهجم على الموضوع من غير علم ولا استعداد ، فيُضطر لأن يقول كلامًا تافهًا ، فارغًا من أي مضمون ، ليملأ به الوقت وكفى .

بل إن الإعداد يُثري حصيلته ومعلوماته ، ويزيده ثقة في نفسه .

وهو دليل على تقدير الخطيب للمسؤولية الملقاة على عاتقه ، ودليل تقديره واحترامه لجمهوره .

وإن الخطيب الذي لا يقدر هذا الأمر ، ويغتر بثناء الناس عليه في بعض المواقف ، ويتجرأ باستمرار على الإقدام على الحديث والمشافهة من غير تحضير وتحديد لما سيتحدث فيه مسبقًا ؛ سرعان ما يفقد احترامه لدى جمهوره ، وينفضّ الناس من حوله .

أحوال يلزم فيها التحضير والإعداد

ثم إن هناك حالات بعينها لا بد فيها من التحضير والإعداد للموضوع بشكل جيد ، ومن ذلك :

إذا كان الخطيب مبتدئا فهو أحوج الناس إلى الإعداد والتحضير ، فإذا كان حريصًا على طرد الخوف ، والتخلص من التهيب من مواجهة الجمهور ، وحريصًا على أن يحوز على أكبر قدر من الثقة والثبات ، وقوة الشخصية ، فإن حاجته إلى التحضير أشد من حاجة غيره إليه ، وإن إقدامه على الحديث مهمِلًا التحضير لَهُو لَوْن من القتل البطيء لمقدرته الخطابية ، وأجدر أن يُعرِّضه لفقد الطمأنينة والثقة ، أثناء مخاطبة الجمهور .

وكذلك الخطيب الذي يريد أن يخطب في موضوع ليس له به علم سابق ، ولا معرفة تامة بجوانبه ، لا بد له أيضا من التحضير ، وإلا فهو كساعٍ إلى ميدان الحرب دون سلاح .

وقد يوجَد الخطيب في بيئة معاندة مخاصمة تتلمس له الهفوات والأخطاء ويتتبعون زلاته ليجعلوا منها مادة للنقد والهجوم عليه ، فمثل هذا الخطيب لا غنى له كذلك عن التحضير الجيد لموضوعه ، كي يفوّت الفرصة على خصومه، ويتفادى هجومهم عليه وانتقادهم له .

وقد يعمد الخطيب إلى تناول موضوع غريب على جمهوره ، خارج عما يألفون ، فعليه في هذه الحال أن يستعد بالتحضير ، ويتسلح بالإعداد الجيد ، حتى يتمكن من الإقناع والاستمالة ، ويأمن منازعةَ الجمهور له .

ثم إن هناك مواقف بعينها لا يصلح فيها إلا الإعداد والتحضير بعناية فائقة، مثل : الخطب القضائية التي لا بد فيها من الرجوع إلى نصوص القانون أو الدستور ، ودراسة القضية محل المرافعة دراسة واعية تامة ، ومثل الخطب السياسية ، خاصة ما كان منها يشتمل على بنود ونصوص ملزمة كالمعاهدات والاتفاقيات ونحوها ، « وكان سعد زغلول مع قدرته على الارتجال ، وعظيم إلمامه بما يقول ؛ يكتب خطبه إذا كانت رسمية أو شبه رسمية ، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة إلى ما لا يريد أن يقيد نفسه به »[1] .

فكل تلك الحالات وأشباهها مما يدعو الخطيب ويحتم عليه أن يهتم بإعداد

(1) الخطابة ، أبو زهرة . ص١٣٨ .

موضوعه ، وتحضيره بشكل جيد .

وحقًا ما يقوله الأستاذ البهي الخولي : « لابد للخطيب الذي يحترم نفسه ويقدر واجبه ، أن يعرف ما سيقول ، لابد أن يعد لموقفه مادته من الأفكار والخواطر المناسبة ، وأن يهيئها في نفسه ، وأن يجيلها في ذهنه أكثر من مرة فإذا وقف الداعية ليتكلم ؛ وقف وهو رابط الجأش ، ثابت النظرات ، مالك لزمام نفسه وزمام موضوعه، مستندًا إلى ما أعد من ذخيرة ، فإذا فُتح له في موقفه عن جديد من الخواطر والمعاني فبها ونعمت ، وإلا فحسبه أن ينفق مما لديه » [١] .

ولعلنا نلحظ الآن ضعفًا باديًا لدى كثير من الخطباء في مجال الدعوة الإسلامية ، وما هذا إلا لأن كثيرًا منهم يهملون في إعداد الخطبة ، ولا يهتمون بتحضيرها على الوجه اللائق بها ، فلا عجب أن غدت الخطابة والحالة هذه في وضع لا تحسد عليه ، وأمست شاحبة هزيلة شكلًا ومضمونًا .

طرق التحضير

وللتحضير طرق مختلفة ، وصور متعددة ، وقد ذكر الأستاذ الشيخ أبو زهرة من هذه الطرق ستًا ، نشير إليها موجزة على النحو التالي [٢] :

١ ـ فمن الخطباء من يكتفي في تحضيره بدراسة الموضوع دراسة تامة ، ثم جمع عناصره في خاطره ، وترتيبها بينه وبين نفسه ، ويستحضر الألفاظ اللائقة بالمقام ، والعبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية الذي اندرج في سلك الخطباء ، ويظهر أن خطباء العرب كان

---

(1) تذكرة الدعاة . ص ٢٦٧.

(2) راجع الخطابة . ص١٣٩ـ ١٤٢.

على هذه الشاكلة .

٢ـ ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيئ معاني الخطبة ، ويرتبها ترتيبًا محكمًا ، ثم يكتب عناصرها وأجزاءها في مذكرة يستصحبها عند الخطبة لتكون مرجعًا له وضابطًا ، ولِيحفظ المعاني والأفكار من أن تضيع بضلال الذاكرة ، وذلك النوع من الخطباء كثير ، وهي كسابقتها لا يتجه إليها إلا الخطباء الذين مرنوا على القول ، يتجهون إليها من غير قصد ، بل بمقتضى الإلف والاعتياد ، ولكنها تمتاز عن سابقتها :

أ ـ بأنها تفيد ضعيف الذاكرة ولا يحتاج إليها قوي الذاكرة .

ب ـ وبأنها تَحسُن إذا كانت الخطبة طويلة ، جمعًا لأشتاتها ولكيلا يقع في التكرار الممل .

٣ـ ومن الخطباء من يطّلع على الموضوع ، ويدرسه بعناية ، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع في غرفة انفرد فيها ، أو في مكان خلويّ ، أو يتكلم على بعض الناس ، وعندي أن هذه الطريقة يعمد إليها من يريد أن يربيَ في نفسه طريقة إلقاء خاصة ، ويمرن عليها حتى تصير له ملكة وعادة .

٤ـ ومن الخطباء من يكتب الخطبة ، ويتحرى في الكتابة أبلغ الأساليب التي توصله إلى غايته ، وتؤدي به إلى ما يريد ، ويُحكِم معانيَها ، ويحمّلها كل ما يبغي من وسائل التأثير ، وطرق الإقناع التي يصوبها نحو هدفه ، وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مرارًا، وينقحه في كل مرة وبهذه القراءة التي يتحرى بها جودة الإلقاء ، وحسن النطق ، تعلق معاني الخطبة مرتبة الترتيب التام بذاكرته ، ويحفظ كثيرًا من ألفاظها وعباراتها ، وهذه الطريقة يتّبعها كثير من المحامين في القضايا ذات

الشأن ، التي تحتاج إلى تحضير كبير ، وجمع لعدة نصوص قانونية ، أو عبارات جاءت على ألسنة الشهود .

٥ـ ومن الخطباء من يكتبون خطبهم ويحسنون تحبيرها ، ثم يحفظونها حفظًا تامًا ، ومنهم من يتحلل أحيانًا مما حفظ ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ، ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئًا .

٦ـ ومن الناس من يكتب الخطبة ثم يلقيها بالقراءة في القرطاس الذي كتبها فيه ، وأكثر المحاضرين في موضوعات علمية في مصر على هذه الطريقة ، ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيبًا أم محاضرًا أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه ، وعند الإلقاء يجتهد في أن يلقيَ بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب ، ليكون في ذلك تجديد في الإلقاء ، وأن يكون في قراءته مشرفًا على السامعين بنظره وقتًا بعد آخر ، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة قبل الإلقاء .

ثم يقول الشيخ أبو زهرة : والطريقة المثلى لطالب الخطابة :

١ـ أن يبتدئ بكتابة الخطبة وإلقائها كما حفظ .

٢ـ ثم يأخذ بالتغيير شيئًا فشيئًا فيما حفظ ، حتى إذا شدا في الخطابة وتقدم في المران عليها ، كتب الخطبة ، وعُنِي بأن تعلق كل معانيها بقلبه ، وأكثر ألفاظها بذاكرته ، ثم يتقدم لإلقائها ، وقد تحصن بذلك التحضير .

٣ـ فإذا صارت له الخطابة ملكة وعُدّ في صفوف الخطباء ، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة وافية ، ثم كتب العناصر ، أم لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية ،

أو كانت الخطبة قصيرة ، لا عناصر لها ، وألقى الخطبة مكتفيًا بذلك التحضير الذي يعد أقل أنواعه كلفة ، ولا يكتفي به إلا أعظم الخطباء قدرة (١) .

الارتجال

للارتجال معنيان ؛ أوّلهما ـ وهو ما أقصده هنا ـ : إلقاء الخطبة على البداهة ، دون إعداد سابق أو تحضير سالف .

ويرى البعض ـ وهو المعنى الثاني ـ أن الارتجال هو إلقاء الخطبة من الذاكرة بدون ورقة ، مع الإعداد لها مسبقًا ، فهو ارتجال الألفاظ لا ارتجال المعاني والأفكار (٢) .

وإذا كان الأصل هو أن يُعِدّ الخطيب خطبته ، ويحضّرها سلفًا ؛ فإنه لا غنى له عن أن يجيد الارتجال ليستطيع الحديث إذا ما دعت للكلام حاجة ، بل إن بعض العلماء يرى أن المرء لا يكون جديرًا بأن يكون خطيبًا جيدًا إذا لم يُجِد الارتجال ، فيقول الشيخ أبو زهرة : « القدرة على الارتجال ألزم الصفات للخطيب ، بل لا يعَد الخطيب ـ في نظري ـ في صف الخطباء الممتازين إلا إذا كان من القادرين عليه ، الذين لا يفرق الإنسان بين أسلوبهم المرتجَل وأسلوب خطبهم المحضَّرة » (٣) .

---

(1) السابق ، ص ١٤٢ .

(2) ممن يقول بالمعنى الأول : الشيخ أبو زهرة في كتابه (الخطابة) ص ١٣٩ ، د/ أحمد الحوفي في كتابه (فن الخطابة) ص١٨٥ ، وممن يقول بالثاني : الشيخ البهي الخولي في كتابه (تذكرة الدعاة) ص٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، د/ عبد الغفار عزيز في كتابه (الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق) ص ١٧٠ .

(3) الخطابة . ص ١٤٢ .

بعض الأحوال الملجِئة إلى الارتجال :

والواقع أن هناك أحوالًا ومناسبات يضطر الخطيب فيها إلى الارتجال :

فقد يستدعي المقام من الخطيب أن يغير الموضوع الذي قد أعده وحضّره، لطروء حدث ما .

وقد يفاجأ الخطيب بأنه لابد أن يخطب لغياب الخطيب الأصليّ الذي كان منوطًا به الكلام ، أو مدعوًّا للمحاضرة .

وقد يفاجأ الخطيب بعد انتهاء خطبته بالاعتراض والنقد لما طرحه من آراء ، وما عرضه من أفكار ، فلا مفر له حينئذٍ من التعقيب على منتقديه ، وإبطالِ حججهم ، والانتصارِ لما يرى أنه الحق وتأييدِه والدفاعِ عنه .

وقد يفاجأ الخطيب بمن يقاطعه في أثناء خطبته ، فيجد نفسه مضطرًا للرد عليه ، ثم العودة إلى ما كان يتحدث فيه ، فلو لم تكن لديه قدرة على الارتجال وحسن التعامل مع المقاطعة التي قد تُلجئ إلى الخروج عن الموضوع ، لَتعلثَم ولأُرْتج عليه ، وربما نسي ما كان يتحدث فيه من كلام سابق ، أما إذا كانت لديه قدرة على الارتجال ، فإنه يستطيع التخلص في ثبات من غير أن ينسى صدر كلامه .

ولذلك استحسنوا من الخطيب أن يكون ذَكورا لأول خطبته إذا اضطُر إلى الارتجال خارج الموضوع لداعٍ يدعو إليه ، وأنه يستطيع التعامل مع الطارئ الجديد بما يتناسب معه ، دون أن يؤثر هذا على وصْل حديثه اللاحق بكلامه السابق .

قال الجاحظ : وأنشد أبو عبيدة في الخطيب يطُول كلامُه ، ويكون ذكورًا لأول خطبته ، والذي بنى عليه أمرَه ، وإن شغَب شاغِبٌ فقطع عليه كلامه ،

أو حدث عند ذلك حدثٌ يحتاج فيه إلى تدبيرٍ آخر، وصَل الثاني من كلامه بالأول، حتى لا يكون أحدُ كلاميه أجودَ من الآخر ، فأنشد :

وإن أحدثوا شَغْبًا يقطّع نَظْمَها   فإنك وَصّال لما قَطَع الشَّغْب
ولو كنتَ نسّاجًا سدَدَتَ خَصاصَها   بقول كطعم الشهد مازَجَه العذْب[١]

ومع أننا لا ننصح للخطيب بترك الإعداد والتحضير قدر المستطاع ؛ إلا أننا ننصح له بأن يدرّب نفسه على الارتجال ، وأن يكون جاهزًا ، إذا دعت إليه الضرورة ، مع الأخذ في الاعتبار أنه لابد له من سَعة الثقافة والإطلاع ، والاستكثار من الحصيلة الأدبية ، فما لم يكن الخطيب ذا ثقافة واسعة ، وزادٍ علميٍّ وثروةٍ أدبية ؛ فلن يفلح في الارتجال ، وسيكون مثارًا للاستهانة بقدْره ، وإن استطاع أن يستر موقفه عند الضرورة ، فلن يستطيع أن يخدم رسالته ، ويفيد قضيّته ، إذ « المسألة ليست مسألةَ سترِ الموقف أو عدمِ ستره ، فالداعية بصدد رسالة ذات أهداف ، فهل أصاب أهدافه أم لا ؟ وهل حقق المهمة التي يدور عليها الكلام ، أو ستر موقفه وسكت ؟ »[٢] .

من هنا كان لابد للخطيب الداعية أن يتمرن على الارتجال حتى إذا ما اضطر إليه أدّى خير أداء ، وحقق الإقناع والاستمالة .

أمور تعين على إجادة الارتجال

هذا ؛ ويتربى الارتجال عند الخطيب ـ كما يقرر الشيخ أبو زهرة ـ بما يأتي[٣]:

---

(1) البيان والتبيين ١/ ٢١٥، والخَصَاص جمع خَصَاصة ، وهي الفُرْجة أو الخلل أو الخَرْق ، المعجم الوسيط ١/ ٢٤٦.

(2) تذكرة الدعاة . ص ٢٦٧ .

(3) الخطابة ، أبو زهرة . ص ١٤٤ .

١ـ بسماع الخطباء المرتجلين الممتازين ؛ لأن السماع يحفز من عنده استعداد الكلام إليه ، ولأن فكر البشر يتغذى بالتقليد والمحاكاة .

٢ـ وبأن يأخذ نفسه من وقت لآخر بالكلام مرتجلًا ، ويغشى الجماعات ويتقدم إلى القول ، ليفُكّ عقدة لسانه ، ويُزيل حُبْسة الحياء ، ويرى موريس آجام أن تمرين مريد الخطابة على الارتجال بأن يتكلم كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه ، ولو ربع ساعة ، فيتمرن جَرْسُه وصوته .

٣ـ ومن أمثل الطرق أن يجتهد في أن لا يخطب من ورق ، وأن يعرف ملخص ما يقول بعد تحضيره ، فإذا دأب على ذلك وواتته فرصة قوية ، واستعداد قويم ؛ قوِيَ على البداهة من غير تحضير عند الاقتضاء .

٤ـ وعلى مريد الخطابة أن يستنصح رفيقًا له يدله على عيوبه ، كما أن عليه أن يراقب نفسه مراقبة تامة ، ويأخذ نفسه بالإصلاح ، ولا يترك عادة لا تُستحسَن تثبت وتنمو ، وعليه أن لا يتقيد بعبارات خاصة ، وإلا أثار سخرية الناس ومكّن خصومَه من العبث بسمعته البيانية . أهـ .

ونضيف إلى هذه الوسائل ما سبق أن أكدنا عليه ، وهو ضرورة الإكثار من الإطلاع والاغتراف من بحور الثقافة وروافدها المختلفة ، مع تنمية الثروة اللغوية والأدبية ، حتى يكون لديه مخزون علميّ ينفق منه ، ويُسعِفه إذا قام يخطب مرتجلًا .

مراحل تكوين الخطبة وإعدادها

ولإعداد الخطبة وتكوينها مراحل تمر بها ، حتى تستويَ على عودها ،

وتصل إلى مرحلة الإلقاء على الجمهور ، وهذه المراحل قد تتكون بروية ومهل ، وتجهيز وتهيئة ، وفي إمعان وتفكير ، كما هو الحال في الإعداد والتحضير ، وإما أن لا تستغرق هذه المراحل وقتًا ، ولا يتاح لها فرصة الإعداد والتهيئة ، فتتكون في سرعة حالَ وجود ما يدعو إلى الخطبة ، كما هو الشأن في الخطب الارتجالية .

ونقطة البداية في تكوين أية خطبة لابد أن تنطلق من اختيار الموضوع ، وتحديد القضية أو المشكلة التي سيتحدث فيها الخطيب .

وبعد أن يستقر الخطيب على اختيار الموضوع ، يبدأ في إعمال فكره ، وتقليب رأيه في جوانب الموضوع المختار ، ويأخذ في رسم معالمه ، ووضع الخطوط العريضة له وتحديد الأفكار الرئيسة ، وما يندرج تحتها من أفكار فرعية ، وهذه مرحلة تقسيم الموضوع إلى عناصر .

ثم إن الخطيب بحاجة إلى خدمة هذه العناصر وتدعيمها بالمادة العلمية ، والأدلة المناسبة ، حتى لا يقول كلامًا مرسلًا يفتقر إلى الحجة ، ومن هنا تجيء المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة إعداد المادة وجمع الأدلة العلمية .

وبعد هذا يراجع الخطيب ما جمعه من مادة ويجعل كل دليل في موقع الفكرة التي يخدمها ، ثم ينسق الخطبة ويحدد أجزاءها وما يتضمنه كلُّ جزء من أفكار وأدلة ، وهذه هي مرحلة التنسيق .

ثم في الختام يصل إلى قمة تكوين الخطبة وثمرة الإعداد وهو صياغة الخطبة والتعبير عنها في أسلوب خطابي .

وعلى هذا فمراحل تكوين الخطبة وإعدادها خمس ، وهي :

أ ـ اختيار الموضوع .

ب ـ تقسيمه إلى عناصر .

ج ـ جمع الأدلة والمادة العلمية .

د ـ التنسيق .

هـ ـ التعبير والصوغ الخطابي .

ولْنأخذ في تفصيل هذا الإجمال ، وذلك على النحو التالي :

أ ـ اختيار الموضوع

وهذه بداية المراحل لتكوين الخطبة ، وربما يُظَن للوهلة الأولى بأنها مرحلة لا تحتاج إلى كبير جهد ، أو أنها أيسر المراحل ؛ ولكن بالنظرة المتأنية ، يتبين أن الأمر خلاف ذلك ، وأنها مرحلة تحتاج إلى عناية فائقة ، وجهد كبير ، كي يكون الموضوع جديرًا بما سيُبذَل فيه من جهود بعد ذلك ، حتى يصل إلى مرحلة التعبير والصوغ الخطابي .

واختيار الموضوع لا يتم عفويًا ، كيفما اتفق ، ولكن يجب على الخطيب أن يعلم أنه ليس كل موضوع يخطر بباله يكون أهلًا لأن يخطب فيه .

ومن هنا يجدر بالخطيب الداعية عند اختيار موضوع خطبته أن يراعي أمورًا، منها :

١ ـ أن يكون الموضوع مناسبًا لأحوال المستمعين وبيئتهم ، ومراعيا للمشكلات التي تشغلهم ، وتكون محلَّ اهتمامهم ، وأن يكون مناسبًا لمستوى

عقولهم وتفكيرهم .

وهذا يتطلب من الخطيب أن يكون على إلمام بواقع الجمهور والبيئة ، كي يتمكن من اختيار الموضوع الذي يكون مناسبًا لهم، ومرتبطًا بحياتهم وواقعهم.

ولا يكفي أن الموضوع ينال إعجاب الخطيب ، ويحوز اهتمامه ، فقد يكون كذلك ؛ ولكنه لا يناسب المخاطبين .

فمثلًا : الحديث عن الإنفاق وإيتاء الزكاة أمر مهم ، لكنه لا يكون الأنسبَ إذا ألقاه الخطيب على قوم فقراء معدمين ، لا يكادون يجدون قوت يومهم ، وكان الأولى أن يحدثهم عن الأخذ بالأسباب ، والعمل والجدّ في تحصيل الرزق، والأمل في الله تعالى بأن يجعل من بعد عسر يسرًا .

والحديث عن الرجاء في عفو الله تعالى ، وسَعة رحمته سبحانه ومغفرته ، أمر في غاية الأهمية ، ولكنه لا يكون مناسبًا حين يوجَّه إلى ملأ من المقصرين ، المهمِلين في أداء الطاعات والعبادات ، قاسية قلوبهم ، متحجرة عن البكاء من خشية الله عيونهم ، والأنسب أن يلهب الخطيب ظهورهم بسوط الخوف من عذاب الله وعقابه ، وبطشه وانتقامه ، وعن سوء مآل المقصرين والمذنبين .

٢ـ أن يكون الموضوع بعيدًا عن إثارة الخلاف بين المسلمين ، فعلى الخطيب أن يعلم أنه مُجَمِّع لا مُفرِّق ، وموحِّد للصفوف لا مُشتِّت .

لذا يجب أن يحرص الحرص كلَّه على أن تخلوَ خطبته من أي إثارة للفتنة والفُرقة بين المسلمين ، مثْل أن يتبنى رأيا فقهيا معينا في قضية خلافية ،

ويتعصبَ له ، ويذمَّ مخالفيه وينال منهم ، ما يجعل الموقف مشحونًا بين الفريق المؤيد والمعارض ، وهذا بدوره يؤدي إلى تنافر وتنازع ، وتدابر وتخاصم بين المسلمين ، وكذلك ينبغي أن تخلو الخطبة من إثارة صراع قد خمد بين فريقين في الحي أو في القرية أو البلدة ، فتقوم الفتنة وترفع رأسها من جديد ، وقد نامت ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها [١] .

يوجد بعض الخطباء لا يراعون هذا الأمر ؛ فترى أحدهم يجعل خطبته حول ضرورة التمسك بقول : « سيدنا محمد » ، عند قول المؤذّن في الأذان : « أشهد أن محمدًا رسول الله » ، وآخرَ لا يتبنى إلا الموضوعات الفرعيةَ التي تثير اختلافًا وفرقة ، مثل التحدث عن حرمة التصوير الفوتوغرافي الذي هو عبارة عن حبس ظل الشيء ، وثالثًا يركز في خطَبه على الخلافات الفقهية ، ويحمل بشدة على من لا يوافقه ، كالحديث ـ بتعصّب مذموم ـ عن وجوب ستر الوجه والكفين للمرأة ، أو عدم وجوب ذلك .. وهكذا .

٣ـ أن يعالِج الموضوع أمرًا مُعتبَرا في ميزان الشريعة الإسلامية ، ويعود على المسلمين بالنفع .

فلا يحسن من الخطيب أن يعمَد إلى اختيار موضوعات بعيدة عن دائرة اهتمام الشرع ، ولا هي مما ينبني عليه عمل ، بل أحيانا تكون عارية تمامًا عن أي نفع لجمهور المسلمين .

حدث أن خطب أحد الخطباء ، وكان موضوع الخطبة ـ في نظري ـ عجبًا ،

---

(1) إرشادات عامة لتحسين خطبة الجمعة . د/ محمد عبد القادر أبو فارس . ص٣٤ بتصرف . دار الفرقان ، عمان ، الأردن .

وهو أن والدَي النبي ﷺ في النار ـ بزعم الخطيب ـ وأن هذا أمر لا شك فيه ، وأخذ يحشد الأدلة والبراهين على أنهما من أصحاب النار !!

مع أن هذه مسألة ـ فيما أرى ـ العلمُ بها لا ينفع ، والجهلُ بها لا يضر .

كما أنها ليست من فرائض الإسلام ولا من سننه ، ولم يتعبدنا الله ﷻ بمعرفتها .

فضلًا عن أن الأدلة التي يتشدق بها هؤلاء المساكينُ ليست قطعية الدلالة ، وكلُّها يتطرق إليها الاحتمال ، وهي ساقطة بما يَنقضها ويُبطلها .

ثم إن هذه المسألةَ ليست مما أجمعت عليه الأمة .

ومع هذا يقف أحدهم ليقول بملء شدقيه : « إنهما في النار ، وإن كان هذا يحزننا » !!

ولست أدري لم هذا الإصرار على الحكم بأنهما في النار ، والانشغال بهذا الأمر وإشغال المسلمين به ؟!

وقد كان أولى بهؤلاء النفر أن ينشغلوا بالمسلمين الذين يهوون في النار ، ويندفعون إليها بمعاصيهم ، وأن يفكروا في كيفية استنقاذهم منها ، ومن الغزو الفكري الذي يوردهم مواردها ، ويريد أن يجتالهم عن دينهم .

ونحن نسأل هذا الخطيب وأمثاله ممن يثيرون هذه الموضوعات : بربك ماذا يستفيد المسلمون من هذا الموضوع وأمثاله في معاشهم ومعادهم ؟!

٤ ـ وعند اختيار الموضوع يفضّل مراعاة المناسبة الزمنية ، وأن لا يكون بعيدا عنها ، فلا يحسن مثلًا أن تكون المناسبة غزوة بدر ، ثم يختارَ الخطيب

موضوعه عن الإسراء والمعراج .

ومما يتصل بهذا الأمر ؛ أن يلاحظ الخطيب الأحداث الآنيّة والوقتية ، والوقائع الجارية المعاصرة ، ويحاولَ توظيفها ، ويستخلص منها الموضوعات لخطبه ، بما يعود على المستمعين بالفائدة .

فهناك أحداث كثيرة تقع ، وهي تحمل في طياتها عبرًا بالغة ، ودروسًا نافعة ، ويستطيع الخطيب بملاحظتها ودقة تأملها ؛ أن يهتدي إليها ، ويفيد منها جمهوره ، مثلما يفعل مع حوادث التاريخ الماضية .

حدث ذات مرة أن كنت ذاهبًا لصلاة الجمعة وقرأت في صحف الصباح يومها أن زلزالًا عنيفًا ضرب إحدى المناطق في إيران ــ وكان هذا في أول التسعينيات من القرن العشرين ـ ، وراح ضحيتَه ما يزيد على مائة ألف نسمة ، وقد جاء في الخبر أن الناس لقوا حتفهم بينما كان عاكفين على متابعة مباراة لكرة القدم في التلفزيون ، وأذكر أنني جعلت هذا الحدَثَ موضوعَ الخطبة الثانية للجمعة يومها ، وذكرتُ للناس كيف أن الموت يداهم الإنسان في أي وقت ، فلنستعد ، وأن الإنسان عليه أن يبتعد عن المعاصي ، فربما جاءه الموت وهو متلبس بالمعصية ، وساعتها سيلقى الله وهو على شرّ حال ، وفرْقٌ بين إنسان يأتيه الموت وهو عاكف على طاعة الله ، وبين آخر يداهمه الموت وهو غارق في لهوه وغفلته ، فليشمِّر المسلم عن ساعد الجِد ، وليبادر بالتوبة إلى الله وعمل الصالحات ، ويترك التسويف ، فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر .

وأخيرًا ننصح الخطيب بأن يفكر جيدًا في تحضير موضوعه ، وأن يحدده

بعناية قبل مدة كافية من إلقائه ، وإذا ضربنا مثلًا بخطبة الجمعة ؛ فلا يؤجل اختيار الموضوع إلى نهاية الأسبوع ، أي حتى يدخل عليه يومُ الجمعة ، ولكن في مطلع الأسبوع ، قبل يوم الجمعة بستة أيام أو خمسة على الأقل ، حتى يتاح له أن يدرسه من جميع جوانبه ، وأن يأخذ بجميع الأسباب التي تثري الخطبةَ ذاتَ الموضوع المقترح ، وينشغل به طيلة الأسبوع حتى يأتيَ موعد إلقائه وقد استوى على سوقه كأحسن ما يكون .

ب ـ تقسيم الموضوع إلى عناصر

وبعد الاستقرار على الموضوع ؛ يشرع الخطيب في تقسيمه إلى نقاط أو عناصر أو أفكار رئيسة .

وهذه الخطوة مهمة ؛ حيث توضح له مساره في خطبته ، وتضع له خطوطًا يسير عليها في تناول موضوعه ، وبدون هذه الخطوة سيكون تناول الخطيب لموضوعه أشبهَ بمن يمشي على طريق بدون أمارات أو معالم واضحة ، وسيضيع منه جهد كبير من غير إفادة له وللمخاطبين ، بالإضافة إلى أن تحديد العناصر يسهّل له المهمة التالية وهي اختيار الأدلة ، وجمع المادة العلمية ، ويعينه على معرفة المصادر التي سوف ينهلُ منها .

وينبغي مراعاة أن تكون العناصر كلها في إطار الموضوع ، وأن تتصل به اتصالًا مباشرًا ، فإذا كانت العناصر كذلك ساعدت على تحقيق الوحدة الموضوعية للخطبة ، وهذا من أهم عوامل نجاحها ، وأما إذا كانت العناصر ليست ذاتَ اتصالٍ مباشر بالموضوع ، أو خرج بعضها عن الموضوع ؛ سيقع الخطيب في الاستطراد والحشو الذي لا يليق بالخطبة ، وسيُفقِدها هذا صفة

الوَحْدة الموضوعية ، وهذا عيب كبير يجب التحرز منه ، والتنزّه عنه .

ولْيحرصِ الخطيب عند تقسيم الموضوع إلى عناصر ؛ أن تكون العناصر متسلسلة يسلم بعضها إلى بعض ، وكل عنصر يكون بمثابة تمهيد لما بعده ، وغيرَ منفصل عما قبله ، حتى يصل إلى النتيجة التي يريدها على خير وجه ، فإذا كان ضمن عناصره أنه سيتناول أسباب ظاهرة ما ثم علاجها ، فالأمر الطبيعي أن تكون الأسباب مقدَّمة على العلاج ، ولا يكون مناسبًا أن يتحدث عن علاج المرض قبل الحديث عن أسباب حدوثه ، وهكذا .

ثم إن العناصر الرئيسة تتفرع عنها أفكار فرعية ، فكل عنصر تحته مجموعة من الأفكار تعالجه ، وتلقي الضوء عليه .

ولْيحذر الخطيب من تكرار الأفكار والعناصر ، وكلما كان التغاير والتمايز واضحًا بين كل عنصر وآخر ؛ كلما كانت المعالم أوضحَ ، وكانت السلامة من الاستطراد والحشو أرجى ، وإذا رأى تداخلًا بين عنصر وآخر أدغمهما معا ، حتى يصفوَ له التمايزُ بين العناصر ، ويتجافى عن التكرار .

ولْنُنزِّل هذا الكلامَ على مثال فنقول :

هَب أنك أردتَ أن تجعل خطبتك عن مشكلة اجتماعية ، وحدّدت الموضوع مثلًا عن ظاهرة اغتصاب النساء التي تقع أحيانا في بعض مجتمعاتنا ، فعليك أن تقسم موضوعك إلى عناصر أساسية تتفرع عنها أفكار ثانوية أو فرعية ، ويمكن أن يكون التقسيم كالآتي :

العنصر الأول : مفهوم الاغتصاب ومدلوله ، وحكمه في الشريعة الإسلامية :

وتحت هذا العنصر سوف تتطرق إلى تعريف الاغتصاب ، وخاصة من

خلال الواقع ، بأنه عبارة عن زنا بالإكراه ، ثم تأتي بنصوص من القرآن والسنة تبين من خلالها حُكمَه ، ثم تنتقل إلى ذكر الإجماع على هذا التحريم .

العنصر الثاني : أسباب وقوع هذه الظاهرة في المجتمع الآن :

وتحت هذا العنصر سوف تعدد أسبابها وتبين أنها كثيرة ، ومتنوعة ولا يتحملها طرف واحد ، بل أطراف عدة ، وربما يكون منها نفس الضحية المغتصبة ، ومنها مثلًا لا حصرًا :

١ـ عدم التربية الإسلامية للنشء والشباب .

٢ـ التبرج الصارخ ، والعري الفاضح من كثير من النساء .

٣ـ عدم التزام كثير من وسائل الإعلام بتهذيب الغرائز ، وإشاعة جو الفضيلة .

٤ـ الاختلاط المستهتر بين الرجال والنساء دون التزام بضوابط الشريعة الإسلامية .

٥ـ عدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وخاصة في مجال الحدود .

٦ـ ترويج أعدائنا لمفاهيم الحضارة الغربية المادية الجاهلية ، فيما يتصل بالأخلاق وغيرها بين الشباب المسلم بوسائل شتى .

٧ـ وضع العراقيل في وجه كثير من الشباب الراغبين في الزواج والاستعفاف .

العنصر الثالث : كيف السبيل إلى العلاج :

وتحته ستذكر الأسباب الكفيلة بوقاية المجتمع المسلم من هذه الظاهرة

وأمثالها ، ومنها على سبيل المثال :

١ــ الاهتمام بتربية النشء والشباب تربية إسلامية ، وإتاحة الفرص والأعمال النافعة التي توَجَّه فيها طاقاتُهم نحو الخير والبناء .

٢ـ تجنيب الشباب ووقايتهم من كل ما من شأنه أن يثير غرائزهم .

٣ـ توجيه وسائل الإعلام نحو تهذيب الغرائز ، والدعوة إلى الفضائل ، ومحاربة الرذائل .

٤ـ عدم الاختلاط المستهتر بين الجنسين .

٥ـ على من بيدهم الأمر ؛ حكامًا كانوا أم آباء ، أم مسئولين ، الوقوف بكل حزم في وجه التبرج ، وإلزام المرأة بما ألزمها الله به من التستر والحجاب .

٦ـ تطبيق الشريعة الإسلامية ، وخاصة في مجال الحدود ، والضرب بقوة على أيدي ذئاب البشر ، ولصوص الأعراض .

٧ـ تيسير سبل الزواج أمام الشباب والشابات .

٨ـ مواجهة التيارات التغريبية التي تعمل على انهيار الأخلاق بين فئات المسلمين المختلفة ، وسد المنافذ أمامها .

هذا، وقد لا يكون في مقدور الخطيب أن يحدد عناصر الموضوع، لكونه جديدًا عليه، أو أن يكون الخطيب مبتدئًا، فهو خالي الذهن عن هذا الموضوع، فهنا ننصح بأن يطالع حول الموضوع ويقرأ عنه، ويحاولَ الإلمام به والتعرف عليه، وبعد هذا ستتضح له دروب الموضوع، وتتكشف أمامه جوانبه، وفي هذه الحال يأخذ في تقسيمه إلى عناصر، تمهيدًا للمرحلة التالية، وهي:

ج ـ جمع الأدلة والمادة العلمية

وبعد اختيار الموضوع وتقسيمه إلى عناصر على النحو السابق ، تأتي مرحلةُ البحثِ والتنقيبِ عن الأدلة ، وجمعِ المادة العلمية التي تغطي جوانب الموضوع المختلفة ، وتحمل الأدلة على العناصر والأفكار التي تتضمنها .

وهي مرحلة مهمة تترك آثارها على الخطبة بالإيجاب أو السلب ، فإذا اكتنفها جهد مناسب من الخطيب ، وتَكلَّل هذا الجهدُ بالظفر بمادة علمية ثرية تخدم الموضوع وتعالجه المعالجة المناسبة ؛ كان هذا وسيلة صالحة فعالة في إنجاح الخطبة ، وتدعيم موقف الخطيب ، أما إذا لم ينشط الخطيب في الجمع والبحث ، وقنِع باليسير من الأدلة والمعلومات التي لا تكفي لتشييد بنيان الموضوع ، وبلوغ الصرح العلمي للخطبة تمامَه ، جاءت الخطبة هزيلة تفتقر عناصرها إلى الدعم ، وقضاياها إلى التأييد .

وشتان بين خطيب غزير المادة ، كثير المعلومات ، فهو ينفق بسخاء مما جمعه من علم ، ويصول كالأسد بما حشده من أدلة ، ويقف كالطود الراسخ ، تغمره مشاعر الثقة ، وبين خطيب آخر ، ليس عنده ما ينفق منه ، وجُلّ همه أن تنتهي الخطبة ، ويقولَ للناس ما يشغل به الوقت وكفى ، فهو موقفه مهزوز ، وحجته ضعيفة ، ومضمون كلامه خالٍ من الفائدة ، شتان بينهما شتان .

من هنا لزم أن يهتم الخطيب كل الاهتمام بجمع الأدلة وتحصيل مادة موضوعه ، وخاصة إذا كان الموضوع جديدًا عليه ، أو كان جديدًا على الجمهور ، وغيرَ مألوف لهم ، أو كان له خصوم يعارضونه ويتبعون زلاته ، أو كان الموضوع من الأمور التي تعرضت للتشويه واللبس من قبل جهات

أو أجهزة ما ، وكاد الناس أن يتشبعوا بالآراء الخاطئة ، كما هو الحال في كثير من الموضوعات والقضايا التي تناولتها وسائل الإعلام المعاكسة للدعوة الإسلامية بالتلبيس وتزييف الحقائق ، حتى خفي عن كثير من الناس وجه الصواب فيها ، ووقعوا فريسة تضليل تلك الوسائل المعادية [1] ، فإذا تصدى الخطيب لموضوع من هذا القبيل كان عليه أن يعتني به عناية خاصة ، ولا يني ولا يمل من البحث والتنقيب في المراجع والمصادر العلمية ، عن كل ما يثبت قضيته ، ويفند شبهات خصومه ، حتى يفلح في رد الناس إلى جادة الصواب ، واستنقاذهم من الزيغ والضلال .

وأنصح للخطيب ــ المبتدئ خاصةً ــ عند جمع المادة العلمية المتعلقة بالموضوع ؛ بأن لا يقتصر على ما له صلة مباشرة بموضوع الخطبة فقط ، بل عليه أن يجمع كل ما يتصل به من قريب أو بعيد ، ثم يقومَ بتنقيحه بعد ذلك ، فقد يُهمِل معلومة بحجة أنها لا تتصل مباشرة بالموضوع ، ثم يبدو له بعد ذلك أنها مناسبة للموضوع ، فيحاولُ أن يحصل عليها مرة ثانية فلا يفلح ؛ ولَأن يَجمعَ الخطيب مادة ثم يتركَها في الخطبة ؛ أهون من أن يتركها ثم يطلبها فلا يعثر عليها .

ثم إن ما يجمعه الخطيب من معلومات لن يكون لمصلحة الخطبة فقط ، إنما سيضاف إلى رصيده المعرفيِّ ومخزونه العلميِّ ، الذي لابد له من الحرص على

---

(1) من هذه الموضوعات على سبيل المثال : تطبيق الشريعة الإسلامية ، وما يتصل بالمرأة مثل الحجاب ، والتبرج والاختلاط ، والعمل ، وتعدد الزوجات ، وموضوع تحديد النسل ، وكذا القومية والوطنية والحرية ، وغيرها .

زيادته وتنميته باستمرار .

ثم إن هناك أمرًا مهمًّا أيضًا ، وهو أن ما يجمعه من بعض المعلومات ، وإن لم يستخدمه في الخطب ة لسبب أو لآخر ، إلا أنه سيزيد من قناعته بالموضوع ، وتبلوره في ذهنه ، وإحاطته به ، ما سيضفي عليه الثقة عند إلقائه ، ويقوِّي الرغبة في إيصاله للجمهور ، فيجعل الخطبة نابضة بالحرارة والحماسة وقوة العاطفة ، ويصنع جسورًا من التواصل بين الخطيب وبين الجمهور ، ويعبّد طريقًا يصل الكلامُ من خلاله إلى قلوبهم .

هذا ، وأهم مصادر الخطيب الداعية ، وعلى رأسها : القرآن الكريم ، فليوثّق به صلته وليبحث عن أدلة لموضوعاته منه ، وهناك بعض الكتب تسعفه وتساعده في الوصول إلى الآيات التي لها صلة بموضوعه من القرآن المجيد ، مثل : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ، ومعجم الموضوعات والأعلام في القرآن الكريم لعبد الصبور مرزوق ، ثم يرجع بعد ذلك إلى كتب التفسير للوقوف على تفسير الآيات التي يستشهد بها، وأسباب النزول وغير ذلك مما يتصل بالآيات .

ومن مصادره كذلك كتب السنة النبوية وشروحها ، وكتب الفقه والسيرة ، والتاريخ ، وكتب الفكر الإسلامي ، وكتب الثقافة العامة ، وبالجملة كل ما يسهم في إمداده بما يؤيد به موضوعه ، أو يدفع به شبهات خصومه .

وعلى أي حال فإن طبيعة الموضوع ، وعناصرَه وأفكارَه هي التي تؤثّر بالدرجة الأولى في تحديد نوعية المصادر والمراجع التي ينهل منها الخطيب

لإعداد موضوعه ، وتحضير مادته العلمية ، وهذا أمر لا يغيب عن فطنة الخطيب .

ولْيحرصِ الخطيب على أن ينتقيَ الأدلة القوية المقنعة ، والمعلومة المباشرة ، والحجة البالغة ، والأساليب المؤثرة ، والتي يجيء على رأسها ، آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، فإن للاستدلال بهما أكبرَ الأثر في نفس المستمع ، خاصة إذا سيق النص في موضعه الملائم .

ومن الأدلة المؤثرة بالنسبة للخطيب حوادث التاريخ ومواقف رجاله ، وأقوال الحكماء ، ومأثورات السلف ، ومن الأساليب البليغة المحركة للعواطف والميول أسلوب الترغيب والترهيب ، أو الوعد والوعيد ، وأسلوب ضرب الأمثال ، وكذا الأشعار .

ولا يَنْسَ الخطيب أقوى الأساليب تأثيرًا وجذبًا للجمهور ، وهو الأسلوب القَصصيّ ، ومن المحاذير التي يجب التنبه إليها بخصوص القصة ؛ أن بعض الخطباء يريد إعجاب جمهور العامة بالقَصص ، فيكثر من إيرادها ، حتى تتحول الخطبة إلى رواية أقاصيص ، والمؤسف أن بعض الخطباء ، يركض خلف الإسرائيليات الهابطة الفارغة ، ويجعلها بضاعته تملقًا للعامة واسترضاء لهم ، وهذا من أفحش الخطأ ، فليعلم الخطيب أن الواجب عليه أن يرقى بالناس ، ويرتفع بمستواهم ، لا أن يهبطوا هم به ، وإن عنده من القصص الحق في القرآن الكريم والسنة ، وكتب السيرة والتاريخ ، ووقائع الزمان ، وحوادث الأيام ، ما يغني عن اللجوء إلى الأباطيل والخرافات .

د ـ التنسيق

وبإتمام المراحل الثلاث السابقة يكون الخطيب قد قطع شوطًا كبيرًا في إقامة هيكل الخطبة ، وتشييد بنيانها ، والآن يأتي دور العملِ التطبيقيِّ لما بذله من جهد ، تمهيدًا للمرحلة الختامية وهي مرحلة التعبير والصوغ الخطابي .

وهنا يقوم الخطيب بترتيب ما جمعه ، وإلحاق كل دليل وكل معلومة بعنصرها ، وتحديد ملامح الخطبة ، وتفصيل أجزائها وإعداد محتوياتها ، وهذه هي مرحلة التنسيق .

والتنسيق في اللغة : التنظيم والترتيب [١] .

وفي الاصطلاح : تنظيمُ معاني الخطبة ، وسياقُ أجزائها ، وذكرُ أدلتها [٢] .

فهو يقوم بترتيب أجزاء الخطبة ، وجعلِ كلِّ جزء في مكانه ، وسردِهِ على نحو معين .

ولْنتحدث عن هذه الأجزاءِ وما يتعلق بها ، وذلك على النحو التالي :

أجزاء الخطبة

درج علماء الخطابة المحدَثون على تقسيم الخطبة إلى ثلاثة أجزاء ، هي : المقدمة ، والإثبات أو العَرْض ، ثم الخاتمة [٣] .

وقد كان للقدماء رؤية أخرى خاصةٌ لأجزاء الخطبة ومحتوياتها ، حسب أزمنتهم وبيئاتهم ، « وقد أطلق أرسطو على كل جزء من أجزاء الخطبة لفظ

---

(1) راجع المعجم الوسيط ٢/ ٩٥٥ .

(2) فن الخطابة ، علي محفوظ ص ٥٩ .

(3) راجع الخطابة للشيخ علي محفوظ . ص ٥١ ، والخطابة للشيخ أبي زهرة ص٩٥ .

(الاقتصاص) وبين كيف أن هذا الاقتصاص أي التجزيء والتقطيع يرتبط بعضه ببعض ، وقد أطلق على الاقتصاص الأول أي الجزء الأول : (الصدر)، والجزء الثاني: (العرْض) ، والثالث: (الاقتصاص)، والرابع : (التصديق) ، والخامس : (الخاتمة) » [1] .

والواقع أنه ليس كل الخطب تتضمن تلك الأجزاءَ الثلاثةَ التي قررها المحدَثون ، وهي : المقدمة والعرض والخاتمة ، فبعض الخطب موجز يُكتفَى فيه بعرض الموضوع أو الفكرة فقط دون اللجوء إلى مقدمة أو خاتمة ، وأحيانًا تتضمن الخطبةُ العرْضَ مع الخاتمة ، لكن هذا ـ فيما أرى ـ استثناء ، أما الأصل فهو اشتمال الخطبة على الأجزاء الثلاثة في تنسيق بديع وترتيب محكم ، وخاصة الخطبَ الطويلة ، والمسهبة ، والمحاضرات ونحوها .

ولْنتحدث عن كل جزء من الأجزاء بشيء من التفصيل :

١ـ المقدمة

مقدمة الخطبة هي **أول** أجزائها ، وهي بداية ما يطرق سمعَ الجمهور ، وأول ما يَستهل به الخطيب خطبته ، فإذا كانت تتسم ببراعة الاستهلال ، وروعة الافتتاح ؛ كانت رسول خير إلى قلب المستمع ، وسبيلًا إلى جذبه نحو الخطبة ، وإنصاته للخطيب ، وتهيئة نفسه للاقتناع والاستمالة إذا انتقل إلى عرْض موضوعه ، أما إذا فقدت المقدمة خصائصها ، ومقوماتها التي تجعلها أهلًا للقبول ، وتكسوها بهاء ، لم يأنس منها المستمع ارتياحًا ، ولم تستطع أن تشده

(1) الخطابة الدينية . د/ عبد الغفار عزيز . ص١٧٥ ، نقلًا عن تلخيص الخطابة لابن رشد . ص٣٠٧ .

نحو الخطيب .

وكم من خطيب نجح في مقدمته فملك أزمّة القلوب ، وسلُس له قياد النفوس ، ونشأت جسور من الوُدّ بينه وبين الجمهور ، فأقبلوا عليه بمشاعر الحب ، ونظروا إليه بعين الرضا ، وولج بهم إلى موضوعه بهذه الحال الطيبة ، وكم من خطيب جانَبَه التوفيق في مقدمته ، فساء ظنُّ الجمهور به وبموضوعه .

وقد ذكر العلماء أن المقدمة الناجحة تشتمل على ثلاثة عناصر أساسية :

أولها ـ وأهم شيء ينبغي أن تتضمنه ـ هو: حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال.

ثانيها : بيان المقصد .

وثالثها : تقسيم الخطاب .

والخطيب الداعية لابد أن يفتتح خطبته بحمد الله والصلاة والسلام على الرسول ﷺ ، مهما كان مجال الخطبة ، سواء أكانت حفلية ، أم سياسية ، أم وعظًا وإرشادًا دينيًا ، أم غير ذلك ، إقتداءً بالنبي ﷺ الذي كان لا يدع هذا في افتتاح خطبه [(1)] ، وعلى هذا الهدْي سار السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وقد ذكر الجاحظ أن خطباء السلف الطيب ، وأهلَ البيان من التابعين

---

(1) قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ في هديه ﷺ في خطبته ـ : « وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله . وأما قول كثير من الفقهاء : إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار ، وخطبةَ العيدين بالتكبير ؛ فليس معهم فيه سنة عن النبي ﷺ البتةَ ، وسنّتُه ﷺ تقتضي خلافَه ، وهو افتتاحُ جميعِ الخطب بـ (الحمد لله) » . زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ١٨٦، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط السادسة والعشرون ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

بإحسان ، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تُبْتَدأْ بالتحميد ، وتستفتحْ بالتمجيد : « البتراء » ، ويسمون التي لم تُوشَّح بالقرآن ، وتزيَّنْ بالصلاة على النبي ﷺ : « الشوهاء » .

وخطب أعرابي فلما أعجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ، قال : أما بعد ، بغير ملالة لذكر الله ، ولا إيثارِ غيرِه عليه ؛ فإنا نقول كذا ، ونسأل كذا ، فرارًا من أن تكون خطبته بتراء أو شوهاء (١) .

ومن براعة الاستهلال أن يبتعد عن التنفير أو التعسير ، كمن استهل كلامه بقوله : لا بشرى ؛ ولكن بشريان .

كما ينبغي أن يتجنب استهلالَ المقدمة بما لا يتناسب مع طبيعة المقام والمناسبة ، فليس من التوفيق بحال أن يقف خطيب ـ مثلًا ـ في خُطبة زواج ، ويُضمِّنَ مقدمتَه قولَ الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، فأين هذا الافتتاح مما هو فيه ؟!

وينبغي أن لا يكون الافتتاح طويلًا ، ولا مبتذَلًا ، لا تستسيغه الأفهام .

وهناك آراء مختلفة في أفضل طرق الافتتاح ، والواقع أن أفضلها يعود إلى حسن تصرف الخطيب ، وجودة تقديره لما يتطلبه المقام .

وبعد حسن الافتتاح يُومِئ الخطيب إلى بيان مقصده ، ويشير إلى موضوعه الذي سيطرقه مجملًا بدون تفصيل « بعبارة جامعة جلية موجزة ، لتكون كالعنوان للكتاب ، ولبيان المقصد عند العرب أسماء أخرى ، وقد يسمونه

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٦.

بالسِّمَة ، وهي عنوان الخطاب ليكون عند السامع إجمالُ ما يفصِّله الخطيب بعد » (1) .

ومن البلاغة أن يكون صدْر الكلام دالًّا على ما بعده ، فقد سُئل ابن المقفع ما البلاغة ؟ فكان مما أجاب به أن قال :

« وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعْتَ صدْرَه عرفْتَ قافيته (كأنه يقول : فرِّق بين صدر خُطبة النكاح ، وبين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة التواهب)(2) ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدْرٌ يدل على عَجُزِه ، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك ، ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذي إليه قصدتَ ، والغرض الذي إليه نزعْتَ (3) .

وينبغي أن يكون بيانُ الخطيب لمقصده، وذكرُه لموضوعه مُصاغًا في عبارات أنيقة مثيرة جذابة ، متَّسمًا بالوضوح في أسلوبه ، بعيدًا عن الغموض ، كما ينبغي أن يسوقه ضمن قضية عامة ، أو قاعدة مقررة ، سواء أكانت نصًّا قرآنيًّا أم نبويًّا ، أم عبارة سائرة من منقوله أو إنشائه ، فإذا كان موضوعه ـ مثلًا ـ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ؛ ذكر في مقدمته قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(1) فن الخطابة . على محفوظ . ص٥٤ .

(2) ما بين القوسين تعليق للجاحظ على كلام ابن المقفع .

وتواهبَ الناسُ: وهبَ بعضُهم بعضا، سواءٌ أكان مالا أمْ حقوقا، كأن يعفوَ بعضهم عن بعض، ويتنازلوا عن كلّ الدِّماء التي سالت بينهم في حروب أو ثارات.

(3) البيان والتبيين ١/ ١١٦ .

وإذا كان يريد التحدث عن الظلم ، ذكر في مقدمته قول الله تعالى ـ في الحديث القدسي الشريف ـ : « **يا عبادي إني حَرّمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا** »[1] .

« هذا ؛ وليس بلازم أن يُذكَر المقصد دائمًا ، بل قد يوجب المقام إهماله ، وذلك إذا أراد الخطيب أن يستدرج السامعين إلى ما يريد أن يأخذهم به ، ولو صَرَّح لهم به لنأوا عنه وقاطعوه ، ففي مثل هذه الحال يجب أن يأخذهم في رفق إلى ما يريد ، من غير أن يصرِّح بمقصده ، حتى يبلغ الخطيب غايته ، من تهيئة النفوس لتلقيه »[2] .

وإذا كانت الخطبة طويلة أو متشعبة ؛ عمَد الخطيب إلى ذكر عناصرها وأجزائها متسلسلة مرتبة ، وموجزة ، على النسق الذي سيتناولها به في وضوح ، وتميّز لكل عنصر عن الآخر ، دون تداخل أو تكرار .

هَبْ ـ مثلًا ـ أن موضوع الخطبة أو المحاضرة سيكون في ظاهرة ما يسمى « بالتطرف الديني » ، فيمكن أن يعمد الخطيب بعد الاستفتاح وبيان المقصد إلى تقسيم موضوعه من البداية ، كأن يقول :

وسوف يكون بمشيئة الله تعالى حديثنا عن هذا الموضوع الهام حول أربعة عناصر أساسية ، تندرج تحتها أخرى فرعية ، على النحو التالي :

أ ـ مفهوم التطرف الديني ، وموقف الإسلام منه .

---

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، ك البر ، ب تحريم الظلم ، مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٣١ رقم ٢٥٧٧ ، من رواية أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(2) الخطابة . أبو زهرة . ص ١٠٢ باختصار .

ب ـ مظاهر التطرف الديني وصوره .

ج ـ أسباب التطرف الديني .

د ـ علاج هذه الظاهرة .

ويلاحظ في هذا التقسيم ما يأتي :

١ـ أنه وضح لا غموض فيه .

٢ـ التباين والتمايز بين كل عنصر وآخر .

٣ـ التسلسل المنطقي ، والترتيب الطبيعي ، فكل عنصر متصل بما قبله ، مُسلم لما بعده .

٤ـ وهذا بدوره جعل العناصر مترابطة ليس بينها انفصام ، ينتقل الخطيب من العنصر إلى ما بعده بسلاسة ورفق .

٥ـ شمولها لسائر جوانب الموضوع (تقريبًا) .

٦ـ أنه موجَز لا إسهاب فيه ، ومع وجازته قد سلم من الإخلال .

٧ـ اقتصاره على ما له صلة مباشرة بالموضوع .

فهذه الملاحظات والضوابط ، ينبغي مراعاتها في تقسيم أي موضوع ، وعند الإشارة إليه في المقدمة .

وقد تأملتُ في بعض قَصص القرآن الكريم ، فوجدته قد اهتم بالمقدمة ، ووجدت هذه المقدمات تشتمل على حسن الافتتاح ، والإشارة إلى الموضوع ، وذكر إيجاز له ، ثم الشروع في العرْض والإثبات بعد المقدمة .

ومن هذا القبيل حديث القرآن الكريم عن قصة أهل الكهف ؛ فقد جعل الله تعالى مقدمة قبل الشروع في القصة ، وكانت المقدمة ـ فيما يظهر لي ـ على النحو التالي :

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا ﴾ .

[الكهف : ٩]

فهذه الآية اشتملت على عنصريْ حسن الافتتاح : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ والإشارة للموضوع : ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ .

ثم جاء ملخَّصٌ للقصة كلها في عبارات موجزة هي قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف:١٠ـ ١٢] .

وبعد هذه المقدمة الشائقة ، ينتقل القرآن إلى عرض القصة ، وذكر أحداثها : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣] إلخ الآيات .

هذا ، وهناك أخطاء ـ فيما يتعلق بالمقدمة ـ قد يقع فيها بعض الخطباء :

ومن هذه الأخطاء : أن لا يكون للمقدمة صلة بالموضوع الذي سيتحدث فيه ، فبعضهم ـ على سبيل المثال ـ يعمد إلى مقدمة أو عدد من المقدمات ذاتِ السجع المتكلَّف ، فيحفظها ، ويحرص على تصدير أيّةِ خطبة بها ، سواء أكانت ذات صلة بالموضوع أم لا .

ومن الأخطاء في هذا الصدد أيضًا : إطالةُ المقدمة ، وشَغلُها حَيِّزًا زمنيًا أكثر مما تستحق بكثير ، وأذكر أنني صليت الجمعة مع أحد الخطباء ، وقد اسغرقت المقدمة نحوًا من عشر دقائق ، مع أن خطبتَه جميعَها لم تتجاوز خمسا وعشرين دقيقة ، فضلًا عن أنها لم تكن جذابة ولا مُمَهِّدة للموضوع ، ولا مُفْصِحة عنه ، ولا مجْمِلة لمقاصده ، فكانت مللًا في ملل .

فينبغي أن يكون حجم المقدمة متناسقًا مع حجم الموضوع وزمنِه ، وإذا تأمل بعض الخطباء حجم المقدمة بالنسبة للزمن الإجمالي للخطبة لوجد أن مقدمته تستغرق ربع الوقت ، وأحيانًا ثلثه ، وهذا ـ بلا شك ـ خلل في التنسيق بين أجزاء الخطبة ، يهبط بمستواها ويقلل من فائدتها ، ويستنفد طاقة كلٍّ من الخطيب والمستمع قبل الوصول إلى عرْض الموضوع ومضمونه .

وإذا كان بعض الخطب لا يستدعي الأمرُ اشتمال مقدمتها على عناصرها الثلاثة ، فيُستغنَى عن بعضها ، فإن هناك عنصرًا لا يمكن الاستغناء عنه بحال في أيّةِ مقدمة ، وهو حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال .

٢ـ عرض الموضوع

وهذا الجزء هو أهم أجزاءِ الخطبة ومكوِّناتِها ، ولا يمكن الاستغناء عنه ـ إن جاز الاستغناء عن أحد الأجزاء الأخرى ـ بل ما وُجِدت الأجزاء الأخرى من مقدمة وخاتمة إلا لخدمته ، وتعميقه وتثبيته في نفوس السامعين .

والموضوع هو المشكلة أو القضية التي يريد الخطيب التحدث عنها ، مستهدِفا إقناعَ الجمهور بها واستمالتَهم نحوها ، وبقدر ما يكون الخطيب مُعِدًّا لموضوعه الإعدادَ اللائقَ به ، ومرتِّبا له ، ومستحضِرًا لمادته العلمية وأدلته

المثْبِتةِ له ، الداحضةِ لما يناقضه ، ولمن يعارضه ؛ بقدر ما يتوفر هذا ونحوه ؛ يكون تحقيق النجاح للخطيب في مهمته ، مع الأخذ في الاعتبار أمرًا على جانب كبير من الأهمية، له دور خطير في نجاح الخطيب ، ألا وهو سعة ثقافة الخطيب، وكثرة حصيلته العلمية والأدبية ، وتوافر مقوماته الفنية .

من عوامل النجاح في عرض الموضوع

وعلى الخطيب أن يحشد كل إمكانياته وطاقاته ، وأن يأخذ بجميع الأسباب الممكنة للنجاح في عرض الموضوع ، ومن هذه الأسباب :

أ ـ الوَحدة الموضوعية ، ونقصد بها : أن يلتزم الخطيب في عرضه بموضوع الخطبة ؛ فلا يُكثِر من الاستطرادات ، أو يَخرج عن الموضوع بالحديث فيما لا صلة له به، أو يتناول في الخطبة الواحدة عددا من الموضوعات دون رابط بينها.

وهذا من الأمور التي لا يليق بالخطيب أن يهملها ، كما يحدث من بعض الخطباء ـ مع الأسف ـ حينما لا يراعون الوَحدة الموضوعيةَ في خطبهم ، فيعود هذا بالآثار الضارة على الخطبة ، حيث لا يتمكنون ـ في حال تناولهم لأكثر من موضوع في الخطبة الواحدة ـ من خدمة الخطبة بالأدلة الكافية التي تَلْزَمها ، فيهبط مستواها في نظر الجمهور ، وكذلك قد يتورطون في الإطالة المملة التي تكاد تفقد الحاضرين من الجمهور أعصابهم ، لاسيما وهم يشعرون بعدم الفائدة وعدم الراحة ، من كثرة ما ينتقل الخطيب من موضوع إلى آخر ، ونحو هذا من الآثار ، التي لا تخدم الخطبة ، فليحرص الخطيب على الالتزام بالوحدة الموضوعية وليبتعد عن الحشو والاستطراد ، وكل ما لا صلة له بموضوعه .

ب ـ ترتيب عناصر الموضوع ترتيبًا محكمًا متناسقًا : بحيث تكون متسلسلة متتابعة ، يسلم كل عنصر إلى الآخر ، ويكون بمثابة التمهيد لما بعده ، مع الارتباط بما قبله ، ولْيقسِّم موضوعه إلى عناصر أساسية ، تتفرع عنها أو تندرج تحتها أفكار فرعية ، فيعرض كل عنصر بأفكاره وتفصيلاته، ثم ينتقل إلى غيره ، وهكذا يسير في عرضه سيْرا حسنًا رفيقًا ، حتى ينتهيَ الموضوع نهايته الطبيعية ، ويصلَ بالجمهور إلى النتيجة التي يريدها ويقررها .

ج ـ حشد الأدلة التي يدعم بها موضوعه ، ويخدم بها عناصره وأفكاره ، كي يصل إلى غرضه ومطلوبه .

وينبغي أن تسير الأدلة في اتجاهين :

الأول : اتجاه يثبت الموضوع ويؤيده .

الثاني : اتجاه يفند آراء المعترضين ـ إن وجدت ، أو كانت متوقَّعة ـ .

والأدلة في عمومها ترجع إلى قسمين :

الأول : أدلة عقلية برهانية ، تعتمد على الإقناع العقلي .

الثاني : أدلة وجدانية ، تعتمد على إثارة المشاعر والانفعال والأهواء والميول.

ولْيتجنب الخطيب الإكثار من الأدلة والأقيسة الجافة ، فهذه لا تجذب عامة الجمهور ، ولْيعلم أن الموقف الخطابيَّ يعتمد على إثارة العواطف والمشاعر أكثر من الإقناع أو البرهان العقليّ .

« يروي (جوستاف لوبون) حادثة طريفة ملخصها : أنه رأى وقت حصار

باريس جمهورًا يسوق قائدًا عظيمًا من قواد الجيش إلى مقر الحكومة ، والناس حوله أكداس ، يزمجرون ويتميزون من الغيظ ، ويتهمونه بأنه باع للبروسيين رسمَ معقلٍ فرنسيٍّ ، فلما وصلوا إلى قصر اللوفر ، خرج أحد أعضاء الحكومة ـ وكان خطيبًا ذائع الصيت ـ ليخطب في هذا الجمع الهائج ، المطالب بإعدام هذا القائد الخائن ، وكان المنتظر منه أن يبرهن على بطلان الاتهام بقوله: « إن القائد المتهم أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون ، وأن رسومها تباع في باريس في المكتبات ، غير أن (جوستاف لوبون) بُهِت إذ سمعه يقول : « سيَقتصّ منه العدلُ قصاصًا لا رحمة فيه ، فاتركوا حكومة الدفاع تُتِمّ التحقيق الذي بدأتموه ، وستزجّه في السجن حتى حين » فسكنت الثورة ، وتفرق الجمع ، وبعد ربع ساعة كان القائد في بيته ، ولو أن الخطيب دافع عن المتهم بأدلة منطقية لمزقه الجمع إِرْبًا »(1) .

ولا نقصد أن تخلو الخطبة من البراهين والأدلة المنطقية ، وإنما نقصد أن لا يطغَى هذا النوعُ من الاستدلال ، بل ينبغي إفساح المجال للأدلة الأخرى الأكثر جذبًا وتشويقًا لدى الجمهور ، مثل القصة ، سواء أكانت من القصص القرآنيّ ، أم النبويّ ، أم قصة تاريخية ، أم من واقع الجماعة التي يخاطبها ، والبيئة التي يعيشها ، أم كانت قصة مفترَضة متخيَّلة ، ومثل ضرب الأمثال وإيرادها ، ومثل الأدلة التي تخاطب الوجدان وتستميل الأهواء كأساليب الترغيب والترهيب ، أو الوعد والوعيد ، أو التصوير البليغ الذي يصف أمرًا

---

(1) فن الخطابة. د/ أحمد الحوفي ص ١٢٨، نقلًا عن روح الاجتماع . غوستاف لوبون . ص١٤٢.

ما وصفًا يوحي بالميل إليه أو بكراهيته ، كتصوير الحسد ، وتجسيد حقيقته البغيضة وآثاره المدمرة الخطيرة ، بما يبعث على النفور منه ، وكتصوير الألفة والوَحدة وآثارهما العظيمة النافعة بما يثير الوجدان ، ويحرك المشاعر ، ويحمل المخاطَبين على الحفاظ عليهما والتخلق بهما .

د ـ **أن يكون الموضوع واضحًا في ألفاظه** ، مجانِبًا للتعقيد في عباراته ، بعيدًا عن الغموض في كلماته ، فإن الخطيب إذا حشا موضوعه بما لا يفهمه السامع ، ضاع مجهوده سدى ، وذهب تعبه أدراج الرياح ، وحيل بينه وبين ما يشتهي من استمالة الجمهور وإقناعه ، فهيهات أن يتأثر الناس بما لم يفهموه ، ويقتنعوا بما لم يعرفوه ويتصوروه .

٣ ـ الخاتمة

وإذا كانت المقدمة لها أهميتها لأنها أول ما يطرق سمع المخاطب ، فإن كانت تتسم بالجودة والإتقان أسهمت في جذبه ، وتهيئة نفسه للإقبال على الخطيب والخطبة ـ كما سبق ؛ إذا كان هذا شأنَ المقدمة ، فكذلك الشأن مع الخاتمة من حيث الأهمية ، إذ إنها آخر ما يطرق سمعَ المخاطب ، ويَعْلُق بذهنه ، فإذا كانت جيدة متقَنة ، أسهمت في تثبيت الموضوع في قلبه ووجدانه ، وساعدت في الوصول إلى الهدف المبتغَى من وراء الخطبة .

لذلك يجب الحرص على تدبيجها والاعتناء بها وبمضمونها ، وعلى الخطيب أن يُعِدّ لها ، ويعرف مسبقًا ماذا سيكون في محتواها ، تمامًا كما يُعِدّ لصلب موضوعه .

ولكي تكون الخاتمة ناجحة ، ينبغي مراعاة الآتي :

أ ـ أن تكون واضحة المعاني ، ليس فيها غموض أو لبس .

ب ـ أن تشتمل على موجَز لما ألقاه الخطيب من أفكار ، وما توصل إليه من نتائج ؛ فلربما يكون الجمهور قد تعرض لنسيان أجزاء من الخطبة ، بسبب كونها جديدة عليه ، أو لأي اعتبار آخر .

ج ـ أن لا تتضمن أفكارا جديدة ؛ فإنها حينئذٍ تكون امتدادًا للموضوع وعنصرًا من عناصره ، وليست خاتمة له .

د ـ أن تكون الخاتمة متصلة بالموضوع ، وأن تكون مُركَّزة ومختصَرة قدر الإمكان .

هـ ـ أن تكون الخاتمة قوية؛ لأنها ـ كما أشرنا ـ آخر ما يطرق سمع المخاطب، فتحمل توكيدًا لرأي الخطيب ، وتكسوها مشاعر الثقة بأن ما ذهب إليه من آراء ، وما يحث المستمعين على قبوله هو الصواب ، وهو الحق الذي لا يحتمل الجدال ، وأن الخير في اتباع ما يدعو إليه من تعاليم الإسلام ، والهلاك في مخالفته .

و ـ وليحرص الخطيب على أن يكون إلقاء الخاتمة حيّا نابضًا بالحرارة ، مليئا بالتحمّس ، خاليًا من الفتور ، ليتناسب هذا مع قوتها ، ومع ثقته في آرائه ، ولأن إلقاءها على هذا النحو من الحيوية ، يأتي في وقت يمكن أن يتسرب الملل فيه إلى المخاطبين ، فيكون هذا الإلقاء الحيّ أدعى لتنبيه أذهانهم ، وإثارة انفعالهم .

ز ـ أن لا تكون مفاجئة ، وأن لا تكون جافة ، بل سلسة وجذابة ، ومثيرة

للعواطف .

ح ـ ثم ليكن آخر كلامه بعض العبارات الرقيقة ، أو الألفاظ البهية الأنيقة، ليتهيأ له حسن الختام ، كما تهيأ له من قبل حسن الافتتاح .

هـ ـ التعبير والصوغ الخطابي

وهذه آخر مرحلة في إعداد الخطبة وتكوينها ، وفيها يقوم الخطيب بصياغة ألفاظ خطبته وتعبيراته ، وعرضها على الجمهور ، في أسلوب خَطابيّ يتّسِم بالإقناع والاستمالة .

والخطبة تعتمد في نقلها إلى الجمهور على جانبين أساسين ، وتنجح بقدر جودتهما :

أولهما : جانب الأداء ؛ وهو ما يتعلق بالإلقاء ومقوِّماته ، وقد سبق الكلام عنه عند الحديث عن فن الإلقاء .

وثانيهما : جانب المضمون ، وهو ما يتعلق بحديثنا هنا عن التعبير والصوغ الخطابي .

أمور يلزم مراعاتها لحسن صياغة وجودة مضمون الخطبة

وهناك أمور تجدر مراعاتها لتكون الخطبة ذاتَ مضمون جيد ، وأسلوب بليغ ، وصياغة راقية ، ومنها ما يأتي :

١ ـ وضوح الألفاظ ، وخلوُّها من الغموض والتعقيد :

ومراعاة هذا الأمر في أسلوب الخطبة وصياغتها على جانب كبير من الأهمية، فينبغي أن لا يستخدم الخطيب ألفاظًا غير معروفة لجمهور

المخاطبين ، مثل استخدام « التبر » بدلًا من الذهب ، وكمن يريد أن يقول : إن هذا الأمر جدير بالملاحظة ، فيقول : إن هذا الأمر قمين بالملاحظة ، وكمن يقرأ بيتًا من الشعر يحتوي على ألفاظ غير مفهومة ، ولا يقوم بتوضيحها للمخاطبين .

ومما يتصل بهذا أيضا : إصرار بعض ذوي التخصصات العلمية على استخدام تعبيرات في خطبهم ليست متداولة خارج إطار تلك التخصصات ، أو أن يعمد الخطيب إلى نقل كلام لأحدهم يتضمن بعض العبارات التخصصية ، وينطقها كما هي على الناس الذين لا يفهمون مدلولاتها ، ولا معانيها ، فتقطع متابعتهم له ، وتفاعلهم معه .

هذا ؛ ولأنّ خطيب المسجد يتحدث إلى جمهور متفاوت في ثقافته وتعليمه واستيعابه ، فإن عليه مهمةً خطيرة وليست هينة ، وهي أن يُفهِم الجميع ، ويحاولَ التحدث بلغة واضحة للجميع ، ولكي يصل إلى هذا الغرض يتحتم عليه أن يتجنب الألفاظ التي لا يعرفها إلا المثقفون ، حتى لا يضيع مَن دونهم، كما يتحتم عليه أن يجتنب الألفاظ المبتذَلة ، حتى لا ينفر منه المثقفون ، ولكن يلتزم الوسطية ، فيتخير ألفاظًا فصيحة ، وهي في ذات الوقت سهلة الفهم على غير المتعلمين من العوام ، وإذا شعر أن اللفظ به شيء من الغموض على بعض فئات الحاضرين ، عمد إلى شرحه وتفسيره وبيانه .

والحمد لله فإن اللغة العربية غنية بكثرة مترادفاتها ، وإكثارُ الخطيب من القراءة في كتب الأدب يُنشِئ لديه ثروة أدبية ، ويثري حصيلته اللغوية ، فيتمكن من البراعة والاقتدار على تخير ما يشاء ، وما يناسب من العبارات

والألفاظ .

ويشير بعض العلماء إلى ملاحظة في هذا الخصوص ، وهي : « أن العامة وناشئة المتعلمين يفهمون المعاني الإجمالية رغم أن بعض الجمل والعبارات تخفَى عليهم ، ومن هنا كان التكرار والإلحاح على المعنى الواحد بعبارات مختلفة له أهميته ، فمن خفيت عليه جملة بينتْها الأخرى » (١) .

وأود أن أؤكد للخطيب على أمر هام ، وهو أن لا تحملَه الرغبة في وضوح الأسلوب وخلوِّ تعبيره من الغموض على أن تكون الألفاظ مبتذَلة ، نازلة المستوى « فيذهب رواءُ الخطبة ، ويضيع جلال معانيها ، كاستعمال لفظ « أتعشم » في موضع أرجو وآمل وأطمع ، وكاستعمال لفظ « أفْتكر » في موضع أتفكر ، أو أفكر أو أتأمل ، أو أذكر ، ونحو ذلك من الألفاظ العامية أو المبتذلة القريبة منها ، التي شاع استعمالها على ألسنة بعض خطبائنا خطأ » (٢) .

فعليه أن يختار ألفاظ خطبته بعناية كبيرة ، فتكون ألفاظًا مهذبة فصيحة ، يسمعها الجمهور فيزداد توقيرًا للخطب ، وإكبارًا له .

٢ـ مراعاة آداب الكلام :

وقد ذكر الإمام الماوردي بعض الآداب التي يجب توافرها في كلام المتكلم ، حَريٌّ بالخطيب أن يضعها في الاعتبار ، نوردها هنا لأهميتها ، قال رحمه الله (٣) :

واعلم أن للكلام آدابًا إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه ، وطمس بهجة

---

(1) الخطابة . د/ عبد الجليل شلبي . ص٢٣.

(2) الخطابة . أبو زهرة . ص ١٢٧.

(3) أدب الدنيا والدين . ص ٢٣٩ ـ ٢٤٣ باختصار .

بيانه ، ولها الناسَ عن محاسن فضله بمساوئ أدبه ، فعدَلوا عن مناقبه بذكر مثالبه .

فمن آدابه : أن لا يتجاوز في مدح ، ولا يسرف في ذم ، وإن كانت النزاهة عن الذم كرمًا ، والتجاوز في المدح مَلَقًا يصدر عن مهانة ، والسرَفُ في الذم انتقاما يصدر عن شر ، وكلاهما شَيْن وإن سلم من الكذب ، على أن السلامة من الكذب في المدح والذم متعذّرة ، ولاسيما إذا مدح تقرّبًا وذمّ تَحنُّقًا .

ومن آدابه : أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما ، ولا يقدر على الوفاء بهما ، فإن من أطلق بهما لسانه ، وأرسل فيهما عِنانه ، ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل : صار وعْدُه نُكْثًا ووعيدُه عجْزًا .

ومن آدابه : أن يتجافى هُجْر القول ومستقبَح الكلام ، ولْيعدل إلى الكناية عما يُستقبَح صريحُه ، ويُستهجَن فصيحُه ، ليبلُغ الغرض ولسانه نَزِهٌ ، وأدبه مصون ، وقد قال محمد بن عليّ في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] ، قال : كانوا إذا ذكروا الفروج كَنُّوا عنها .

ومما يجري مجرى فحشِ القول وهُجْرِه في وجوب اجتنابه ، ولزوم تنكُّبه : ما كان شنيعَ البديهة مستنكَرَ الظاهر ، وإن كان عقب التأمل سليمًا ، وبعد الكشف والرويّة مستقيمًا ، كالذي رواه الأزدي عن الصوليّ لبعض المتكلفين من الشعراء :

إنني شيخ كبير ... كافرٌ بالله سيري
أنت ربي وإلهي ... رازق الطفل الصغير

يريد بقوله : كافر ؛ أي لابس ، لأن الكفر التغطية ، ولذلك سُمِّي الكافر بالله كافرًا ، لأنه غطى نعمة الله بمعصيته ، وقوله : بالله سيري ؛ يقسم عليها « أي على ناقته » أن تسير ، وقوله : أنت ربيّ ؛ يعني ربي ولدك ، من التربية ، وإلهي رازق الطفل الصغير ، كما أنه رازق الولد الكبير ، فانظر هذا التكلف ، والتعمق البشيع ، ما اعتاض من حيث البديهة إذا سلِم بعد الفكر والروية إلا لؤمًا ، إن حسُنَ فيه الظن ، أو ذمًّا إن كثُرَ فيه الارتياب .

ومن آدابه : أن يجتنب أمثال الغوغاء ، ويتخصص بأمثال العلماء والأدباء ، فإن لكل صنف من الناس أمثالًا تشاكلهم ، فلا نجد لساقط إلا مثَلًا ساقطًا ، وتشبيهًا مستقبحًا .

ولذلك علتان، إحداهما: أن الأمثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس، ولم يكن لذي الهمة الساقطة إلا مَثَلٌ مرذول وتشبيهٌ معلول .

والثانية : أن الأمثال مستخرَجة من أحوال المتمثلين بها ، فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم .

فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة .

وربما أَلِف المتخصص مثلًا عاميًا أو تشبيهًا ركيكًا ، لكثرة ما يطرق سمعَه من مخالطة الأراذل ، فيسترسل في ضربه مثلًا فيصير به مثلًا ، كالذي حُكي عن الأصمعي أن الرشيد سأله يومًا عن أنساب بعض العرب ، فقال : على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين ، فقال له الفضل بن الربيع : أسقط الله جنبيك ، أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب ؟ فكان الفضل بن الربيع ــ مع قلة علمه ـ أعلمَ بما يُستعمَل من الكلام في محاورة الخلفاء من الأصمعي الذي هو

واحد عصره وقريع دهره . أ.هـ .

٣ ـ متانة الأسلوب :

« ومما ينبغي رعايته أن يعمد الخطيب بعد استحضار المعاني إلى الألفاظ التي يريد أداءها بها ، فيفرغَ المعنى في قالب يناسبه ، فالمعاني الجزلة لابد لها من جمل وتراكيب في غاية الضخامة والفخامة ، والمعاني الرقيقة المستملَحة لابد لها من ألفاظ تناسبها رقة وسلاسة ، ليحصل التشاكل بين النوعين ، مع إعطاء كل موضوع حقه من شدة العبارة ولينها في النطق ، ليكون ذلك أدلَّ على المعنى المقصود »(١) .

وقد أشار الماوردي كذلك إلى هذا ، فمعاني الترهيب والتخويف والإنذار والوعيد ، تتطلب صياغتَها في ألفاظ جزلة قوية ، ومعاني الترغيب والتبشير والوعد والرجاء تصاغ في ألفاظ لينة ولطيفة ، فاختلافُ المعنى أوجبَ اختلافَ الأسلوب ، وهذا النهج واضح في أساليب القرآن الكريم ، لا يخفى على المتأمل .

ومن أمثلة ذلك أسلوب القرآن الكريم في حديثه عن فِرية نسبة الولدَ لله ـ تعالى ـ ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٢] .

« والمعنى إن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تَصوَّر بصورة

---

(1) فن الخطابة . علي محفوظ . ص ١٦١ باختصار.

محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفرقت أجزاؤها من شدتها ، أو أن حق تلك الكلمة لو فهمَتْها تلك الجمادات العظام أن تتفطر وتنشق وتخِرّ من فظاعتها ، وقيل : المعنى كادتِ القيامةُ أن تقوم ، فإن هذه الأشياء تكون حقيقة يوم القيامة ، وقيل : الكلام كناية عن غضب الله تعالى على قائل تلك الكلمة وأنه لولا حلمه سبحانه وتعالى لوقع ذلك وهلك القائل وغيره ، أي كدت أفعل ذلك غضباً لولا حلمي » [1] .

« إن جَرْس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو : جو الغضب والغيرة والانتفاض! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض، وترتعش وترجف من سماع تلك القَوْلة النابية، والمساس بقداسة الذات العلية، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره .

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال ، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه . وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ، وتجافي ما وقر في ضميره وما استقر في كيانه ،

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . شهاب الدين محمود الآلوسي ١٦ / ١٤٠ . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان .

وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ »[1] .

٤ ـ خلوّ الكلام من العيوب اللغوية التي تهبط بمستواه :

فينبغي على الخطيب أن تكون تعبيراته مجافية لتلك العيوب ، سواء ما كان يتصل منها بعلم النحو ، أو علوم البلاغة والصرف ، فيتجنب اللحن ، والوقوع في الأخطاء الإعرابية ، أو الخطأ في بنية الكلمة ، وأن تكون تعبيراته فصيحة ، خالية من التعقيد اللفظي ، أو التنافر في الكلمات والحروف .

يقول الأبشيهي: « ومن المستحسن في الألفاظ تباعدُ مخارج الحروف ، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة ، والمعيب من ذلك كقول القائل :

لو كنتَ كنتَ كتمْتَ الحُبَّ كنتَ كما　　كنا وكنتَ ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضا :

ولا الضِّعفُ حتى يبلغَ الضِّعفُ ضِعْفَه

ولا ضِعْفُ ضِعْفِ الضِّعفِ بل مِثْلُه أَلْفُ

وكقول الآخر: وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرِ　　وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْر

قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط

---

(1) في ظلال القرآن . سيد قطب ٤ / ٢٣٢١ . دار الشروق . القاهرة . ط الثانية عشرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلا في النطق به »[١] .

« ويحكى عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أورده : جَنَى جنَّاتِ وجْنَاتِ الحبيبِ . فصاح رجلٌ من الحاضرين في المجلس وماد وتغاشى . فقال له رجل كان إلى جانبه : ما الذي سمعْتَ حتى حدث بك هذا ؟ فقال : سمعت جيما في جيم في جيم فصِحْت . وهذا من أقبح عيوب الألفاظ »[٢] .

فحريٌّ بالخطيب أن يبتعد عن مثل هذا التنافر اللفظيّ الذي يجعل وقع الكلام على الأذن ثقيلًا ، بل ونطقه على اللسان عسيرًا .

٥ ـ حسن اختيار المقاطع والجمل :

« ويجب أن يختار الخطيب المقاطع التي يقف عليها بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذي يريده ، وبأن يكون المقطع ذا رنين قوي ، يملأ النفس ، ويوجهها نحو الغرض الذي يريده الخطيب »[٣] .

وليجتهد الخطيب في أن تكون الجمل قصيرة بقدر الإمكان ، وأن لا يوجد ما يطيل الفاصل بين أجزاء الجملة ويباعد بين طرفيها ، كفعل الشرط وجوابه ، والمبتدأ والخبر ، ونحو ذلك ، كي لا يشتت الأذهان ، فتقلَّ الفائدة

---

(1) المستطرف في كل فن مستظرف . شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي . تحقيق د. مفيد محمد قميحة ١ / ٩٦ ـ ٩٧ . دار الكتب العلمية – بيروت . ط الثانية ١٩٨٦م .

(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي . تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ١/ ٢٨٩ . المكتبة العصرية . بيروت ١٩٩٥م .

(3) الخطابة . أبو زهرة . ص ١٣٤ .

أو تضيع .

٦ ـ التنويع في الأسلوب :

وينبغي أن لا يثبت الخطيب على وتيرة في الأسلوب ، بل ينتقل من فن إلى فن ، ويتصرف في الأسلوب ، فتارة يأتي بأسلوب الاستفهام ، وأخرى بأسلوب التعجب ، وثالثة بأسلوب خبريّ ، وهو في كل هذا يتفنن في سوْق معانيه وتخير التعابير والأساليب الحاملة لها ، فيدفع عن السامعين الملل والرتابة التي تصاحب الثبات على أسلوب واحد ، والسير على وتيرة محددة في الخطبة .

٧ـ وأخيرًا : مراعاة حسن الإلقاء :

وفي مرحلة التعبير في الخطبة ينبغي مراعاة كل ما ذكرناه في موضوع الإلقاء وعناصر إجادته ، مثل حسن توظيف الصوت والإشارة ، وغيرهما ، حتى يتهيأ للخطبة جودةُ الأداء ، كما تهيأ لها جودةُ المضمون .

*****

المبحث الثاني
بين الخطبة وبعض فنون القول الأخرى

إن مهمة الخطيب الداعية مهمة عظيمة وخطيرة ، ومن بين ما تتطلب هذه المهمة أن يجيد الخطيب فنون القول المتصلة بالخطابة ، مثل المحاضرة والمناظرة وغيرهما ، كي يكون أقدر على خدمة دعوته ، وإفادة جمهوره ، والتأثير في مستمعيه ، وفيما يلي نشير إلى بعض فنون القول الأخرى سوى الخطبة ، وأهمِّ خصائصها وما يميزها عن الخطبة ، مع ملاحظة أنها جميعَها تشترك في مخاطبة الجماهير مشافهة ، ويُقصَد من ورائها التأثيرُ فيهم والوصولُ إلى إقناعهم واستمالتهم .

أ ـ المحاضرة :

يقال : « حاضَرَ القومَ : جالسَهم ، وحادَثَهم بما يَحضُرُه ، ومنه : فلانٌ حَسَنُ المحاضَرة . وألقى عليهم محاضَرة » (١) .

والمحاضرة لون من ألوان الخطابة ، لكنها تتميز عن الخطبة وتختص ببعض الأمور ، وأهمها ما يأتي :

١ ـ المحاضرة تتسع لما لا تتسع له الخطبة ، فالأخيرة ذات وقت محدد لا يطول ، بينما المحاضرة يمكن أن يكون وقتها أضعافَ وقتِ الخطبة .

٢ ـ ويترتب على هذا أن طبيعة العَرْض للموضوع تختلف في كلٍّ منهما عن الأخرى ، فأمام المحاضِر فرصةٌ لأن يُشعِّب الموضوع ، ويغطّيَه باستفاضة ،

---

(1) المعجم الوسيط ١/ ١٨٧ .

ويطرقَه من جوانب شتى حتى يوفّيَه حقَّه مفصّلا ، أما الخطبة فموضوعها محدود العناصر ، ووقتها لا يسمح بالاستفاضة ، والتوسع في كافة التفاصيل المتعلقة بالموضوع .

٣ـ المحاضرة في الغالب ذات جمهور معين ، حيث يتم الإعلان عنها ، فلا يذهب إليها ـ في الغالب ـ إلا من يهمه شأن الموضوع الذي تتناوله ، فجمهورها خاصٌّ ، بخلاف الخطبة فإن جمهورها متنوع ومتفاوت ، يضم فئات مختلفة .

٤ـ الخطبة لا مجال فيها للنقاش أو الأسئلة أو الاستفسار ، بينما تسمح المحاضرة بذلك ؛ فيُسمح بطرح الأسئلة عقب انتهاء المحاضر ، ويمكن أن تُترك فرصة للتعقيب والمناقشة .

٥ـ ويضيف أحد العلماء فروقًا أخرى بين المحاضرة والخطبة ، فيقول :

« أ ـ يغلب على المحاضرة صيغة تقرير الحقائق ، وتثبيت المعاني ، أما الخطبة فيغلب عليها صيغة إثارة العواطف والمشاعر .

ب ـ عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والأصول والأحكام ، أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة والمعاني الطارئة .

ج ـ تحتاج عناصر المحاضرة إلى الشرح والاستشهاد ، أما الخطبة فشأنها الاسترسال مع ما يحضر من الخواطر والمعاني »[(١)] .

ب ـ الدرس :

الدَّرْس هو : « المقدار من العلم يُدْرَس في وقت ما ، جمع دُروس

---

(1) تذكرة الدعاة . البهي الخولي . ص ٢٦٦ .

وأَدْراس »[(١)] ، وقد جرى العُرف على أن الدروس تطلق على ما يلقيه الخطيب الداعية على جمهور المسجد من موضوعات تعليمية ، ووعظية ، و تربوية ، عقب الصلوات المفروضة ، على مدار الأسبوع ، وِفْق نظام معين .

وإن الدرس بحاجة إلى دقة من الخطيب المدرِّس ، وإلى براعة وإتقان ربما أكثر من الخطبة ، وذلك حتى يقبل عليه الجمهور ويستفيدوا ، ولْيعلمِ المدرس أنه إذا لم يكن قد أعدّ درسه بعناية ، وتزوَّد له بالعلم ، وأعدّ نفسه لكل ما يمكن أن يثار من أسئلة حول موضوع درسه، فسوف ينفضّ الناس من حوله، ولن يجد من يستمع إلا بضعة أفراد .

ولا يخفى أن حضور الجمهور للدرس يكون اختياريًا ، ولذا فلن يَحْضُروا إلا لمن يلمسون فيه الإفادة والعلم ، بعكس خطبة الجمعة مثلًا ، فيحضرها الناس عبادة ودينًا ، حتى ولو كانوا غير راضين عن مستوى الخطيب وأدائه .

والدرس يختلف عن الخطبة من وجوه ، منها :

١ـ أن الدرس يمكن أن يقال في أي توقيت ، أما الخطبة فغالبًا ما تكون موقوتة بزمن معين يحسن الالتزام به ، وبعضها يجب فيها الالتزام بالوقت مثل خطبة الجمعة .

٢ـ أن الخطبة لها موضوع معين وعناصر لا تخرج عن إطار الموضوع ، وكذا المقدمة والخاتمة جميعها تدور حول الموضوع ، أما الدرس فقد يكون شرح آية أو حديث ، ويمكن أن يتطرق الشرح إلى جوانب مختلفة وأفكار متنوعة وكلها

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ٢٨٩ .

ذات صلة بالآية أو الحديث ، وقد يستطرد الخطيب في درسه لتبْيان نقطة ما ، ولا يُنكَر ذلك عليه ، بعكس الخطبة .

٣ـ العادة أن الخطيب لا يقاطعه أحد أثناء خطبته ولا يوقفه للاستفسار عن شيء غامض أو خافٍ عليه ، أما الدرس فإن هذا ممكن فيه ، ولا غضاضة في أن يحدث أَخْذٌ وردٌّ ، أو استيضاح وإجابة عنه بين المدرِّس وأحد الحضور .

٤ـ الأداء في الخطبة لا يستغني عن الحماسة والانفعال وإثارة العواطف وتحريك المشاعر ، ونحو ذلك ، بينما الدرس يغلب عليه الهدوء المصحوب بالشرح والإفهام والتعليم .

٥ـ العادة أن الخطيب في خطبته لا يتاح له الاستعانة بوسائل إيضاح أو عرض وتعليم ، مثل السبورة ، أو شاشة العرض ، أو الخريطة الجغرافية ، أو نحوها ، بينما يكون هذا الأمر متاحًا في الدرس ، فيمكن للخطيب المدرِّس أن يصطحب معه ما يحتاجه من وسائل إيضاح ؛ كأن يستعين بسبورة ويرسم عليها ويخطط ما به يُفهِم مستمعيه ، ويمكن له مثلًا إذا أراد أن يشرح درسًا في غزوة من الغزوات أن يستعين بالخريطة أو يرسمها على السبورة ، ويوضح الجهات والدروب والأماكن توضيحًا يقربها إلى الذهن ، ويعمق فهمها لدى المستمع ، كما أن بإمكانه إذا كان يشرح لهم فقه الصلاة ، وما يتعلق بها ، أن يقوم بالتطبيق أمامهم ، كأن يؤدي الركوع مثلًا أو السجودَ ونحوَهما ، كلُّ هذا ـ كما ترى ـ متاح في الدرس ، بخلاف الخطبة .

٦ـ لغة الخطبة تختلف عن لغة الدرس ، ففي الأولى يلتزم الخطيب باللغة

الفصحى ـ مع ملاحظة استبعاد الألفاظ التي تعلو على مدارك المستمعين ـ ولا يجنح إلى استعمال العامية إلا ما ندر ، أما الدرس فلا حرج على المتكلم أن يستعين فيه بالعامية خاصة إذا كان في مقام شرح الأحكام العملية ، فهو في حِلٍّ من الالتزام التام بالفصحى ، كما يمكن له أن يطعّم درسه بدعابة أو فكاهة تدفع الملل وتقطع الرتابة أثناء الدرس ، بأسلوب فيه تبسيط ، واقتراب من المستمعين .

٧ـ بعد انتهاء الخطيب من درسه يكون هناك مجال للأسئلة من المستمعين ، ومناقشة بينهم وبين المدرس في المجلس ، ويجيب عنها ، ثم ينصرف الجميع ، أما الخطبة فلا يتاح هذا بعدها ، والأغلب أن ينصرف الجمهور عقب انتهائها .

ومن الواضح بعد هذا أن الدرس أكثر فائدة للمستمعين ، كما أنه أشق على الخطيب من الخطبة التي يُعِدُّها ويرتبها على مهل ، ثم يلقيها وينصرف ، بينما المدرس عرضة للتساؤل أو الاستفتاء ، فإذا لم يكن مُعِدًّا لدرسه إعدادًا عميقًا واسعًا ، ومتسلحًا بجواب علميٍّ صحيح لكل ما يَتوقع أن يُسأل فيه ؛ لو لم يستعد على هذا النحو لتعرض للزلل والارتباك ، ولوَقع في الإحراج أمام الناس ، حيث لن يجدوا لديه الردَّ الشافيَ لما يَعِنّ لهم ويُشْكَلُ عليهم .

فالأمر ـ كما يبدو ـ ليس هيّنًا ، ولابد فيه من العلم ، وعلى الخطيب المدرس إذا سُئل عن شيء ولم يكن جوابه حاضرًا ؛ أن لا يتورط في الإجابة من غير علم تخلصًا من الإحراج في ظنه لو قال : لا أدري ، حيث يتخيل بعض الخطباء أن قوله : لا أدري ، يقلّل من شأنه في نظر الجمهور ، فيفتون بغير علم ، فيضلون ويُضلون ، ويوبقون دنياهم وآخرتهم .

فعلى الخطيب الداعية أن لا يسقط في هذا ، بل لا يتردد في أن يقول : لا أدري ، لما لا يعلمه ، أو يَعِدَ السائلَ بأنه سوف يبحث عن الإجابة ويذكرها له، فليس في هذا ضرر ولا جناح ، إنما الضرر والإثم فيمن يتجرأ ويفتي بغير علم، ويفتري على الله الكذب .

وأقترح على الخطيب إن لم يكن لديه ما يؤهله من علم للفُتيا ، ويعينه على التصدي لها ـ خاصة إذا كان مبتدئًا ــ أن يخصص درسًا للفتوى ، ويشيع في جمهوره أن هذا اليوم مخصَّص لذلك ، ويجمع الأسئلة منهم على مدار الأسبوع، ثم يجهِّزَ إجابتها في بيته ويحضّرها جيدًا ، قبل الذهاب إلى الدرس ، فيكون عنده الجواب الصحيح لكل سؤال ، دون تعرض للزلل أو الوقوع في حرج .

وإذا كان الخطيب المدرس مرتبطًا بمسجد معين ، فيُفضَّل أن ينوع الدروس على مدار أيام الأسبوع ، فذا يوم مخصَّص للفقه ، وآخر للسيرة ، وثالث للعقيدة ، ورابع للتفسير ، وهكذا .

وكما ذكرنا فإنه مُعرَّض للأسئلة ، فعليه أن يعدِّد المصادر التي ينهل منها ، ويُعِدّ درسه من خلالها ، فمثلًا إذا أراد أن يعِدّ درسًا في السيرة ؛ فلا يكتفي بكتاب واحد ، بل عليه أن يستمد مادته من أكثر من كتاب ، وسيجد في كلٍّ منها فكرة جديدة ، ومعلومة مفيدة ، أو رواية زائدة عن غيره ، وقد يقرأ في كتابٍ رواية واهية ، فلا يعرف أنها كذلك إلا من خلال كتاب آخر ينبِّه على ضعفها .

ومن المعروف أن كتب السيرة تختلف في منهجها عن بعضها ، فهذا يهتم بالسرد فقط دون تمييز صحيح الروايات من سقيمها ، وآخر يهتم بتمحيص

المرويات ، وينبه على ضعيفها ، ويشير إلى صحيحها ، وثالث يهتم باستخراج العظات والعبر ، وهكذا يثري تنويعُ المصادر موضوعَ الخطيب ودرسه ، ويمكّنه من تقديم مادة علميةٍ ثَريّةٍ ونظيفة لجمهوره ، كما يجنبه الوقوع في أخطاء قد يتعرض لها حال اقتصاره على مرجع واحد .

ج ـ المناظرة :

ما أكثرَ خصومَ الدعوةِ الإسلاميةِ اليومَ ، سواء أكانوا من الخارج أم من الداخل ، فهناك غير المسلمين من المستشرقين ونحوهم ، وهناك بعض من ينتمون إلى الإسلام ، ولكنهم ـ مع الأسف ـ يقفون في صفوف أعدائه ، مثل طوائف العلمانيين والقوميين ، وأنصار بعض المذاهب المعادية لله ورسوله مثل الشيوعيين ، وهكذا نجد طوائفَ كثيرةً تداعت لتشويه الإسلام ، والتشكيك في قدرته وصلاحيته لقيادة الحياة ، وتنظيم شؤون الخلق في معاشهم ومعادهم، وبالإضافة إلى هؤلاء فهناك أصحاب بدع منكَرة ، يشيعونها في حياة الناس ، ويروجون لها بين طوائف المسلمين .

وقد يجد الداعية نفسه مضطرًا للدخول في مناظرة مع طرف من تلك الأطراف ، يذُبّ عن الإسلام كيدَهم ، ويفضح أمام الناس زيفهم ، ويكشف للناس عن الحقيقة الناصعة بما أوتي من حجة وبرهان .

والمناظرة ـ في موكب الدعوة الإسلامية ـ عبارة عن محاورة ومجادلة ومُحاجّة بين طرفين ، من أجل الوصول إلى الحق وبيانه ، أو دحضِ باطلٍ وإزهاقه ، وهي تختلف عن الخطبة اختلافًا بيِّنًا من عدة وجوه ، منها :

١ ـ الخطبة تكون من عملِ فردٍ واحد ، وهو الخطيب ، بينما المناظرة تكون

بين طرفين غيرِ متوافقيْن في الرأي ، وقد يكون في كل طرف أكثر من فرد .

٢ ـ الخطبة تكون موقوتة بوقت معين ، أما المناظرة فتكون في أي وقت .

٣ ـ جمهور الخطبة ـ كما سبق ـ يكون متنوعًا ، فيه المتعلم وغير المتعلم ، وفيه المتخصص والمثقف ، والجاهل والأمّي ... وهكذا ، أما جمهور المناظرة فيكون من طبقةٍ أو فئةٍ معينةٍ ، وهي التي يهمها شأنُ الموضوعِ المطروحِ للمناظرة ، فهم جمهور خاص .

٤ـ الخطبة تنتهي بمجرد إنهاء الخطيب لها ، وفراغه من موضوعها ثم ينصرف الجمهور ، بينما المتناظران يتناوبان الكلام ، ويعقِّب كلٌّ منهما على الآخر ، معضِّدًا لوجهة نظره بأدلة أعدها أو استجدت لديه ، ومفنِّدًا رأيَ مُناظرِه وما يطرحه من حجج وبراهين .

٥ـ الخطبة تعتمد بالأساس على إثارة المشاعر، ومخاطبة العواطف والوجدان، بينما يركز المتناظران كل جهودها على الدليل والبرهان ، ويعتمدان على الإقناع العقليّ .

٦ـ لا يستطيع الخطيب إطالة الخطبة ، وإن طالت كان هذا غير مستساغ ، أما المناظرة فقد تطول كثيرًا ، أضعاف الخطبة ، ويكون هذا مستساغًا .

٧ ـ غالبا ما يكون للمناظرة مديرٌ ، مِن مهامِّه بيانُ موضوع المناظرة للجمهور ، وتوزيعُ الوقت على المتناظريْن ، وتحديدُ مَن يبدأ ومن يعقِّب ، وتقديمُ كل متحدِّث ، وإعلانُ ما انتهى إليه المتناظران ، والتدخلُ إذا اقتضى الأمر، كأن يحاول أحد الطرفين الاستئثارَ بالوقت وتضييعَ الفرصة على

مناظره، ونحو ذلك .

وهناك أمور هامة ، ينبغي للخطيب الداعية أن يراعيها عند المناظرة ، منها :

١ ـ أن يخلص لله ﷻ ، فيكون جلوسه للمناظرة نصرةً للحق ، ونشدانًا له ، ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وأن لا يجلس للمناظرة لشهوة حب الظهور ، أو لِأن يقال : إنه أفحم مناظره ، وتغلب على خصمه ، فإن المخلص المتجردَ للحق يسدده الله ويوفقه ، ويجري الحق على قلبه ولسانه ، والمرائي يَكِلُه الله ﷻ إلى نفسه ، فالعاقل من يتمسك بالإخلاص ؛ لأنه في موقف أحوج ما يكون فيه إلى معونة الله وتأييده .

٢ـ أن يقرأ بتوسع في موضوع المناظرة ، ويجهز مادته العلمية ، وأدلته وبراهينه ، وأن يلمّ ـ بقدر الإمكان ـ بحجج الخصم مسبقًا ، ويجهز من الأدلة ما يفندها .

٣ـ ينبغي الحرص عند المناظرة على تحرير محل النزاع ، وتعيينِ وتحديدِ الأمر موضعِ المناظرة والمحاجَّة .

٤ ـ أن يكون عفَّ اللسان ، فلا يحقِّرْ من شأن الطرف الآخر ، ولا يتناولْه بسبٍّ ونحوه ، فهذا أدعى إلى تأليف قلبه نحو الحق ، واجتذابه بعيدًا عن العناد والمِراء ، وكذلك لئلا يردّ عليه خصمُه بنفس الأسلوب من الشتم والسباب ، فيكون قد أهان نفسه ، وليضع نصب عينيه التوجيه القرآني : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] .

٥ـ أن يكون رابط الجأش ، ثابت الجنان ، مطمئنًا واثقًا في نفسه وأنه على الحق ، خاصة إذا كان يناظر أحد خصوم الدعوة الإسلامية من العلمانيين وأضرابهم ، وأن لا يتهيب ، وأن يلقي بحجته في وجه مناظره ، ويكِرَّ على باطل خصمه ، دونما وجل مهما كان شأن المناظِر أو وصفُه أو لقبه أو موقعه .

٦ـ أن يكون كلامه واضحًا للجمهور ، حتى يتمكن من فهمه ، فيتفاعل معه ، ويميل إليه ، ويتعزز موقفه أمام مناظره .

٧ـ عليه أن يكون متواضعًا ، فهذا من شيمة العلماء ، ويتجنب الحديث عن نفسه بالمدح والثناء عليها ، فإن الناس لا يستحسنون ذلك .

٨ ــ ينبغي الالتزام بالنظام المعلن من قبل اللجنة المنظِّمة، أو من بيده إدارتها، مثل تحديد الوقت ، وترتيب المتحدثين ، حتى لا تسود الفوضى ، أو ينعدم الانضباط ، فتفشل المناظرة .

٩ـ أن لا يستنكف عن الاعتراف بالحق والتسليم له ، وإن ظهر على يد الطرف الآخر ، فما كانت المناظرة أصلًا إلا نشدانًا للحق وطلبًا للوصول إليه .

١٠ ــ أن يكثر الخطيب الداعية من حضور أو سماع وقراءة المناظرات المختلفة ، فإن من شأن هذا الأمر أن يكسبه دراية ودُرْبة تفيده في خوض المناظرات .

هذا ؛ وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والتاريخ الإسلامي كثيرٌ من المناظرات التي جرت بين أنصار الحق ودعاته ، وذوي الباطل وأعوانه ، وقد أسفرت عن انتصار الحق ، واندحار الباطل ، وإفحام أهله بالحجج والبراهين .

ولْيراجعِ الخطيب الداعية ــ على سبيل المثال في القرآن الكريم ــ موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ، وإتيانَه لهم بالحجج الملزِمة ، والبراهين الساطعة ، التي تثبت أن معبوداتهم التي يزعمونها آلهةً من دون الله ، لا تصلح لهذا أبدًا ، وكانوا أمام حججه يراوغون ويحيدون عن الجواب المفحِم .

ولْنتأمل معًا قوله تعالى ـ حكاية عن إبراهيم مع قومه ـ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٦٩ـ ٧٤] .

فقد ألقى إليهم بالحجة الفاصلة : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ، فكان ينبغي أن يجيبوا بالنفي أو الإثبات ، فلو أجابوا : لا يسمعوننا إن دعوناهم ، ولا ينفعوننا إذا أقبلنا عليهم ، ولا يضروننا إذا أعرضْنا عنهم ؛ لكان هذا إقرارًا منهم بعدم صلاحية معبوداتهم لأن تُعبَد وبعجزها التام ، ولو قالوا : نعم ؛ يسمعوننا إن دعوناهم ، وينفعوننا إن لجأنا إليهم ، ويضروننا إن تركناهم ، لكان هذا منهم دعوى لا يمكنهم أن يقيموا عليها عُشْر دليل ، بل إنّ بطلانها أوضح من الشمس في ضحاها ، إذ الواقع يفصح بأنها لا تسمع مناديًا ، ولا تجيب داعيًا ، ولا تدفع عن نفسها ــ فضلًا عن غيرها ـ أذى ، فما كان منهم أمام هذا الحصار البرهانيِّ القويِّ إلا أن حادوا عن الجواب ، واجتلبوا كلامًا لم يسألهم عنه خليل الرحمن ، فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وكتب السنة المطهرة والسيرة العطِرة حافلة بمحاورات الرسول ﷺ للمشركين، وأهل الكتاب، ومحاورات أصحابه مع ذوي الأفكار الفاسدة، والمعتقدات الباطلة.

ومِن أمتع المناظرات في تاريخنا الإسلاميِّ، وأرقاها حجة في دحض الباطل؛ مناظرةٌ حدثت أيام الخليفة المأمون، حين وقعت فتنة القول بخَلْق القرآن، فقد جاء رجل من علماء الحجاز هو الإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكنانيُّ البغداديّ، ووقف في المسجد يوم الجمعة، وجاهَر بالقول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وطلب أن يناظر أصحاب القول ببدعة خلق القرآن على الملأ، وبحضور الخليفة المأمون، فتم له ما طلب، وكانت المناظرة، فكان هو طرفًا، ورجل يسمّى بشرَ بنَ غياثِ المريسي، هو الذي تولى كِبر هذه البدعة؛ طرفًا آخر، ودارت المناظرة، وكانت حامية الوطيس، أظهر الله حجة الإمام عبد العزيز على خصومه، وسلّم له المأمون بصحة قوله، وسلامة حُجته وظْفَره على مناظره، مع أن المأمون كان ممن استهوته هذه البدعة.

وقد لخص الإمام عبد العزيز هذه المناظرة، وهي مطبوعة الآن ومتداولة بعنوان « الحيدة » وأنصح بقراءتها، فهي على وجازتها ذات فوائد علمية وفنية جمة.

د ـ الأحاديث القصيرة:

وهناك الأحاديث الإذاعية أو التلفزيونية القصيرة، وهي بلا شك تختلف عن الخطبة من حيث الوقت والأداء والمضمون والأسلوب على النحو التالي:

١ ـ وقت هذه الأحاديث قصير ، ومحدد بالضبط ، فهو في الغالب خمس أو عشر دقائق ، أما الخطبة فوقتها أوسع من ذلك .

٢ ـ وعلى هذا فطريقة الأداء أو الإلقاء لابد أن تختلف في الحديث عنها في الخطبة ، فيكون الأداء في الحديث القصير وسطًا بين الحماسة والفتور ، والصوت معتدلًا بعيدًا عن الانفعال ، وأقرب إلى الهدوء ، ويغلب أن تكون نبرات الصوت على وتيرة واحدة ، إذ الوقت لا يسمح بأن يُلوِّن المتحدث صوته ، ينفعل فيه تارة ويهدأ أخرى ، أو يسرع مرة ويبطئ أخرى ، فمثل هذا الأداء لا مجال له في الحديث الإذاعي ، بخلاف الخطبة التي هي مجال رحب للتفنن في الأداء وتغيير الصوت وتكييفه بما يجعله مطابقًا للأحوال والمعاني التي يعبر عنها ، والمفاهيم التي يصورها .

٣ـ مضمون هذه الأحاديث يجب أن يكون مركَّزًا وموجزًا في نقاط واضحة محددة ، وأدلة كل نقطة تكون مختصرة .

والحقيقة أن اختصار الموضوع الطويل في نقاط موجزة ، مع الالتزام بتغطيته من كل جوانبه أصعب بكثير من بسطه والاستطراد في أدلته ومضمونه ، وهو يحتاج إلى جهد ودقة وبراعة في الاختصار ، وقد حُكِي أن أحد الأصدقاء كتب إلى صديق له رسالة ، فقال : « كتبت إليك كل شيء بالتفصيل ، حيث لا وقت لديّ للاختصار » ، أما الخطبة ففيها فرصة أفضل من الأحاديث القصيرة للبسط والتعليق ، وسرد الأدلة وتنويعها ... وهكذا .

٤ـ الخطبة في الأغلب تشتمل على أجزائها الثلاثة ، وهي المقدمة والعرْض

والخاتمة ، وتكون هذه الأجزاء واضحة ومتميزة بخصائصها ، لا سيما لدى الخطيب الجيد ، أما الحديث القصير ، في الأغلب خلاف ذلك ، ولا يكاد يلاحَظ فيه هذا التقسيم ، نظرًا للخريطة الزمنية القليلة المتاحة ، بل إن بعض المتحدثين ربما فوجئ بمُعِدّ البرنامج أو مُخرِجه يشير إليه بإنهاء الموضوع ؛ لأن الوقت قد انتهى ، فيختم الموضوع ، وبالطبع لا يجد وقتًا للخاتمة ، لذلك نكرر أنه على المتحدث أن يركز عناصره ، ونقاطَ حديثه ويوزعَها على الوقت جيدًا .

هذا ، وعلى من يقوم بالحديث الإذاعي أن يراعيَ أن الجمهور الغفير الذي يستمع إليه من خلال الإذاعة، فيه المثقف وغير المثقف ، فيه العالم وفيه الجاهل، والصغير والكبير ، فليحرص على أن تكون لغته سهلة ، وإن اضطُر إلى الإتيان بلفظة يظن أن البعض قد لا يفهمها ، سارع إلى بيان معناها في الحال ، وعليه أن يكون أسلوبه واضحًا ، والمعاني قريبة ومباشرة ، كما ينبغي أن لا يؤدِّيَ الحديثَ مثلَ أدائه للخطبة ، كما يفعل بعض العلماء ـ مع احترامنا لهم ـ فلا يغير أحدهم من لهجته ، ولا طريقة إلقائه ، مع كل المستويات ، وفي جميع المناسبات ، دون مراعاة لما يتطلبه المقام من أداء خاص عما سواه ، على النحو المشار إليه سابقًا .

*****

نماذج تطبيقية

ونقدم الآن بعض النماذج لكل من الخطبة ، والمحاضرة ، والدرس ، والمناظرة ، وذلك فيما يلي :

أولا : خطبة جمعة بعنوان « كيف نحيا بالقرآن » [1] :

الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، القائل في محكم التنزيل : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥، ١٦] ، سبحانه ضمِن لمن أخذ القرآن ورعاه حق رعايته أن يَسعد في دنياه وأخراه ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله ، القائل فيما صح عنه : « **القرآن حجة لك أو عليك** » ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين أقبلوا على كتاب ربهم فقرءوه وحفظوه ، وتدبروه وفهموه ، وعمِلوا بما فيه ، ودعوا إلى هداه وبلّغوه ، فنالوا ثواب الله ورضاه . اللهم ارزقنا حسن التأسي بهم ، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك ، وارضَ عنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

أما بعد ؛ فيا أيها الأخوة .. الكرامُ الأحبة :

---

(1) توسعْتُ ـ بعض الشيء ـ في ذكر أدلة هذه الخطبة ومادتها العلمية ، بقصد زيادة الفائدة ، أما عند إلقائها فيراعَى ـ إذا اقتضى المقام ـ أن تُختصر بما يناسب أحوال الجمهور .

إن القرآن العظيم شرف أكرمنا الله به ، ونعمة أنعم بها علينا ، ومنّة أسداها الكريم إلينا ، ولسوف يسألنا سبحانه عن القرآن ، ماذا عملنا فيه ، وهل أدينا واجبنا نحوه أم لا ؟

يقول عز مِن قائل : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . [الأنبياء:١٠]

ويقول جل شأنه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

فنحن لن ننال شرف القرآن وعز القرآن ، وكرامة القرآن إلا إذا أدينا واجبنا نحوه ، وعندئذٍ يكون القرآن شفاء لنا ورحمة : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢] .

فما واجبنا نحو القرآن الكريم ، وكيف نحيا بالقرآن العظيم ، أيها الإخوة المسلمون ؟

إن واجبنا نحو القرآن الكريم ـ بإيجاز ـ يتلخص في أربعة أمور أساسية :

أولها : أن نقرأه ونستمعه ، ونحفظه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

وثانيها : أن نتعلمه ونتدبره ونفهمه .

وثالثها : أن نعمل بما فيه فنُحِلَّ حلالَه ونُحرِّمَ حرامَه .

ورابعها : أن نبلِّغه إلى الدنيا ، وندعوَ إلى تعاليمه ، وننشر هدْيَه في العالمين .

ولنتحدث عن هذه الأمور الأربعة بشيء من التفصيل .

أما عن الأمر الأول وهو تلاوة القرآن واستماعه وحفظه ؛ فهذا من

الأمور التي يجب أن نحرص عليها ونلازمها ونتمسك بها ، وهي من أُولى حقوق القرآن علينا .

ولقد حثنا الله ﷻ على قراءة القرآن واستماعه ، ونوّه بفضل من يعملون ذلك ، فقال سبحانه : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤] ، وقال جل شأنه : ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] ، وقال جل في علاه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر : ٢٩ ، ٣٠] .

وقد جاء في السنة النبوية أحاديثُ كثيرةٌ تبين مثوبةَ وفضلَ من يقرءون القرآن ، ويستمعونه ويحفظونه .

منها ما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أكثر ما أعطي السائلين، قال : وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه** ».

وروى أبو بكر بنُ الأنباريِّ بسنده عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمةُ من تمسك به ، ونجاةُ من اتبعه ، لا يعوجّ فيقوّم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ،**

ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشرَ حسنات ، أمَا إني لا أقول : ﴿الٓمٓ﴾ حرف ، ولا أُلْفِيَنَّ أحدَكم واضعًا إحدى رجليه يَدَع أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفرّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة ، وإنّ أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله » .

وأخرج أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها** » .

وروى الترمذيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **يجيء القرآن يوم القيامة فيقول : ياربِّ حَلِّه . فيُلبَس تاج الكرامة ، ثم يقول : ياربِّ زِدْه . فيُلْبس حُلّةَ الكرامة ، ثم يقول : ياربِّ ارْضَ عنه ، فيقال له : اقرأْ وارْقَ ، ويُزاد بكل آيةٍ حسنة** » .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من استمع إلى آية من كتاب الله كُتب له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة** » .

وروى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مَثَلُ الأُتْرُجّةِ : ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يَقرأ القرآن كمثَل التمرة : لا ريح لها وطعمها حلو ، ومَثَل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثَل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مُرٌّ ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : ليس لها ريح وطعمها مُرٌّ** » .

وأخرج أبو بكر بنُ الأنباريِّ بسنده عن عليّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة ، وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وجبت له النار** » .

وقال الليث رحمه الله : ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن ، لقول الله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، ولعل من الله واجبة .

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرِب** » .

والمعنى لم يحفظ شيئا من كتاب الله عز وجل .

ومن رحمة الله تعالى ـ أيها الإخوة ـ أنه يسّر لعباده تلاوةَ كتابه وحِفظَه وفهمَ معناه ، وأعانهم على ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة القمر] ، أي : فهل ممن متذكّر ومتعِظ .

فالواجب علينا إخوةَ الإيمان أن نحرص على نيل هذا الفضل العظيم والخير العميم ، بأن نتلو كتاب الله ، ونستمعه ، ونَعمُر بحفظه صدورَنا ، وننشغل به آناء الليل وآناء النهار ، فهذا هو الأمر الأول من واجبنا نحو القرآن .

وأما الأمر الثاني من واجبنا نحو كتاب الله تبارك وتعالى ؛ فهو أن نتدبره ونتعلمه ، ونتفهّمه .

ذلك أن من حق القرآن علينا ــ أيها المسلمون ــ أن نتدبر آياته ، ونحاولَ فهم معانيه ، وتعلُّمَ أحكامِه وآدابِه ، فنتذوقَ حلاوته وعذوبته ، ونستشعرَ أُنْسَه ، وننتفع بما فيه .

قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

[سورة ص : ٢٩]

وقد نعى الله جل شأنه على أقوام عدمَ تدبُّرِهم لكتابه سبحانه ، فقال عزَّ مِن قائل : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] ، وقال سبحانه : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ .

[محمد : ٢٤]

والتدبر هو التفكر في كلام الله تعالى ، للتعرف على ما فيه من المعاني ، وتفهم ما يتضمنه من المقاصد ، وتعلّم ما فيه من الآداب والتوجيهات ، إذ لا تصلح القراءة وحدها ، ولا يغني الحفظ بدون تدبر وتعلم ، كي يتدرج المسلم في مراقي الكمال والفلاح ، ويسموَ إلى رفيع المقامات والدرجات ، فيكونَ ممن قال تعالى في شأنهم : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢] .

أيها الإخوة المسلمون : إن للتدبر في القرآن ، وتعلمِه ومدارستِه ثوابًا كبيرًا من الله تبارك وتعالى .

فقد روى البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكَرَهم الله فيمن عنده** » .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذُكِر رجلٌ عِند رسول

الله ﷺ بخير ، فقال رسول الله ﷺ : « **أوَ لَم ترَوْه يتعلم القرآن** » .

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل في تدبر آيات الله تعالى ، والتفكر في مضمون كلامه سبحانه .

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **اقرأ عليَّ** » ، قلت : آقرأ عليك ، وعليك أُنزِل ؟ قال : « **إني أحب أن أسمعه من غيري** » ، فقرأتُ عليه سورةَ النساء ، حتى بلغْتُ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ ، قال : « **أَمْسِك** » ، فإذا عيناه تذرفان .

وقد قال العلماء رحمهم الله تعالى : إن بكاء النبيِّ ﷺ إنما كان لتعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر ، إذ يؤتَى بالأنبياء شهداءَ على أممهم بالتصديق والتكذيب ، ويؤتَى به ﷺ يوم القيامة شهيدًا على الطائعين والعاصين من أمته .

بل لقد كان النبي ﷺ يَظهَر أثرُ تأمّله وتدبره في كلام الله على هيئته ﷺ ومنظره الشريف ، فقد روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، قد شِبْتَ ! قال : « **شيبتْني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كُوِّرَت** » ، ففي تدبر هذه السور وتأملها ما يكشف لقلوب العارفين سلطانَ الله وبطشَه فتَذْهلُ منه النفوس، وتشيب منه الرؤوس.

إن الإنسان قد يتدبر آية أو آيات من كتاب الله تعالى ، فيفتح له هذا التدبرُ

كثيرا من أبواب الخير ، ويكون سببًا في ارتقائه إلى حال أرضَى وأحبَّ إلى الله تعالى ، وانتقالِه من محيط المعصية إلى محيط الطاعة ، بل من محيط الكفر إلى محيط الإيمان .

وقد ذكرت لنا كتب السيرة أن النجاشيَّ ﷺ ، حين قرأ عليه جعفر بن أبي طالب سورةَ مريم ؛ استمع بتدبرٍ وتفكرٍ جعله يبكي ويقول عن القرآن : هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وكان أن آلَ أمرُه إلى الإسلام.

وكذلك كان الحال مع عمر ﷺ ، فقد قرأ صحيفةً بها آياتٌ من سورة « طه » بتدبر وتمعّن ، فتفجرت ينابيع الخير في نفسه ، ورقّ قلبه ، وزالت الغِشاوة عن بصيرته ، فقال : ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه .

ولم يكن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، يكتفون بقراءة القرآن وحفظه ، بل كانوا يحرصون على تعلم ما يقرءون ويحفظون ، وتدبره وفهمه أولًا بأول ، حتى يتهيأوا للعمل بما حفظوا وفهموا .

فقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ : حدثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن ، كعثمان بنِ عفان وعبدِ الله بن مسعود وغيرِهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا .

فعلينا أن نقتدي بهم ونسير على خطاهم، ونكون قريبين من كتاب الله تعالى، حريصين على تدبره ، وتدارسه ، وفهمه ، حتى يمكننا الانتفاع به .

أيها الإخوة الكرام الأحبة :

وأما الأمر الثالث من واجبنا نحو القرآن المجيد ، فهو أن نعملَ بما فيه ، فنحِلَّ حلاله ، و نحرِّم حرامه ، ونقيمَ حدوده ، كما أقمنا حروفه .

قال تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣ـ١٢٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضَمِنَ اللهُ تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، وتلا هذه الآية .

وعنه أيضًا قال : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أي: ديني وتلاوة كتابي ، والعمل بما فيه .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أَخَذ ثلثَ القرآن وعمَل به فقد أَخَذ أَمْرَ ثلثِ النبوة ، ومن أَخَذ نصفَ القرآن وعمِل به فقد أَخَذ أَمْرَ نصفِ النبوة ، ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها** » .

وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « **يُؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تَقْدُمهم سورة البقرة وآل عمران تُحاجّان عن صاحبهما** » .

وكان السلف يرون أن منزلة قارئِ القرآنِ لا تكتمل إلا إذا عمل به .

لقد كان أبو عبد الرحمن السُّلَمي إذا ختم عليه الخَاتِمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ، ووضع يده على رأسه ، وقال له : يا هذا ؛ اتق الله ، فما أعرف أحدًا خيرًا منك إن عملتَ بالذي علمتَ .

ولا يخفى أنهم ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا صورة حية ، ونماذجَ عملية لكتاب الله تعالى ، تتجسد وتتحقق في سلوكهم أوامرُ القرآن ونواهيه ، وأحكامُه وتوجيهاتُه .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : إنا صعُب علينا حِفظُ ألفاظِ القرآن ، وسهُل علينا العملُ به ، وإن مَنْ بعدَنا يسهُل عليهم الحفظُ ، ويصعُب عليهم العملُ به .

وعن ابن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورةَ أو نحوَها ، ورُزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يُرزقون العملَ به .

أيها المسلمون : إن سلفنا لما قرءوا القرآن وتعلموه ، وعملوا بما فيه عزُّوا وسادوا ، وكانوا في عيشة راضية ، وكانوا ملء أسماع الدنيا وأبصارها ، ونحن الآن في أمس الحاجة إلى أن نأخذَ كتاب الله كما أخذوا ، ونتعاملَ معه كما تعاملوا معه ، لتنحَلَّ بذلك مشكلاتُنا ، ونتخلصَ من أزماتنا ، وننهضَ من عثراتنا ، فإنه لا خلاص لنا إلا باتباع كتاب الله ، والسير على منهاجه ، والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه .

أخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **ستكون فتن كقطع الليل المظلم** » ، قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال : « **كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا :** ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [سورة الجن : ١] ، **من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم** » .

أيها المسلمون : يشيع أعداؤنا أن تمسّكنا بتعاليم القرآن سببٌ في تخلفنا ، ويوهموننا أننا إذا أردنا التقدمَ والرقيَّ ، فلْننبذ تعاليم القرآن لأنها ـ في زعمهم ـ لم تعد تناسب عصرنا ، ولْنأخذ بمناهج الغرب التي لا تتمشى مع القرآن .

والحقيقة أن هذا تزوير وتدليس ، ونحن نقول لهم :

أين تعاليم القرآن التي طبقها المسلمون اليوم فقادتهم إلى التخلف ؟

هل طبق المسلمون توجيهات القرآن في مجال الاقتصاد ، بأن حرّموا الربا ، وجدّوا في جمع الزكاة ، وشجعوا العمل ، وكرّموا العاملين ، فعاد عليهم ذلك بالتخلف الاقتصادي ؟ أم العكس هو الصحيح ، وهو أنهم خالفوا توجيهات القرآن فساء اقتصادهم .

هل طبق المسلمون نظام الحدود ، وتعاملوا مع الجرائم ومرتكبيها وفق تشريعاتِ الإسلام ونُظُمِه ، فأدى هذا إلى عموم الفوضى وانتشار الجريمة ؟ أم العكس هو الصحيح ، وذلك أنهم تركوا الحدود فساءت أوضاعهم .

أم هل طبقوا تعاليم القرآن في الأخذ بالشورى ، والتزموا بتوجيهاته في العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ففسدت حياتهم ؟ أم أنهم تركوا تلك التوجيهات ، فساءت أحوالهم ؟!

وقلْ مثل هذا في كثير من النواحي !!

هذا أمر ؛ وأمر آخر فإن أعداء الإسلام ليسوا حريصين على تقدمنا ورُقِيّنا ، ولو كانوا كذلك لما حجبوا عنا أسرار الصناعات الثقيلة والخفيفة ، والعلوم والاختراعات ، في الوقت الذي يُصَدِّرون إلينا أحدث ما توصلوا إليه في الأزياء والمساحيق ، وأدوات التجميل ، ووسائل التبرج ، ونحوها .

إنهم لو كانوا يعرفون أن تعاليم القرآن وتشريعات الإسلام تقود إلى التخلف ، لعبؤوها في زجاجات وسقوها لنا ، ولكل من يريدون السطو عليهم وانتهابَهم من شعوب الأرض ، فهم لم يكونوا يومًا من الأيام حريصين على مصلحتنا أبدًا !!

فاتقوا الله عباد الله ، وتمسكوا بكتاب ربكم ، وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه واتبعوا توجيهاته ، تسعدوا وتفوزوا وتعزوا في الأولى والآخرة .

أيها الإخوة الكرام الأحبة :

وأما الأمر الرابع من واجبنا نحو القرآن الكريم ؛ فهو أن نبلغه

وننشر هديه في العالمين .

إن القرآن الكريم كتاب الله عز وجل أنزله للعالمين ، فيجب على المسلمين أن يعملوا على تبليغه لكل الدنيا ، وينشروا هديه في جميع أنحاء العالم .

قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾ [إبراهيم] .

ورَوَى البخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « بَلِّغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومَن كذَب عليَّ متعمدا فليتبوأ مَقعدَه من النار » .

لقد سادت المجتمعاتِ البشريةَ ـ في زماننا هذا خاصة ـ أنماطٌ عديدةٌ من النظم والتشريعات ، اختلفت فيما بينها تبعا لتغاير المجتمعات والبيئات والأزمان .

لكن تلك النظمَ التي وضعها البشر لأنفسهم، وارتضوها لتنظيم حياتهم وتسيير شئونهم ؛ ما كانت لتفي بجميع مطالبهم ، وتلبّي كل حاجاتهم ، وتَرقَى بهم إلى الحياة الطيبة التي يطمح إليها الأفراد والجماعات، ولا غَرْو ؛ فهي من وضع الإنسانِ، والإنسانُ مهما أُوتي من العقل والعلم فإن علمه قاصر محدود ، كما أن العقل لا ينفك عن التأثّر بالبيئة والظروف ، ولذلك قيل : (العقلُ ابنُ بيئتِه) ، فالنظم التي يضعها إنما تكون وليدةَ حاجة معينة ، وظروف اجتماعية خاصة ، كما أنها لا تخلو من الإفراط أو التفريط ، أو منهما معا ، كما أنها ما تنفك عن القصور ، وتظل بحاجة إلى قوة ذاتية تحمل الأفراد

والجماعات على الالتزام بها، والخضوع لها ، وهي قوة العقيدة ، وسلطان الإيمان ، وإنّ نظْرةً متأملة في النظم الرأسمالية والشيوعية التي سادت في العصر الحديث ، لتُبيِّن صدق ما نقول .

لهذا وغيره كان لابد للناس من شريعة إلهية ، تنبثق عنها وتنشأ من خلالها نظمٌ ربانيةٌ ، تأخذ بيد البشر ــ جماعات وفرادى ــ إلى سبيل الهداية وطريق السعادة ، وتجنبهم ما يكتنف النظمَ الوضعيةَ من عيوب وقصور ، وتملأ الفراغ الهائل في حياة الناس ، وتشفي الإنسانية من أسقامها .

وقد أعلنت كل النظم إفلاسها ، وليس غير الإسلام وشريعته ، وهدْي القرآن ومنهاجه ملاذا وحصنا للبشرية اليوم ، فهو وحده الدين الحق ، وعقيدته هي وحدها العقيدة الصحيحة الحية التي لها السلطان الفاعل والأقوى الذي يحمل أتباعَها على فعل الخير ، ومجانبة الشر ، وشريعته هي وحدها الشريعة الكاملة ، التي تستطيع من خلال ما تضمنته من نظم أن تفيَ بحاجات الأفراد والجماعات ، وتكفلَ لهم الحياةَ الطيبةَ ، والعيشةَ الراضيةَ في الدنيا والآخرة، فعلى المسلمين أن يقدموا ما لديهم من الخير المتمثل في الإسلام وشرائعه ونظمه ، إلى العالم الحائر ، ويبلغوا كتاب الله الذي تضمن ذلك الخير ، ولْيبدأوا بأنفسهم فيلتزموا بشريعة القرآن ، وليهتدوا بهديه ، ويطبقوا تعاليمه على الوجه الذي شرعه الله وارتضاه .

أيها الإخوة المسلمون : هكذا عرفنا أن القرآن شرف وكرامة لنا ، ونعمة كبرى أنعم الله بها علينا ، وأن علينا القيام بواجبنا نحو القرآن حتى ننال خيره ، ونحصل على كرامته ، ونعِزَّ بعزته في الدنيا والآخرة ، ورأينا أن حق القرآن

علينا أن نتلوه ونحفظه ، ثم نتدبره ونتعلمه ونفهمه ، ثم نعمل بما فيه فنحل حلاله ونحرم حرامه ، ثم نبلغه وننشر هديه ، وندعوَ إلى شريعته في العالمين .

أيها الإخوة المسلمون : هذا هو طريق الفلاح ، ومفتاح السعادة في الدنيا ويوم لقاء الله ، فعليكم بالقرآن ؛ اقرءوه ، وتدبروه وتعلّموه ، وحكِّموه في حياتكم ، وبلِّغوه ، تسعدوا وتفلحوا ، ويَكُنِ القرآن حجة وشفيعًا لكم عند ربكم ، وإياكم ومخالفة ذلك ، فتشقوا وتضلوا وتَذِلوا وتَهلِكوا ، ويكن القرآن حجة عليكم .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **القرآن شافعٌ مُشفَّع وماحِلٌ [أي خصمٌ مجادلٌ عن صاحبه] مصدَّق ، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار** » .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

الخطبة الثانية :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وليُّ الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا ﷺ عبده ورسوله ، إمام المتقين ، وهادي الناسِ إلى صراط الله المستقيم ، اللهم صلّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فيا أيها الأخوة الكرام الأحبة : لا يظنّنّ أحد أننا يمكننا أن نستغني بالقرآن

عن السنة المطهرة ، فإن السنة لا يمكن للمسلمين أن يستغنوا عنها بحال من الأحوال ، إذ التعامل مع القرآن الكريم والقيام بواجبنا نحوه ــ على نحو ما أشرنا ـ لا يتم إلا بالاستعانة بالسنة المطهرة ، لأنها شارحة للقرآن ومبينة له ، فهي ـ كما قال علماؤنا ـ تفصّل مجمل القرآن ، وتقيّد مُطلَقَه ، وتخصّص عامَّه ، وتوضّح مُبهَمَه ، فنحن بحاجة ماسة إلى السنة المشرفة في تعاملنا مع القرآن ، والقيام بواجبنا نحوه .

والله أمرنا في القرآن باتباع السنة والتمسك بها فقال سبحانه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧] ، وقال جل شأنه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** » ، قالوا : يا رسول الله ، ومن يأبى ؟! قال : « **من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى** » .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الطائعين لله ورسوله ، الملتزمين بالقرآن والسنة، إنه نعم المولى ونعم النصير .

*****

ثانيًا : محاضرة عن « التضحية »

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المؤمنين ، واختارنا لنكون من أمّة سيد المرسلين ، وإمام المجاهدين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يجزي المتصدقين ، ويثيب المضحين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] ، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، جاهد في الله حق جهاده، وضحى بكل ما يستطيع لإعلاء كلمة الله ، والتمكين لدين ربه وشرع مولاه ، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين اصطفاهم الله لصحبة رسوله ، ونصرته ومؤازرته ، فقاموا بالأمانة خير قيام ، وجاهدوا لرفع راية الإسلام ، وبذلوا النفس النفيس ، والغالي قبل الرخيص ، فعزوا وسادوا ، ودانت لهم القياصرة والأكاسرة ، ورضي الله عنهم ، وآتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

أما بعد ؛ فيا أيها الجمع الطيب : أحييكم بخير تحية ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، حديثنا الليلة بمشيئة الله وتوفيقه عن موضوع مهم ، ما أشدَّ حاجةَ الأمةِ الإسلاميةِ اليوم إليه ، وما أجدرَها بتذكّره والتحلي به ، ألا وهو موضوع « التضحية » .

وسنتناول في لقائنا هذا بعون الله الجوانب التالية :

مفهوم التضحية .

ولماذا التضحية .

وميادين التضحية .

ثم الترغيب فيها والترهيب من القعود عنها .

ثم نعرض لنماذج من التضحية .

ثم نختم الموضوع ـ بمشيئة الله ـ بكلمة عن أثر التضحية في الفرد والجماعة.

أيها الإخوة الكرام :

أما عن التضحية التي نقصدها ونريدها ، فهي : بذل ما يستطيع المسلم تقديمه وبذله من النفس والمال ، والوقت والحياة والجهد ، وكل شيء ابتغاء مرضاة الله وفي سبيله ، لأجل إعلاء دينه سبحانه ، وسيادة شرعه ، وإظهار الحق ، وكسر شوكة الباطل ، ونشر الإسلام ، وهداية الناس إلى صراط الله المستقيم ، ليفوزوا بسعادة الدارين .

ولكن أيها الإخوة :

لماذا التضحية ؟

لقد اقتضت حكمة الله ﷻ ومشيئته أن تكون الأمة الإسلامية ذات رسالة سامية ، وحاملة أمانة عظيمة وثقيلة ، ألا وهي أستاذية العالم وقيادة البشرية ، والأخذ بيدها إلى الطريق المستقيم ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] ، وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ

ﭐلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٧، ٧٨] ، وقال : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ .

[آل عمران:١١٠]

ومن أجل أداء هذه الرسالة وتلك الأمانة ، أمرهم الله ﷻ بالجهاد ، إذ إنها تكليف قبل أن تكون تشريفًا ، وحيث أُمِروا بالجهاد لنصرة الدين ، وهداية العالمين ، فإن التضحية من لوازمه ، بل لا يمكن أن تتحقق ثمرة ، أو تحصل نصرة مع غياب التضحية .

وهكذا فهم المسلمون الأوائل وطبقوا هذا الفهم الذي رباهم عليه الرسول ﷺ ، فظهر الدين مع كره الكافرين ، وتبوأت الأمة مكانتها التي اختارها الله لها ، وقامت بأداء الأمانة خير قيام ، فعم الضياء وتبدد الظلام ، وسعد جميع الأنام بقيادة أمة الإسلام .

ثم إن العصر الذي نحياه يشهد تكالب الأعداء على الإسلام والمسلمين ، ولا سبيل لدفعهم وردّ عاديتهم من غير أن تكون لدى الأمة روح التضحية والإقدام .

لذلك فنحن مدعوّون إلى التضحية وبذل النفس والنفيس ، والغالي قبل الرخيص من أجل إعلاء كلمة الله ، والتمكين لدينه في الأرض ، وأداء الأمانة التي كلفنا الله بها ، مثلما كان حال السابقين ، والسلف الصالح ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

وكذلك فإن منتهى آمال المسلم أن يفوز برضوان الله تعالى وجنته ، ولكي يتحقق هذا الأمل لا غنى عن التضحية والعمل ، فلا بد من البذل والمجاهدة ، والمسارعة في الخير ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلا .

ميادين التضحية وصورها :

إن المؤمن الذي رضي بالله تعالى ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا ، وأُشرِب قلبُه حلاوةَ الإيمان ، لا يسعه إلا أن يلبيَ داعيَ الله للتضحية وبذلِ كلِّ شيءٍ ابتغاءَ مرضاةِ الله ، سواء أكان ذلك نفسَه أم مالَه وولدَه ، أم حياتَه ووقتَه ، طيبةً بذلك نفسُه مطمئنًا به قلبُه .

وميادين التضحية كثيرة ، ولعل أبرزها : بذل النفس ، وبذل المال ، وبذل الوقت والعمر ، والتضحيةُ بذلك كلِّه في سبيل الغاية ، وأداء الأمانة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١] .

ويقول ﷻ : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ .

[البقرة:٢٤٥]

الترغيب في التضحية والترهيب من القعود عنها :

إنه لا فوزَ برضوان الله دون بذلٍ وتضحية ، ولا جهادَ ولا نُصرةَ ، ولا بلوغَ للهدف أيضًا بدونها ، فضلًا عن أن للتضحية الثوابَ الجزيل ، وأن القعود عنها تترتب عليه أوخم العواقب .

وقد وعدنا الله ﷻ بأن أيَّ شيء نضحي به مالًا كان أم دمًا أم وقتًا ، فإنه يعطينا عليه أكرم العطاء ، ويجازينا عليه خير المثوبة والجزاء .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٢٠: ١٢١] .

وأخرج ابن ماجة عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال : « **ما من مجروح يجرح في سبيل الله ، والله أعلم بمن يجرح في سبيله ؛ إلا جاء يوم القيامة وجُرحُه يَثْعَب [أي : يجري] دمًا ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك** » .

وأخرج الترمذي والنسائي عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال : « **لا يُكْلَم [أي : يُجرَح] أحد في سبيل الله ، والله علم بمن يُكْلَم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجُرحُه يَثْعَب دمًا ، اللونُ لونُ دم ، والريحُ ريحُ مسك** » .

وفي المقابل فإن للقاعدين عن التضحية من غير عذر عقابًا أليمًا ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا

تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمنافقين : ﴿ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح:١٦] .

وقال جل شأنه : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨] .

نماذج من التضحية :

إن المسلم حقًا وهو يسمع كل هذه التوجيهات لا يتوانى لحظة عن الاستجابة والتنفيذ ، ولو أدى ذلك إلى أن يضحِّيَ بالدنيا كلها ، ويبذلها رخيصة ، إيثارًا لما عند الله الذي يقول : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ [النحل:٩٦] ، ويقول : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء:٧٧] .

من أجل هذا رأينا المسلمين الصادقين من سلف هذه الأمة وخلفها يضربون لنا أروع الأمثلة في التضحية والفداء والبذل والعطاء ، وقدموا صورًا مُثْلى للتضحية في سبيل الله ، جديرةً بأن نضعها نصب أعيننا ، وفي عقولنا وقلوبنا ، لنقتديَ بها ونحاكيَها في سلوكنا : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ

ﭐﻗۡﺘَﺪِﻩۡ ﴾ [الأنعام:٩٠] .

وهذه صور من تلك النماذج على سبيل المثال لا الحصر :

روى ابن إسحاقَ عن أبيه إسحاقَ بنِ يسار ، عن أشياخ من بني سلمة ، أن عمرَو بنَ الجموحِ كان رجلًا أعرجَ شديدَ العرَج ، وكان له بنونَ أربعةٌ مثلُ الأُسْد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يومُ أُحُدٍ أرادوا حَبْسَه ، وقالوا له : إن الله ﷻ قد عَذَرَك ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال : إن بنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروجِ معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « **أَمَّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك** »، وقال لبنيه: « **ما عليكم ألّا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة** »، فخرج معه فقتل يوم أحد .

قال السهيليُّ : « وزاد ابن إسحاق أنه لما خرج قال : اللهم لا تَردّني فاستُشهِد، فجعله بنوه على بعير ليحملوه إلى المدينة ، فاستصعب عليهم البعير ، فكانوا إذا وجَّهوه إلى كل جهة سارعَ إلا جهةَ المدينة ، فكان يأبى الرجوعَ إليها ، فلما لم يقدروا عليه ، ذكروا قولَه : اللهم لا تردني إليها ، فدفنوه في مصرعه » .

وقال ابن إسحاق : وقاتل عُكّاشةُ بنُ مِحصَن بن حُرْثان الأسديِّ ، حليفُ بني عبد شمس ابن عبد منافٍ ، يوم بدْر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فأعطاه جَذْلًا [أي أصلَ شجرة] من حطب ، فقال : « **قاتِلْ بهذا يا عُكّاشة** » ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزّه فعاد سيفًا في يده طويلَ القامة ، شديدَ المتن ، أبيضَ الحديد ، فقاتَلَ به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان

ذلك السيف يسمى : العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتِل في الرِّدّة وهو عنده ، قَتَله طليحةُ بنُ خويلد الأسديِّ [(١)] .

وقد روى ابن عساكر في تاريخه ، وابن الأثير في أُسد الغابة : أن عمر وجّه جيشًا إلى الروم فأسروا عبد الله بنَ حذافة فذهبوا به إلى ملكهم ، فقال له ملك الروم : تنصّر أقاسمْك مُلْكي وأزوّجْك ابنتي ، فرفض عبد الله ، فقال له ملك الروم : تنصر أُعطِك ملكي كلَّه ، وأزوِّجْك ابنتي ، فرفض فأمر ملك الروم به أن يُصلب ، ويَرمِي الرماة حول أطرافه وأن لا يصيبوا منه مقتلًا ، ثم أمر به فأُحضِر ، فعرض عليه النصرانية فأبى ، فأمر ملك الروم بإناء كبير أن يُملأ زيتًا ثم يُوقدَ عليه حتى يغليَ ، ثم أمر بواحد من أسرى المسلمين فأُلقِي في هذا الزيت فتحول إلى عظام في الحال ، وعبد الله ينظر ، فعرض عليه النصرانية فأبى ، فأمرهم أن يحملوه ويلقوه في الزيت ، فلما حملوه بكى ، فأمرهم أن يرجعوا به فقال له عبد الله : لا تظنَّ أني إنما بكيتُ جزعًا من الموت ، ولكني كنتُ أتمنى أن يكون لي من الأنفس بعدد ما في جسمي من الشعرات ، ثم تُسلَّطَ عليَّ فتَقتلَني ، ثم أُبعثَ فتُسلَّطَ عليَّ فتقتلَني ، فلما علمْتُ أنه ليست لي إلا نفْس واحدة يُفعَل بها هذا في سبيل الله بكيت ، فقال له ملك الروم : قبِّل رأسي وأنا أطلق سراحك ، فقال : أفعل بشرط أن تطلق سراح من معي من

---

(1) ذكر ابن كثير أن طليحةَ الأسديَّ تاب ، وكان في جيش المسلمين في معركة القادسية ، وأنه أبلى بلاء حسنًا في القتال . (البداية والنهاية ٧/ ٣٣ ، ٣٩) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يَضْحَكُ اللهُ لِرَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ ، كِلاَهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ** » ، قَالُوا : كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهَّ ؟ قَالَ : « **يُقْتَلُ هَذَا فَيَلِجُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الآخَرِ فَيَهْدِيهِ إِلَى الإِسْلاَمِ ، ثُمَّ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللهَّ فَيُسْتَشْهَدُ** ».

المسلمين ، فوافق ، ففعل ، وكان معه ثمانون من المسلمين ، فلما رجعوا إلى عمر بن الخطاب قال : حقٌّ على كل مسلم أن يقبِّل رأسَ عبدِ الله وأنا أبدأ ، فقام فقبَّل رأسَه .

بل إن الغلمان تربّوا على التضحية كذلك بأغلى ما يملكون في سبيل العقيدة ونصرة الدين .

أخرج الشيخان ـ وهذا لفظ مسلم ـ عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : بينا أنا واقف في الصف يوم بدر ، نظرتُ عن يميني وشمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثةٍ أسنانُهما ، تمنيتُ لو كنت بين أَضْلَعَ منهما [يعني أقوى] فغمزني أحدهما ، فقال : يا عمِّ ! هل تعرف أبا جهل ؟ قال : قلت : نعم ، وما حاجتك إليه يا ابن أخي ؟ قال : أُخْبِرْتُ أنه يَسُبُّ رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده ، لئن رأيتُه لا يفارقُ سوادي سوادَه [أي شخصي شخصَه] حتى يموتَ الأعجلُ منا [أي لا أفارقه حتى يموت أحدنا وهو الأقرب أجلًا] ، قال : فتعجبتُ لذلك ، فغمزني الآخر فقال ، مثلها ، قال : فلم أنشب [أي لم ألبث] أن نظرتُ إلى أبي جهل [أي لم يمض زمن طويل على سؤالهما إلا ورأيت أبا جهل] يزول [يعني ينزعج ولا يستقر على حالة ولا في مكان ، والزوال القلق] في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه ، قال : فابتدراه فضرباه بسيفيهما ، حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه ، فقال : « **أيكما قتله ؟** » ، فقال كل واحد منهما : أنا قتلتُه ، فقال : « **هل مسحتما سيفيكما ؟** » ، قالا : لا ، فنظر في السيفين فقال : « **كلاكما قتله** » ، وقضى بسلَبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح « والرجلان : معاذ بن عمرو بن

الجموح ، ومعاذ بن عفراء » .

قال ابن هشام عن مقتل أبي جهل : ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح فقطع رجله ، وضرب ابنُه عكرمةُ يدَ معاذ فطرحها ، ثم ضربه معوذ بن عفراء حتى أثبته [يعني جرحه جراحة لا يقوم معها] ، ثم تركه وبه رمق ، ثم ذفّف عليه عبد الله بن مسعود [أي أسرع قتله] واحتزّ رأسَه ، حين أمر رسولُ الله ﷺ أن يُلتمَس في القتلى .

وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعًا الخروجَ معه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فأمر أن يخرج أحدهما ، فاستهما ، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رضي الله عنهما : إنه لابد لأحدنا من أن يقيم ، فأقم مع نسائك ، فقال سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به ، إن لأرجو الشهادة في وجهي هذا ، فاستهَما ، فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر فقتله عمرو بن عبد وُدّ .

وتضحية صهيب بماله عند الهجرة وقولِ النبي ﷺ له : « **ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب** » ، معروفة .

وكذلك قصة أبي طلحة ، فقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثرَ الأنصار بالمدينة مالًا من نخل ، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحاءُ ، وكانت مستقبلةَ المسجد ، وكان الرسول ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] ، جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن الله

تعالى أنزل عليك : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ ، وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله تعالى أرجو بِرَّها وذخرها عند الله تعالى ، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « **بخٍ ! ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين** » ، فقال أبو طلحة : أَفعلُ يا رسول الله ، فقسَّمَها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .

هذا ولم تنته هذه النماذج وغيرها بانتهاء عصر السلف ، بل إن الخير ممتد وكائن في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وعصرنا الحاضر مليء بمثل تلك الصور المثلى في التضحية ، فسَلْ تراب فلسطين والقناةِ وترابَ أفغانستانَ وغيرِها ينبئْك عن نماذج كثيرة لشباب وشيوخ طاهرين صادقين ، عطَّروا بدمائهم الزكية أرضَ الإسلام في كل مكان ، بل وعن صبية كصبية الصحابة رضي الله عن الجميع .

رأى الإمام الشهيد حسن البنا ـ طيب الله ثراه ـ وهو يتفقد المجاهدين الذاهبين إلى فلسطين، طفلًا مُمْسِكًا ببندقيته ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : قيس، فقال له مداعبًا : وأين لَيْلاك ؟ قال : لَيْلاي في الجنة .

ومن يقرأ مثل كتاب « الإخوان المسلمون في حرب فلسطين » للأستاذ كامل الشريف ، أو كتاب « شهداء على الطريق » للأستاذ حسن دوح ، أو كتاب « آيات الرحمن في جهاد الأفغان » للدكتور عبد الله عزام ، وغيرِها ، يُحِسّ وكأنه يقرأ عن الصحابة والتابعين ، لا عن أناس معاصرين .

هذه النماذج وغيرها كثير ، حريٌّ بنا أن نقتديَ بها ، ونجعلَها أمثلة لنا

ولأبنائنا ، رجاءَ أن يشركنا الله معهم في الأجر إن شاء الله ، وأن نسترد مجدنا ونستعيد دورنا ونقوم برسالتنا ، ونتبوأ مكاننا ومكانتنا .

أثر التضحية في الفرد والجماعة :

أيها الإخوة :

إن للتضحية أعظم الآثار في حياتنا أفرادًا وجماعات .

أجل ؛ فإنه ما من شك في أن الفرد الذي يُربَّى على التضحية ويتعودَ عليها ، ويتحلى بها ؛ يكون قد قطع شوطًا كبيرًا في التخلص من سلطان الهوى ، ونوزاع الأَثَرَة ، وكان قادرا على مخالفة النفس الأمارة بالسوء ، كما أن المسلم الذي اتصف بالتضحية وتخلق بها يفوز بمثوبة الله ﷻ ، ويربح رضا الله سبحانه ، ثم رضا الصالحين من عباده ، كما أن الفرد الذي تعود التضحية لا يحزن على ما فات ، ولا يفرح بما أتى ، وكذلك يكرمه الله في ذريته ، ويُخلِف بالخير عليه ، وتسعد به الجماعة .

ثم إن الجماعة أو الأمة التي يتخلق أفرادها بالتضحية والبذل ، لا شك في أنها تكون قادرة على إنجاز أهدافها ، وتحقيق آمالها وطموحاتها ، والوصول بعون الله إلى غايتها ، كما أن هذه الجماعة أو الأمة تستعصي على الأعداء ، وتتأبَّى عليهم ، ويقذف الله مهابتها في قلوب أعدائها ، فلا ينالون منها ، فتعيش عزيزة كريمة مُهابة ، كما أن الأمة التي تعود أبناؤها البذل والعطاء ، وتخلقوا بالتضحية ، تكون في منجاة من الضوائق والأزمات ، وتسلم كذلك من الشحناء والعداوات ، ويحل الإيثار ، وتنمحي الأثرة ، وتسودها المحبة ، وتزول منها البغضاء ، ويعمها التواد والتآلف والتراحم ، وتصير أهلًا لرحمة

الله ، ومثوبته في الدنيا ويوم لقاه .

أيها الإخوة الأعزاء :

هكذا عشنا في رياض التضحية ، ورأينا أهميتها وضرورتها بعد أن عرفنا ماهيتها ، ووقفنا على حقيقتها ، وبيّنّا عِظَم الحاجة إليها ، وأشرنا إلى ميادينها ومجالاتها ، وكيف أن الإسلام قدْ رغّبنا فيها وحبّبها إلينا ، وحذّرنا من تركها أو القعودِ عنها ، ورأينا كيف أن الصالحين من سلف الأمة وخلفها لم يسَعْهم إلا التحلّي بها ، والسيرُ في دروبها ، والمسارعةُ إلى ميادينها تصديقًا بوعد الله ، وإيثارًا لما عنده جل في علاه ، فأكرِمْ بها من خلق يَعُود بأحسن الآثار وأطيب الثمار على الأفراد والجماعات ، في الدنيا وبعد الممات .

أيها الأخوة : هذه هي التضحية فتمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، تعيشوا كرامًا وتموتوا كرامًا ، واحرصوا على التخلق بها كما كان أسلافكم الأماجد ، الذين ملكوا هذه الدنيا قرونًا طوالًا ، وأخضعوا كل جبار عنيد ، فأمن الخائف في رحابهم ، وانتصر المظلوم في جوارهم ، وبرئت البشرية من أسقامها بدوائهم ، واهتدت بنور دينهم ، فكونوا خير خلف لخير سلف ، تسعدوا وتفوزوا وتسودوا ، وإياكم وتركَ التضحية فتهلِكوا وتذِلوا ، وتخسروا مرضاةَ الله ، وذلك هو الخسران المبين .

وإننا في عصرنا هذا لأحوج إلى التخلق بالتضحية والتحقق بها أكثر من أي عصر مضى ، لنستعيد مجدنا ، ونستردَّ حقوقنا ، ونننتصرَ على أعدائنا ، ونؤديَ رسالتنا ، ونُرضيَ ربنا ، فيسودَ الحق والعدل ، ويَعُمَّ الخير والأمن : ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم : ٤ ـ ٥] .

اللهم اجعل يومنا خيرا من أمسنا ، وغدَنا خيرًا من يومنا ، وحاضرنا خيرًا من ماضينا ، ومستقبلنا خير من حاضرنا : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

*****

ثالثا : درس مسجدي
بعنوان : سلوك المسلم في المناسبات

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين ، وعلى آله وأصحابه البررة الطاهرين ، الذين كانت حياتهم كلُّها منضبطة بشرع أحكم الحاكمين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .. **وبعد** :

أيها الفضلاء الأحبة: إن حياتنا نحن المسلمين ـ بكل ما فيها من أعمال ـ يجب أن تكون خالصة لله، وموافقة لما شرع ، ومنضبطة بأحكام الدين في كافة الجوانب وسائر الأحوال والأمور ، وفي جميع الأوقات والمناسبات ؛ في أفراحنا وأحزاننا .. في مساجدنا وأسواقنا .. في بيوتنا وطرقاتنا .. في سفرنا وإقامتنا .. في الرضا والغضب .. في السر والعلانية .. في السراء والضراء .. في المغنم والمغرم .. في المنشط والمكره .. في الفعل والترك .. في أمور معاشِنا وأمور معادنا .. في شئون دنيانا وأخرانا ، في علاقتنا بالخلق ، وعلاقتنا بالخالق .. وصدق الله حيث قال في محكم التنزيل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام] .

وإذا كانت الآية تؤكِّد على كل مسلم أن تكون جميع حركاته وسكناته خالصة لله ، فإنها في الوقت نفسِه تحمل التوكيد كذلك على أن تكون جميع أعماله على الوجه الذي يُرضِي الله تعالى ، وهذا ما يشير إليه ختام الآية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي المنقادين إلى امتثال ما أمر الله عزَّ وجلَّ به ـ كما ذكر الإمام الآلوسيّ في تفسيره ـ .

أيها الأحبة : إن السلوك الذي يجب أن يتحلى به المسلم في المناسبات ـ إجمالا ـ يتلخص في الالتزام بما يُرضِي الله ، والبعد عن كل ما لا يُرضيه سبحانه من الأقوال والأفعال ، في كل حال ، وفي كل مناسبة ، وفي كل حدث .

أما في بعض تفاصيله ؛ فنقول وبالله التوفيق:

إن من سمات وملامح سلوك المسلم في المناسبات ما يلي:

أولا: الابتعاد عن المناسبات المحرَّمة، والتي لا أصل لها في الشريعة الإسلامية:

كثيرةٌ هي المناسبات التي تمرُّ بنا، أو تنشأ في حياتنا، أو تكون في مجتمعاتنا، وهذه المناسبات من حيث المشروعية وعدمها تنقسم إلى قسمين:

الأول : المناسبات المشروعة؛ سواء أكان منصوصا عليها في الشرع مثل مناسبات الزواج، والعقيقة، والعيدين، وغيرها، أم لم يكن منصوصا عليها، ولكنها لا تصادم نصا قطعيا في ثبوته ودلالته، ولا تتعارض مع أصل من أصول الدين، ويمكن أن تندرج تحت الأحكام الكلية والمقاصد العامة للشريعة الإسلامية، أو يشهدَ لها دليل من الأدلة غير النقلية المعتبرةِ عند العلماء كالقياس أو الاستصحاب، أو العرف .. إلخ ؛ وذلك مثل الفرح بنجاح أحد الأولاد، وحصوله على درجة علمية نافعة، أو إتمام حفظه لكتاب الله تعالى، وإكمال تعلمه .. ونحو هذا من المناسبات التي لم يُنصَّ عليها، ولكن لا مانع منها شرعا.

الثاني : المناسبات غير المشروعة؛ مثل الاحتفال بأعياد محرمة ، كتلك التي وفدت علينا من بيئات غير مسلمة ، مثل أعياد رأس السنة الميلادية ،

أو (الكريسامس) ، ومنها ما يسمى بعيد الحب، ويسمى أيضًا: (عيد العشاق)، وكذلك « فالنتاين » [1]. وأصبح من طقوس ذلك اليوم تبادل الورود الحمراء وبطاقات بها صور (كيوبيد) الممثَّل بطفل له جناحان، يحمل قوساً ونُشّاباً، وهو إله الحب لدى الرومان كانوا يعبدونه من دون الله!! كما صار مقترنا بكثير من أنواع المعاصي والموبقات، وسبيلا إلى نشر الفواحش والموبقات، والعياذ بالله .

ثانيا: أن يُحدِث في كل مناسبة نية صالحة يُثاب عليها ما استطاع ذلك:

إن من شأن المسلم أنه يحرص على أن تكون أعماله كلها منطلقة من نية صالحة، وقصد محمود، ينال به الأجر من اللطيف الخبير، ومن هنا فإنه لا مجال لأن يصدر منه عمل عبثا؛ ذلك أن الحياة قصيرة، والأجل محدود، ولا رجوع

---

(1) « فالنتاين » هو قسيس نصراني عاش في القرن الثالث الميلادي .

وهناك روايات حول « فالنتاين » ، ومنها : أن المسيحية لما انتشرت في أوروبا لفت نظرَ بعض القساوسة طقسٌ رومانيٌّ في إحدى القرى الأوروبية؛ يتمثل في أن شباب القرية يجتمعون منتصف فبراير من كل عام ويكتبون أسماء بنات القرية ويجعلونها في صندوق، ثم يسحب كل شاب اسماً من هذا الصندوق، والتي يخرج اسمها تكون عشيقتَه طوال السنة، حيث يرسل لها على الفور بطاقة مكتوبا عليها: (باسم الإلهة الأم أرسل لك هذه البطاقة). وتستمر العلاقة بينهما، ويضع نفسه في خدمة صاحبة الاسم المكتوب لمدة عام يختبر كل منهما خلق الآخر، ثم يتزوجان، أو يعيدان الكرة في العام التالي في يوم العيد أيضا !! وجد القساوسة أن هذا الأمر يرسخ العقيدة الرومانية، ووجدوا أن من الصعب إلغاءَ الطقس، فقرروا بدلاً من ذلك أن يغيروا العبارة التي يستخدمها الشباب من (باسم الإلهة الأم) إلى : (باسم القسيس فالنتاين) ، وذلك كونه رمزاً نصرانياً، ومن خلاله يتم ربط هؤلاء الشباب بالنصرانية .

إلى الدنيا بعد الرحيل إلى دار الخلود، والعبدَ موقوف بين يدي علام الغيوب، ومسئول عن كل ما عمل، وكم من عمل هين عظّمته نية صاحبه، وكم من عادة صارت بالنية الصالحة في ميزان صاحبها عند أكرم الأكرمين عبادة، فعلى العاقل أن يتنبه لهذا قبل فوات الأوان.

روى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **يا معاذ إن المؤمن يُسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى عن كُحل عينيه، وعن فتات الطينة بإصبعيه، فلا أُلفِيَنَّك تأتي يوم القيامة وأَحدٌ أسعدُ بما آتاك اللهُ منك** ».

قال الإمام الغزاليّ رحمه الله: وما من شيء من المباحات إلا ويَحتمِل نيةً أو نياتٍ يصير بها من محاسن القربات، ويُنال بها معالي الدرجات، فما أعظمَ خسرانَ مَن يغفل عنها.

وقال بعض العارفين من السلف: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء.

بل إن الإمام الغزاليَّ يقرر أن المسلم لو ترفّه ساعةً بلهوٍ وحديثٍ، وأن هذا الترفيه واللهو المباح سوف يعيدان إليه نشاطه في العبادة؛ كان سلوكه هذا من أعظم العبادة.

قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق، وقال عليٌّ كرم الله وجهه: روحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت.

وهكذا يا أخي الحبيب يمكنك أن تحول كلَّ مناسبة تمر عليك إلى طاعة

وعبادة، بأن تُحْدِث لله فيها نية صالحة.

فيمكنك أن تذهب لمناسبة زواج مثلا بنية تهنئة أخيك، وإدخال البشر والسرور عليه في هذه المناسبة السعيدة، وَأَنْ تلْقَى الْمسلِمِين بِبَشاشة الْوَجْهِ، لما روى الترمذي - وحسَّنه - وابن حبان عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **تبسمك في وجه أخيك صدقة** ».

و يمكن أن تلبّيَ الدعوة إلى الوليمة بنية الامتثال والطاعة لتوجيه النبي ﷺ للمسلم بأن يجيب الدعوة ، حيث أخرج أبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا دعا أحدُكم أخاه فليجب، عُرْسا كان أو نحوه** » ، وكذلك بنية تأليف النفوس، وحصول المودة بينك وبين مَن أجبْتَ دعوته.

ويمكن أن تذهب إلى أخٍ لك لتُعزِّيَه، بنية الصلاة على الجنازة وحضورها، وكذا المواساة للمصاب، وتخفيف الحزن عنه، وتذكيره بما ينبغي أن يُذَكّر به في مثل هذا الموطن. وقد رَوَى ابْنُ مَاجَهْ من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوعًا: « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ، إلا كَسَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

ثالثا: معرفة الفقه الشرعي لكل مناسبة، والالتزام به :

إنه لمن الجدير بالمسلم أن يكون على دراية ومعرفة بالأحكام الشرعية والآداب الإسلامية الخاصة بالمناسبات، وليس المقصودُ المعرفةَ التفصيلية؛ فإن هذا من شأن العلماء، نعم إن أمكن هذا فحسَنٌ؛ لكن الواقع أنه لا يتيسر للجميع، ولذلك فالمطلوب هو الحدُّ الأدنى من تلك المعرفة بالآداب الشرعية لكل مناسبة، وهذا مما يتيسر لعموم المسلمين على اختلاف أحوالهم، لا سيما في

عصرنا هذا الذي كثرت فيه وتنوعت وانتشرت وسائل المعرفة، وسَهُل الوصول إلى أهل الذكر من العلماء والدعاة ونحوهم.

رابعا: القدوة الحسنة:

إن كثيرا من المناسبات تكون فرصة لتلاقي الناس واجتماع بعضهم مع بعض؛ كالأعياد، والأعراس، والعقائق، والعزاء، .. وغيرها، وهنا ينبغي أن يحرص كلٌّ منا ـ سواء أكان صاحبَ المناسبة أم مشاركا فيها ـ على إظهارِ الصورة الصحيحةِ والمشرقةِ للسلوك الإسلاميِّ في كل تصرفاته، وخاصة إذا كان أحدُنا محلَّ تقدير، وموضع اقتداءٍ وتأسٍّ أمام الآخرين.

ولذلك رأينا رسول الله ﷺ يضرب لنا القدوة الحسنة في المناسبات المختلفة، ولا عجب؛ فمن يكون كذلك إذا لم يكن حبيب الله وخير خلقه ومصطفاهُ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه.

تأمل يا أخي الكريم في حال الحبيب ﷺ عندما تُوفِّي ولده إبراهيم رحمة الله عليه، وقد كان فلذةَ كبد والده سيدنا رسول الله ﷺ، وقد توفي رضيعا وهو ابن ستة عشر شهرا ـ كما روى ابن سعد وغيره ـ وقيل ابن ثمانية عشر شهرا ـ كما أورد ابن عبد البر ـ؛ تأمل كيف كان ﷺ مثالا للصبر والاحتساب مع عظم المصيبة على نفسه، وهجوم الحزن الذي لا يقدر أحد على دفعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

قال الإمام ابن أبي شيبة: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ هَاشِمٍ عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: « أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَخَرَجَ بِهِ إِلَى النَّخْلِ، فَأُتِيَ بِإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَوُضِعَ فِي حِجْرِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ لَا أَمْلِكُ لَك مِنْ اللَّهِ

شَيْئًا، وَذَرَفَتْ عَيْنُهُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: تَبْكِي يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ لَمْ تَنْهَ عَنْ الْبُكَاءِ؟ قَالَ: إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ النَّوْحِ؛ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ؛ لَهْوٍ وَلَعِبٍ وَمَزَامِيرِ شَيْطَانٍ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ؛ خَمْشِ وُجُوهٍ [يقال خَمَشَتْ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا بِظُفْرِهَا خَمْشًا جَرَحَتْ ظَاهِرَ الْبَشَرَةِ] وَشَقِّ جُيُوبٍ وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ، إِنَّمَا هَذِهِ رَحْمَةٌ وَمَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ، يَا إِبْرَاهِيمَ لَوْلا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ، وَسَبِيلٌ مَأْتِيَّةٌ ـ وَإِنْ أُخِّرْنَا ـ لِنَلْحَقَ أُولَانَا؛ لَحَزِنَّا عَلَيْك حُزْنًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا، وَإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ، تَبْكِي الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ ».

كم من الآباء والأمهات ينسون أنفسهم في بعض المناسبات كالأفراح ونحوها من الحفلات، فيكونون قدوة سيئة أمام أولادهم وأمام غيرهم، فترى بعض الأمهات ـ على سبيل المثال ـ يشهدن مثل هذه المناسبات متبرجات بزينة، ويخالطن الرجال من غير المحارم وهن كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلات، دون أن ينكر عليهن زوج أو أب أو وليّ، وكم من الآباء يتعاطى المحرمات في مثل هذه الأحفال، ويسمح لبناته بالتبرج والاختلاط المستهتر .. وكأن الله تعالى قد رفع التكليف عن الناس في مثل تلك الاحتفالات !! ثم تكون النتائج بعد ذلك خطيرة؛ فقد يقتدي الابن بأبيه، والبنت بأمها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

خامسا: إهداء النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان هناك ما يدعو لذلك:

ولا يكفي أن يكون المسلم قدوة حسنة، ملتزما بأحكام الشرع وآدابه، صالحا في نفسه فقط؛ بل ينبغي عليه أن يكون شخصا إيجابياً، يدلُّ الناس على الخير،

ويرشدهم إليه، ويبعدهم عن الشر، ويحذّرهم منه.

إن المسلم يجب أن يكون مصلحا بقدر الإمكان ، وصدق الله القائل: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود] .

ويقول تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

وقد روى مسلم عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: « **الدين النصيحة** » قلنا لمن؟ قال: « **لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم** ». وهذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام ـ كما ذكر الإمام النوويّ رحمه الله ـ.

و روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قَالَ : سَمِعت رَسُول الله ﷺ ، يقول : « **مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ** » .

وأورد الإمام المنذريُّ في (الترغيب والترهيب) ، وكذا الإمام ابن حجر في (الزواجر)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة، فيقول له: ما لَك إليّ وما بيني وبينك معرفة ؟ فيقول: كنتَ تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني.

من هذا المنطلق يجب على المسلم إذا كان في مناسبة من المناسبات ورأى خطأً يصدر من البعض أن يسارع إلى نصحه، ملتزما بآداب النصيحة؛ كالتحلّي بالرفق واللين، والحكمة، وعدم تجريح المنصوح أو التشهير به .. وغير ذلك من الآداب، كي تحقق نصيحتُه هدفها، وتؤتيَ بإذن الله ثمرتَها.

سادسا: تجنب الإسراف في المباحات في بعض المناسبات كالأعياد ونحوها:

ومما يجدر بالمسلم الالتزام به في المناسبات ؛ أن يبتعد كل البعد عن الإسراف في المباحات ، وأن يَلزَم بالقصد والاعتدال والتوسط في كل شأن من شؤونه .

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم قد أرسى مبدأ التوسط والاعتدال في الحياة الإسلامية ، وأكد عليه النبي ﷺ في سنته نظريّا وعمليّا .

فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى في محكم التنزيل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

ويقول سبحانه في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] .

وروى النسائي ، وابن ماجة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مَخِيلة » .

إن مِن المسلمين مَن يسرف في استخدام ما أحله الله له وأباحه مِن طيبات المأكل والملبس والمشرب، ويبالغ في إظهار الاحتفال بمناسبة ما من المناسبات ، كالزواج ، أو الأعياد ، ونحوها ، وهذا المسلك ليس مِن أدب الإسلام ، ولا من هدْي الرسول ﷺ كما أنه يتجافى عما ينبغي أن يكون عليه العبد من تقدير لنعمة الله عليه ، وشكر المنعِم سبحانه عليها .

سابعا: توظيف المناسبات والأحداث باستخراج الدروس والعبر:

إن المناسبات التي تمر بالناس لا تخلو من المعاني والفوائد التي يمكن أن يستفيدوا منها، فهي تحمل في طياتها عبرا بالغة، ودروسا نافعة، ولذا ينبغي ملاحظتُها وتأمُّلُها، وتوظيفُها بما يعود على الناس بالخير في معاشهم ومعادهم، وأن لا تُترك تلك المناسبات تمرُّ دون الوقوف عندها للتذكير والإفادة والاعتبار.

لكن العبء الأكبر في هذا الأمر يقع على من رزقه الله الفهم، وآتاه العلم، فإنه يجب عليه ما لا يجب على غيره.

ففي الأعياد يمكن التذكير بنعمة الطاعات، ولفت الأنظار إلى فرحة المسلم بعبادة ربه، وبما أعدّه الله للطائعين جزاء طاعتهم، وإخباتهم لربهم.

وفي العقيقة يمكن التذكير بنعمة الذرية، وما ينبغي على المسلم حيال هذه النعمة من شكر المنعم سبحانه وتعالى، والحرصِ على تربية النشء وإصلاح الذرية، ليكونوا صالحين مصلحين.

وقد تمر بالأمة ذكريات عظام، منها ما هو سارٌّ ، كالانتصارات التي تحققت بفضل الله للمسلمين قديما، مثل غزوة بدر، أو حديثا كنصر العاشر من رمضان على اليهود أعداء الله وأعداء الإنسانية، ومنها ما هو مُحزن مثل نكبة يونيو عام سبعة وستين وتسعمائة وألف من الميلاد، وما نتج عنها من تداعيات على الأمة الإسلامية، حيث تمدد الاستيطان اليهوديّ الخبيث حتى شمل القدس الشريف كاملة ..

مثل تلك المناسبات لا بد أن تُوظَّف لإنعاش ذاكرة الأمة، وأخذ العظات والعبر، وبيان الحقائق التي يراد لها أن تُحجَب أو تُغيَّب عن الأجيال..

بمثل هذا يمكن أن نوظف المناسبات والأحداث، سواء أكانت فردية خاصة، أم جماعية عامة.

هكذا يتبين لنا ـ أيها الأعزاء ـ أن حياتنا نحن المسلمين ـ بكل ما فيها من أعمال ـ يجب أن تكون منضبطة بأحكام الدين في كافة الجوانب وسائر الأحوال والأمور، وفي جميع الأوقات والمناسبات . . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

*****

رابعا : حديث قصير

من حقوق الأولاد على الآباء : «اختيار الاسم الحسن»

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الإسلام قد جعل للأولاد على آبائهم حقوقًا ، كما أن للآباء حقوقًا على أولادهم .

وحقوق الأولاد على الآباء كثيرة ، فمنها الحقوق المادية الحسية كالرضاعة والإنفاق ، والولاية ، ومنها الحقوق المعنوية الأدبية ، كاختيار الأم الشريفة الصالحة ، وحفظ النسب ، واختيار الاسم وغيرها .

ومن الحقوق المعنوية الأدبية للأولاد على الآباء حق اختيار الاسم الحسن .

فيجب على الآباء أن يتخيروا لأبنائهم الأسماء الحسنة عندما يولَدون ، وأن يتجنبوا تسمية الطفل باسم قبيح يَسُوءه في كِبَره ، حيث إنه مما لا شك فيه أن لاسم الإنسان أثرا على نفسيته إما بالإيجاب وإما بالسلب، تبعًا لحسن الاسم أو قبحه .

ويؤكد علماء التربية اليوم أن الطفل الذي يُستهزَأُ به من قِبَل سائر الأطفال لاسمه المستهجَن أو لأنه ينتسب إلى عشيرة ذات اسم قبيح ، يخسر نشاطه ، ويسير دومًا إلى اضمحلال وانهيار، فيأخذ في تجنب الألعاب الجماعية للأطفال، ويخاف من معاشرتهم .

وقد روى ابن النجار عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال : « **من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة ، وأن يحسن اسمه ، وأن يزوجه إذا بلغ** » ، وقد رمز الإمام السيوطي لحسن هذا الحديث في كتابه « الجامع الصغير » .

وروى أبو داود والدارمي عن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم** » .

وهكذا يُعنَى الإسلام بأمر تحسينِ اسمِ الطفل عنايةً فائقة ، تقديرًا منه لأهميته ، وإدراكًا لضرورته .

ولقد كان النبي ﷺ يحب الأسماء الحسنة ، وتُعجبه ، فقد روى الحاكم - وصَحّحه ووافقه الذهبيُّ - عن أبي حَدرد ﷺ أن النبي ﷺ قال : « **من يَسُوق إبلَنا هذه ؟** » ، أو قال : « **من يُبلِّغ إبلنا هذه ؟** » ، قال رجل : أنا ، فقال : « **ما اسمك ؟** » قال : فلان ، قال : « **اجلس** » ، ثم قام آخر فقال : « **ما اسمك ؟** » قال : فلان ، فقال : « **اجلس** » ، ثم قام آخر ، فقال : « **ما اسمك ؟** » قال : ناجية ، قال : « **أنت لها فسُقْها** » .

وروى مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد ، أن رسول الله ﷺ قال لِلقحةِ تُحلب ، واللّقحة بكسر اللام أو فتحها هي الناقة التي بها لبن ، قال : « **من يحْلب هذه ؟** » فقام رجل فقال له رسول الله ﷺ : « **ما اسمك ؟** » فقال له الرجل : مُرّة ، فقال له رسول الله ﷺ : « **اجلس** » ، ثم قال : « **من يحلب هذه ؟** » فقام رجل فقال له رسول الله ﷺ : « **ما اسمك ؟** » فقال له الرجل : حرب ، فقال له رسول الله ﷺ : « **اجلس** » ، ثم قال : « **من يحلب هذه ؟** »

فقام رجل ، فقال له رسول الله ﷺ : « **ما اسمك ؟** » ، فقال له الرجل : يعيش ، فقال له رسول الله ﷺ : « **احلُب** » .

بل كان ﷺ يكره الأمكنة المنكَرةَ الأسماء ـ كما ذكر ابن القيم ـ ويكره العبور فيها ، فقد مرّ في بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسمها فقالوا : فاضِحٌ ومُخْزٍ ، فعدَل عنهما ولم يَجُزْ بينهما .

أيها الإخوة : لقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى أحسن الأسماء لنحرص عليه وذكر أقبحها لنتجنبه .

فقد روى مسلم والترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله ، وعبد الرحمن** » .

وروى البخاري في الأدب المفرد عن أبي وهب الجشمي ـ وكانت له صحبة ـ عن النبي ﷺ قال : « **تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومُرة** » .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تسمّين غلامك يسارًا ولا ربَاحًا ، ولا نَجِيحًا ، ولا أفلح ، فإنك تقول : أثَمّ هو ؟ فلا يكون ، فيقول : لا** » .

والنهي عن التسمي بهذه الأربعة مكروه كراهة تنزيهية ـ كما قال الإمام النووي ـ والعلة في الكراهة ما بينه ﷺ في قوله : « **فإنك تقول : أثَمّ هو ؟ فيقول : لا** » ، فكره لبشاعة الجواب ، وربما أوقع بعض الناس في شيء من التشاؤم ، فيحدث لهم يأس من تحقق اليسر والنجاح والفلاح ، فنهاهم عن

السبب الذي يجلب لهم سوء الظن بالله سبحانه ، ويُورِثهم اليأس من خَيْره وفضله .

بل إن النبي ﷺ ـ أيها الأخوة ـ قد قام بتغيير كثير من الأسماء رأى أنها تستحق التغيير إلى ما هو أفضل منها ، كما جاء في صحيح السنة المطهرة .

ومن هذا القبيل أن رجلًا ذُكِر عند النبي ﷺ يقال له : « شهاب » فقال رسول الله ﷺ : « **بل أنت هشام** »، ورجلٌ آخرُ سأله النبي ﷺ عن اسمه فقال: « غراب » فقال ﷺ : « **بل اسمك مسلم** » .

وكان اسم زينب بنت جحش رضي الله عنها « بَرَّة » [من البِرّ] ، فغيّره النبي ﷺ إلى زينب .

وجاءت عند النبي ﷺ عجوز من صديقات خديجة رضي الله عنها ، فسألها عن اسمها وتفقّد حالها ، فقالت : أنا جَثّامة المُزَنيّة ، فقال ﷺ : « **بل أنت** حسّانة المزنية » .

كما كان ﷺ يغير الأسماء المستنكَرةَ للأماكن ، فقد مرّ على قرية تُسَمَّى : عَفِرة [هو من العُفْرة : لَوْنِ الأرض] ، فسمّاها : خَضِرة ، ولما قدِم المدينة واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم ، غيّره بطيبة .

هدانا الله جميعًا إلى سواء السبيل ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم ، والحمد لله رب العالمين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

*****

خامسا : مناظرة بين عبد الله بن عباس والخوارج

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما خرجت الحَرُورية [1] اجتمعوا في دارٍ وهم ستة آلاف ؛ أتيت عليًّا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أَبْرِدْ بالظهر [2] لَعلِّي آتي هؤلاء القومَ فأكلِّمُهم ، قال : إني أخاف عليك ، قلت : كلا ، قال ابن عباس : فخرجتُ إليهم ، ولبسْت أحسن ما يكون من حُلل اليمن ، قال أبو زُمَيل : كان ابن عباس جميلًا جهيرًا .

قال ابن عباس : فأتيتُهم وهم مجتمعون في دارهم قائلون ، فسلَّمت عليهم ،

---

(1) الحَرُورية : نسبة إلى قرية تسمى حَرُوراء ناحية الكوفة ، وانحاز إليها الخوارج لما خرجوا على الإمام عليٍّ ، وهم إحدى فرق الخوارج التي يسميها العلماء المحكِّمة الأولى . يراجَع : الملل والنحل للشهرستاني ، تحقيق عبد الأمير علي مهنا ، علي حسن فاغور ١/ ١٣٣، دار المعرفة . بيروت . ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

(2) الإبراد : هو تأخير صلاة الظهر عن أول الوقت حتى تنكسِر حِدّة الحرّ ، أو يصير للحيطان ظِلٌّ يمشي فيه المصلِّي الذي يريد أداءَ الصلاة في المسجد في جماعة ، وهو مستحب عند شدة الحرِّ في البلاد الحارة ، كي يتهيأ للمصلي الخشوعُ في صلاته . روى الشيخان وغيرُهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: « إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلاَةِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ».
قال النووي : « ثَبَتَ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ عَنْ رَسُولِ اللهَّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ أَمَرَ بِالإِبْرَادِ وَأَنَّهُ فَعَلَهُ . قَالَ أَصْحَابُنَا : وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ الصَّلاةَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْمَشْيَ إلَيْهَا يَسْلُبُ الْخُشُوعَ أَوْ كَمَالَهُ ، فَاسْتُحِبَّ التَّأْخِيرُ لِتَحْصِيلِ الْخُشُوعِ ، كَمَنْ حَضَرَهُ طَعَامٌ تَتُوقُ نَفْسُهُ إلَيْهِ ، أَوْ كَانَ يُدَافِعُ الأَخْبَثَيْنِ ، وَحَقِيقَةُ الإِبْرَادِ أَنْ يُؤَخِّرَ الصَّلاةَ عَنْ أَوَّلِ الْوَقْتِ بِقَدْرِ مَا يَحْصُلُ لِلْحِيطَانِ فَيْءٌ يَمْشِي فِيهِ طَالِبُ الْجَمَاعَةِ وَلا يُؤَخِّرُ عَنْ النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنْ الْوَقْتِ ، وَلِلإِبْرَادِ أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ : أَنْ يَكُونَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَأَنْ تَكُونَ بِلادٌ حَارَّةٌ ، وَأَنْ يُصَلِّيَ جَمَاعَةً وَأَنْ يَقْصِدَهَا النَّاسُ مِنْ الْبُعْدِ ». المجموع شرح المهذب ٣ / ٦٠ ، دار الفكر .

فقالوا : مرحبًا بك يا ابن عباس ، فما هذه الحلة ؟ قلت : ما تعيبون عليَّ ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل ، ونزلَت : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، قالوا : فما جاء بك ؟ قلت : أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار ، لأبلِّغَكم ما يقولون المخبرون بما يقولون ، فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أُنزِل ، وليس فيكم منهم أحد ، فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشا ، فإن الله يقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف:٥٨] .

قال ابن عباس : وأتيت قومًا ، لم أر قوما قط أشدّ اجتهادًا منهم ، مسهِمةٌ وجوههم من السهر ، كأن أيديَهم وركبَهم تُثنَى عليهم ، فمضى من حضر ، فقال بعضهم : لنكلمُنّه ولَننظرنّ ما يقول .

قلت : أخبروني ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله ﷺ ، وصهرِه والمهاجرين والأنصار ؟ قالوا : ثلاث ، قلت : ما هنّ ؟ قالوا : أما إحداهنّ فإنه حكّم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، وما للرجال وما للحكم ؟ فقلت : هذه واحدة ، قالوا : أما الأخرى فإنه قاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يغْنم ، فلئن كان الذي قاتَلَ كفارًا ؛ لقد حلّ سَبْيُهم وغنيمتُهم ، ولئن كانوا مؤمنين ما حَلّ قتالهم . قلت : هذه ثنتان ، فما الثالثة ؟ قال : إنه محا نفْسه من أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين . قلت : أعندكم سوى هذا ؟ قالوا : حسبنا هذا .

فقلت لهم : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ، ومن سنة نبيه صلى الله

عليه وآله وسلم ما يُردُّ به قولُكم أترضون ؟

قالوا : نعم .

فقلت : أمّا قولكم : حَكّم الرجال في أمر الله فأنا أقرأ عليكم ما قدْ رُدَّ حكمُه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنبٍ ونحوها من الصيد ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ﴾ [المائدة:٩٥] ، إلى قوله : ﴿ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة : ٩٥] ، فنشدتكم الله أحُكْمُ الرجالِ في أرنب ونحوها من الصيد أفضل ؛ أم حكمهم في دمائهم وصلاحِ ذات بينهم ؟ وإن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ، ولم يُصيِّر ذلك إلى الرجال .

وفي المرأة وزوجها قال الله ﷻ : ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ [النساء : ٣٥] .

فجعل الله حكمَ الرجال سُنّة مأمونة .

أخرجْتُ عن هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم : قاتل ولم يسْبِ ولم يغنم ، أتسْبون أمّكم عائشةَ ثم تستحِلّون منها ما يُستحَلّ من غيرها ؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم وهي أمّكم ، ولئن قلتم : ليست أمَّنا لقد كفرتم ، فإن الله يقول : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ [الأحزاب:٦] ، فأنتم تدورون بين ضلالتين ، أيهما صِرتم إليها صِرتم إلى ضلالة ، فنظر بعضهم إلى بعض . قلتُ : أخرجْت من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم محا اسمَه من أمير المؤمنين ؛ فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم ، قد سمعتم أن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيلَ بن عمرو وأبا سفيان بن حرب ، فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين : « **اكتب يا عليّ : هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله** » فقال المشركون : لا والله ما نعلم إنك رسول الله ، لو نعلم إنك رسول الله ما قاتلناك ، فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم إنك تعلم أني رسول الله ، اكتب يا علي : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله** » فوالله لرسول الله خير من عليّ ، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه ، قال عبد الله بن عباس : فرجع من القوم ألفان ، وقتل سائرهم على ضلالة (١) .

*****

(1) أخرجه الحاكم ٢/ ١٥٠ـ ١٥٢، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبيّ .

الفصل الرابع

أنواع الخطب

المبحث الأول : أنواع الخطب بين القديم والحديث

المبحث الثاني : الخطب السياسية

المبحث الثالث : الخطب القضائية

المبحث الرابع : الخطب العسكرية

المبحث الخامس : الخطب المحفلية

المبحث السادس : خطب الوعظ الدينيّ

المبحث الأول

أنواع الخطب بين القديم والحديث

أنواع الخطب عند أرسطو

قسم أرسطو [(١)] الخطابة باعتبار الزمن ، فجعل منها ما يتعلق بالماضي كالخطب القضائية ، إذ يُطلَب فيها من المحكِّمين قضاء في أمر قد وُجِد بالفعل وانتهى زمنه ، ويراد منهم الحكم ببراءة المتهم أو عقوبته ، فموضوع الخطبة يدور حول حدث قد انتهى ، ومن الخطب ما يختص بالحاضر ، كخطب التكريم والدعوة إلى مشروع معين ، فالخطيب يعنيه في المقام الأول أن يثبِّت في أذهان سامعيه حقيقة واقعة ، وحادثة في الوقت الذي يتكلم فيه ، وهناك خطب تختص بالأمور المستقبَلة كالخطب التي يُطلب فيها تقرير قانون ، أو إنشاء شيء جديد ، فالخطيب حينئذٍ يحث الناس على عمل لم يحدث بعد .

وهكذا فالخطب عنده ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو ما يتعلق بالماضي ، وهو الخطب القضائية .

النوع الثاني : وهو ما يتعلق بالحاضر ، وهو الخطب التثْبيتية أو الاستدلالية .

والنوع الثالث : وهو ما يتعلق بالمستقبل ، وهو الخطب الاستشارية أو الحمْلية ؛ لأن الخطيب يريد حَمل السامعين على فكرة ، أو إبعادَهم عنها [(٢)] .

---

(1) راجع الخطابة لأرسطو . ص ١٦ وما بعدها ، الخطابة للدكتور عبد الجليل شلبي. ص ٧٨ .

(2) راجع فن الخطابة للدكتور / أحمد الحوفي . ص٥٩ ــ ٦١ ، الخطابة للشيخ أبي زهرة . ص ١٥٣، فن الخطابة للشيخ علي محفوظ . ص٦٩ .

وهذا التقسيم الأرسطي ربما كان مناسبًا لزمنه أو أزمنة أخرى قديمة ، لكنه لم يعد مناسبًا لهذا العصر ، حيث اختلفت الأحوال ، وجدّت مشكلات وحدثت أمور وعوائدُ لم تكن من قبل ، فهناك أنواع أخرى لم يشملها تقسيمه .

أنواع الخطب عند المحْدَثين

ومن هنا عمَد العلماء المحْدَثون إلى تقسيمات أخرى للخطابة باعتبار الموضوع الذي تتضمنه ، ويعرضه الخطيب ، فذكروا الأنواع الآتية :

١ـ الخطب السياسية . ٢ـ الخطب القضائية .

٣ـ الخطب المحفلية . ٤ـ الخطب العسكرية أو الحربية .

٥ـ الخطب الدينية . ٦ـ الخطب الاجتماعية .

ويمكن استخلاص أنواع أخرى للخطابة غير تلك الأنواع السابقة ، إذا نظرنا إلى اهتمامات الخطيب ، كما أنه يمكن لكل نوع من الأنواع السابقة أن يَدخل تحته أنواعٌ أو فروعٌ أخرى ، وهكذا لا تنتهي عند هذا التقسيم.

ويلاحظ على هذه التقسيمات ونحوها التداخل بين بعضها البعض ، فمثلًا قد تكون الخطبةُ في تكريم شخص ، فيتناول الخطيب أمورا سياسية ، أو يخطب في ساحة القضاء فيتعرض لمسائل علمية ، وهكذا .

ملاحظة ضرورية على تقسيم الخطابة

كما يلاحظ عليها أنها جعلت الدين قِسْمًا من الأقسام ، منفصلًا عن بقيتها ، كأنه لا شأن له بها ، وأن الواعظ الدينيَّ ليس له أن يتطرق في خطبه إلى جوانب السياسة أو القانون ونحوهما ، ويظهر أن هذا الفهم يرِدُ من منطلق الفصل بين

الدين وسائر شؤون الحياة ، وهو ما يروج له أعداء الإسلام ، وللأسف تأثر به بعض المسلمين ، وأخذوا بدورهم يروِّجون له .

ولئن جاز هذا بالنسبة لغير الإسلام ؛ فإنه غير مقبول البتة بالنسبة للإسلام؛ لأنه ليس دينًا روحيًا محضًا ، مقصورًا على العلاقة بين الفرد وربه فقط ، بل إنه يتسم بالشمول لجميع مناحي الحياة وشؤونها من اقتصاد وسياسة وقضاء واجتماع ، وغيرها بالإضافة إلى الجوانب الروحية .

لذلك فإننا نقرر أن تلك الأقسام لا تنفصل عن الإسلام ، بل يجب أن تستمد منه ، وأن تسير على هديه ، كما أن الخطيب الدينيَّ أو الواعظَ لا يمنعه من الخوض فيها مانع ، بل إن تطرّقَه إلى مواضيعَ سياسيةٍ أو اجتماعيةٍ أو حربيةٍ وغيرِها ؛ هو مما يدخل في نطاق تخصصه ، وفي صلب مهمته التي تحتم عليه أن يُعلّمَ الناسَ إياها ، ويعرّفَهم بها كما يُعلمُهم الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرَها من الفرائض .

ونحن لا نرفض أن تقسّم الخطابة إلى أقسام على نحو ما سلف ، وأن يكون لكل قسم منها خصائصُ وملامحُ ومزايا خاصةٌ به ، يتميز بها عما عداه من بقية الأنواع ، فإن هذا واقع لا يسَعنا إنكارُه ، ولا يحسُن تجاهلُه ، فهناك خطب يغلب عليها طابع معين ؛ قضائيٌّ مثلًا أو حربيٌّ ، أو اجتماعيٌّ ، أو عقَديٌّ ... إلخ ، نحن نقِر بهذا ، ولكن بشرط أن لا تكون بمعزل عن دين الإسلام ، بل تنبني عليه وتلتزم به شكلًا ومضمونًا ، مظهرًا وجوهرًا ، وبعبارة أخرى أن تكون هذه الأقسام من الدين الإسلامي ، لا قسيمًا له ونِدًّا ، وأن تَصُب في النهاية في مصلحة أهداف الدعوة الإسلامية ، والتي على رأسها تعبيدُ الناس

لله رب العالمين ، والتمكينُ لدين الله في الأرض ، ولشريعته أن تحكم وتسود .

على هذا الأساس نقرر أن الخطب تتنوع إلى أنواع بحسب موضوعاتها ، أو القضايا التي تعالجها ، ومقامها وظروفها ، ويحسن بالخطيب الداعية أن يقف على هذه الأنواع وما تتميز به ، ليستطيع أن يعالج أيَّ موقفٍ بما يليق به ، وليتعامل مع كل ظرف بما يناسبه ، فلكل مقام مقال .

وفي ضوء الواقع ، وما ذكره علماء الخطابة يمكن أن تكون أنواع الخطب على النحو التالي :

١ـ الخطب السياسية .
٢ـ الخطب القضائية .
٣ـ الخطب العسكرية .
٤ـ الخطب المحفلية .
٥ـ خطب الوعظ الديني .

ولْنُفصِّل القول في كل نوع منها بما يتناسب مع المقام، على النحو التالي :

*****

المبحث الثاني

الخطب السياسية

وهي الخطب التي تلقى في شأن من شؤون الدولة ، أو الخاصةُ بتوجيه أمور الدولة والحكومة ، سواء فيما يتعلق بأمور محلية داخلية ، أم بأمور دولية خارجية .

« ولهذه الخطب شأن كبير ، فإن عليها مدارَ حياة الأمة ورقيَّها ماديا وأدبيا ، والعملَ في الحرب والسلم ، وتكون في الدول الدستورية الحرة ، سواء أكانت جمهوريةً يديرها نواب الأمة ، أم مَلَكيةً يخضع ملِكُها للدستور ، فيملِك على الدولة ولا يسوسها ، إذِ الحكم فيها لنوابها ، ومِثلُها الولايات المتحالفة أو الممتازة في تدبير شئونها الخاصة ، أما الدول ذات السلطةِ المطلقةِ فلا ؛ لأن زمام الأمر في يد الفرد يأمر وينهى كما يشاء » [1] .

وتتشعب الخطب السياسية إلى عدة فروع ، منها :

أ ـ الخطب التي يلقيها الحاكم أو من ينوبه في توجيه أمور الدولة أو الرعية ومصالحها ، ونحو ذلك .

ب ـ الخطب التي تلقى في الانتخابات ، سواء أكانت للمجالس النيابية أم الشورية ، أم انتخابات لرئاسة البلاد وحكمها .

جـ ـ المؤتمرات السياسية المحلية ، وكذلك المؤتمرات الدولية .

---

(1) فن الخطابة ، علي محفوظ . ص ٨٢ .

د ـ الخطب النيابية .

ونكتفي هنا بالإشارة إلى نوعين من الخطب السياسية ، وهما : الخطب الانتخابية ، والخطب النيابية .

أ ـ الخطب الانتخابية :

« وهي الخطب التي يتقدم بها لتزكية نفسه ومبادئه ومناهجه ، والرد على خصومه ، مَن يريد أن يكون نائبًا عمن يخاطبهم ، أو يتقدم بها بعضُ أنصاره مزكّيًا داعيًا إلى اختياره ، رادًّا على الخصوم ، ذاكرًا المناقب ، مبينًا المصلحة التي تدعو إلى ترجيح كفته ، وتأييد دعوته » [(١)] .

وهذا النوع من الخطب يحتاج إلى لباقة ودربة ، ومعرفة بكيفية مخاطبة عوام الناس ومثقفيهم وأوساطهم ، إذ الخطيب يتحدث إلى خليط من الناس متباينين في العلم أو الفكر ، والأحوال الاجتماعية ، بل والدينية العقدية أحيانًا، ولذلك كان على الخطيب الانتخابيِّ أن يأخذ بكل الأسباب التي تيسر له القيام بمهمته .

ويذكر الشيخ أبو زهرة بعض الأمور التي يجب على الخطيب الانتخابيِّ ملاحظتها ، وهي [(٢)] :

١ ـ فهم روح الجماعة الانتخابية التي يخاطبها ، ودراسة مشاعر أهل الدائرة الانتخابية التي يتقدم للنيابة عنها ، فإن تلك الدراسة تكشف عن آمالهم وتبين

---

(1) الخطابة . أبو زهرة . ص ١٥٨ .

(2) السابق . ص١٦٣ ـ ١٦٥ . باختصار وتصرف .

الحاجات والرغبات المستكنّةَ في نفوسهم ، فإذا تكلم المرشَّح أو مزكِّيه ساير تلك الرغبات أو ضرب على نغمتها ، فيكون كلامه مصوِّرًا لآمالهم ، حاكيًا لأمانيّهم ، وبذلك يجتذبهم إلى تأييده .

٢ــ أن يستخدم الخطيب الانتخابيُّ غريزة حب الثناء في التقرب من نفوسهم، فيثني عليهم غيرَ مسرف ، وأن يكون ليّن الجانب سهل الملمس ، وأن لا يكون فظًا غليظ القلب متغطرسًا ، يثني على الجماعة بقدر غير بادي الملَق ، لأن الملَق إن بدا عُرِف النفاق ، فذهب التأثير .

٣ـ ذكر المنهجِ الذي يختاره ومذاهبِ الإصلاح التي يراها ، ولْيلاحظ في منهجه أن يكون جزءٌ منه يتعلق بالمصلحة التي تعود على تلك الجماعة الانتخابية مباشرة ، على أن لا يجعل مصلحة تلك الجماعة هي كلَّ شيء في منهاجه ، لأن النائب يكون نائبًا عن الأمة كلها ، لكن لا يخلو منهجه من وعود تعود على تلك الجماعة بشكل خاص ، فإن الناس دائمًا مأخوذون بالمصالح التي تعود عليهم بالنفع القريب .

٤ـ وليلاحظ أيضًا أن لا يَعِد إلا بما يعتقد أنه قدير على الوفاء به ، فلا يغالي ولا يسرف ؛ لأنه إن فعل ظُنَّ به الكذب ، وكانت وعوده مَظِنّة الإخلاف ، فيذهب التأثير .

٥ـ ذكر مبادئ الحزب الذي ينتمي إليه إن كان ، فيبين أن مبادئه هي المبادئ السامية ، وأنها أقرب المبادئ إلى الإصلاح ، وعليه أن يوازنَ بين مبادئ حزبه ومبادئ الأحزاب الأخرى ، فيبينَ أنه أقربها إلى سمو الحق ، وأن الطريق إليها

واضح ، ولْيكن ذكره لمبادئ تلك الأحزاب في أدب ورفق وحذر واتزان ، ليكون نزيه اللسان بعيدًا عن البذاء والسب .

٦ـ عدم التوعّر ، فعلى الخطيب الانتخابيِّ أن يتجه إلى السهولة في التعبير ، ويتجه إلى تقريب الأفكار ، وتوضيح المبهمات ، والإطناب في شرح الحقوق والواجبات ، لأنه يخاطب العامة ، والعامة لا يدركون إلا الواضح القريب .

وعلى الخطيب أن يعلم أن تلك الخطب دروس سياسية قانونية للشعوب ، فليجتهد في أن لا يقدم إليهم إلا الصحيح الذي لا تضليل فيه ، فينال تأييدهم، وينفع أمته بتهذيبهم .

٧ـ ذكر ماضي خدمات المرشح ، وإذا كان المرشح نفسه هو الذي تصدى لبيان سالف خدماته ، فليعمد إلى الإيجاز في ذكرها ، لأن ثناء الإنسان على نفسه غير مألوف ، وإذا كان الخطيب الذي تصدى لبيان خدماته شخصًا آخر غيره ، فلا مانع من تفصيل خدماته ، وليحذر المبالغة والغلوّ والإسراف في القول ، فإن ذلك يجعل كلامه عرضة للتكذيب ، وإثارة الريب في خبره ، ولا مانع من أن يوازن بينه وبين غيره من المرشحين ، وليكن ذلك في قول خالٍ من الطعن والسب ، وبخسِ الناس أشياءهم ، والنيلِ من كرامتهم ، فإن هذا يذهب بروح التأثير .

ب ـ الخطب النيابية :

« وهي التي تكون في دور النيابة ، وتشمل خطب الأعضاء معترضين على الحكومة أو مؤيدين لها ، أو سائلين أو مستجوبين ، أو متناقشين فيما بينهم ، كما

تشمل خطب الوزراء مجيبين أو معترضين ، أو داعين إلى الموافقة على أمر »[(١)] .

وهناك أمور ينبغي للخطيب النائب مراعاتها ، ومنها :

١ـ التجرد : فالخطيب النائب قد يدعو إلى رأي أو فكرة ، ويحرص على حشد التأييد لها ، وتدعيمها بكل ما أوتي من حجج وبراهين ، وتفنيد آراء المعترضين وقد يتجه إلى معارضة رأي قائم ، وتوجيهات معينة ، فعليه في كل أحواله أن يتصف بالتجرد ، وتحري مصلحة الأمة ، وأن لا تحركه المصلحة الشخصية ، أو الحزبية بل مصلحة الوطن والشعب ، والاجتهاد في الوصول إلى الحق والصواب الذي يُرضِي الله ﷻ قبل وبعد كل شيء .

٢ـ العلم بما يتصدى له ويخوض فيه : كما أنه يلزمه أن يكون على دراية تامة بالموضوع الذي يثيره ويتصدى للدعوة إليه أو معارضته ، كي يكون كلامه ــ دفاعًا كان أم معارضة ـ عن علم وبيّنة ، وليكون متمكنًا في عرضه ، واثقًا من نفسه ، وحتى لا تكون المعارضة أو الدفاع عن عاطفة وحماسة فقط .

٣ـ أن يكون صاحب مبدأ : وينبغي كذلك أن يكون صاحب مبدأ يؤمن به ويثق فيه ، ويثبت عليه ، دون تلوّن أو تذبذب ، حتى يحظى باحترام مَن حوله مِن النواب ومِن عامة الناس ، حيث إن مَن ليس له مبدأ ، أو يرفع شعارًا ولا يلتزم به ؛ لا يحظى بالاحترام ولا بقبول ما يطرحه .

٤ـ التودد إلى مستمعيه ، وقد مر بنا أن من صفات الخطيب أن يتودد إلى السامعين ، فهو أولى الناس بالحرص على هذه الصفة والتحلي بها ، فليحرص

---

(1) الخطابة . أبو زهرة . ص ١٥٥ .

على الودّ بينه وبين جمهور النواب الذين يتحدث إليهم ، كي لا يستعديهم عليه، ويجعلهم يقفون منه موقف النافر أو المبغض ، وإذا انتقد أحد زملائه ؛ فليركز على انتقاد الأفكار ، وليتجنب المساس بالأشخاص ، فإن المفترض في الخطيب الداعية الذي يشتغل بالعمل السياسي أن لا تكون بينه وبين أحد خصومة شخصية ، أو عداوة ذاتية ، وإن اختلف مع أحد ، فالهدف هو الوصول إلى الحق ، مع التزام بعفة اللسان ، وسمو الأخلاق ، وسَعة الصدر ، وهو اختلاف إلى وفاق .

٥ــ **الجرأة في الحق** : وعلى النائب أن يكون جريئًا ذا شجاعة في الحق لا يتهيب من الإقدام على طرح أية مشكلة ، أو مناقشة أيّ أمر ، كذلك لا يستنكف عن التراجع عن رأيه إذا بدا له أن الحق خلافُه ، وأن الصواب في كلام معارضِه ، فهذا لا يضيره ، ولا يقلل من مكانته ، بل يرفع من قدره ، ويزيد من احترامه في نظر جميع العقلاء ، وكما هو معروف فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل .

٦ــ **الدراية باللوائح والقوانين المنظمة للعمل النيابي** : فالخطيب النائب يلزمه أن يكون على اطّلاعْ وعلم باللوائح التي تحكم عمل المجلس النيابي أو الشوريّ ، وبالقوانين المنظِّمة لسير الجلسات ، وحقوق الأعضاء وواجباتهم ، ونطاق عملهم ، وحدود سلطتهم ، حتى لا يتجاوز حدوده ، أو يقع في خطأ تنظيمي أو غيره ، كما أنه بحاجة إلى معرفة بالقوانين والتشريعات التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، وحقوق كلٍّ وواجباته ، وحقوق المسؤولين من وزراء وغيرهم ، وواجباتهم ، حتى إذا ما أنكر أمرًا ، أو تشيّع له ، كان عن

علم وصواب .

٧ــ النـزول إلى أرض الواقـع ، والتعـرف عـلى المـشكلات عـلى الطبيعـة : فمعلوم أن النائب ممثلٌ للشَّعب ووكيـلٌ عنـه ، فهـو حـارسٌ لمـصالحه ، وسـاهرٌ على حل مشكلاته ، ومعبّرٌ عن آماله وطموحاته ، ومعْربٌ عن حاله ورغباتـه ، ومسارعٌ في رفع آلامه ومعاناته .

ولن يتأتى له أداء الأمانة التي حمّله الشعب إياهـا ، وأن يكـون لـسان صـدق عـن أبنـاء الأمـة ؛ إلا بـالنزول إلى أرض الواقـع ، وتفقـد أحـوال المجتمـع عـلى الطبيعـة ، والالتقـاء بالنـاس ، والـذهاب إلى مـواقعهم وديـارهم ، وإن لم يفعـل كان مقصّرًا في حقهم ، وبعيدًا عن آلامهم ، فضلًا عن أنه يكـون قـد خيـب فيـه ظنهم .

٨ ـ وبالإضافة إلى ما سبق فإنه يلزمه ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة (١) ـ :

« التخصص في دراسة ناحية من نواحي الحياة في الأمة ، ليعمل عـلى دراسـة طرق إصلاحها ، فإن طرق الإصلاح متشعبة ، ونواحيَه متباينة ، ولكـل ناحيـة أقـوام يجيـدون معالجـة الإصـلاح فيهـا ، والدربـة التامـة بوسـائله ، ولا يطالـب النائب بأن يكون خبيرًا بكل ما يصلح الشعب ، عليمًا بكـل النـواحي ، فليوجّـه إذن عنايته إلى ناحية واحدة ، ويُعْنَ بدراسة طرق الإصلاح فيها .

فالمـاهر في الزراعـة يوجّـه جُـلّ عنايتـه إلى وسـائل ترقيتهـا ، وطـرق زيـادة الغلّات ، والطبيب يوجه أكبر عنايتـه إلى دراسـة الأحـوال الـصحية ، ووسـائل

(١) الخطابة ص١٥٧ ـ ١٥٨ باختصار .

الوقاية من الأمراض .

وهكذا كلٌّ يعمل فيما هُيِّء له ، ويُقدم في ذلك مشروعات ، واقتراحات ورغبات ، وبذلك تتضافر كل القوى ، وتتلاقى كل عناصر الإصلاح ، ويتم بنيانه الكامل .

ومع اتجاه النائب إلى ما تخصص فيه لا ينصرف عن الإشراف على نظام الدولة ، وسير شؤونها ، فإن النواب هم حراس النظام وحماته ، والرقباء على كل العاملين فيه » .

*****

المبحث الثالث

الخطب القضائية

وهي الخطب التي تلقى في مجالس القضاء ، أو في ساحات المحاكم والمرافعات أمام القضاء ، وغالبًا ما يلقيها رجال النيابة والمحامون ، وهذا النوع من الخطابة قديم ، عرفته الأمم القديمة ، واستمر إلى يومنا هذا .

« والغرض منها تمييز الحق وتبرئة المتهم البريء ، وحماية المجتمع من الجريمة ، ولذلك يجب أن يتعاون القاضي والنائب والمحامي على إحقاق الحق ونصرة المظلوم ، ومحاربة الجرائم »(١) .

وقد أشرنا إلى أنه غالبًا ما يلقيها رجال النيابة والمحامون ، ولكن لا مانع من أن يكون أحدُ طرفي الخصومة خطيبا في مجلس القضاء ، فيقومَ بالدفاع عن نفسه وتبرئة ساحتها ، مما يرى أنه لم يقترفه ، وبيانِ زيف أدلة خصمه ، لكن هذا نادر في عصرنا ، والغالب ـ كما أشرنا ـ أن يقوم بالخطابة القضائية النيابةُ والمحامون .

أما النيابة ؛ فيقرر الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة أن عملها يشبه عمل الحِسبة الإسلامية ، ويقول في هذا : « يشبه عملُ النيابة الحسبةَ الإسلامية ، فكما أن المحتسب يرفع الدعوى في حقوق الله سبحانه وتعالى ، كبعض الحدود ، ودعاوى الوقف ونحوها ؛ كذلك النائب العمومي ووكلاؤه يرفعون

---

(1) فن الخطابة . د/ أحمد الحوفي . ص ٧٣ .

القضايا في الأمور التي تتعلق بالنظام العام ، وهي الجنايات المنصوص عليها في القانون، ويقدم النائب الأدلة للدعوى في الجملة ، فإن ظهر أن القرائن غير كافية للإدانة بعد رفع الدعوى ، فوَّضَ الأمر للمحكمة »(١) .

وأما المحاماة فلا خلاف على أنها في الأصل مهنة لنصرة المظلومين ، وإثبات حقوق الضعفاء الذين لا يتمكنون من إثباتها ، ودفع الأذى عمن لا يستطيع ذلك ، لعدم قدرته على الكلام ومخاطبة القضاء وتقديم ما يملك من حجة ، بسبب عدم فصاحة ونحوها ، فهي مهنة شريفة تسهم في إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإنصاف العدالة ، وإشاعة الأمن في المجتمع ، وكسر شوكة الجريمة ، وغلّ أيدي المجرمين .

ولكن مما يؤسف له أن قلة ممن يمتهنون المحاماة قد أساءوا إليها ، وإلى الشرفاء من أبنائها ، ودنّسوا مُحيّاها بأطماعهم ومجافاتِهم الأخلاقَ النبيلة ، وانحصر غالبُ همِّهم وجهدِهم في كيفية الحصول على أكبر قدْر ماديٍّ ، بالإضافة إلى السعي وراء الشهرة ، ولو على حساب الحق والعدل والفضيلة ، لكن هذه القلة لا تنسينا أن هناك كثيرين من المحامين الشرفاء ، الذين هم بحق مضرب المثل في النزاهة والتجرد للحق ، مهما كانت الظروف والأحوال .

ولا نحب أن نطيل هنا في الحديث عن الخطابة القضائية وآدابها ، فلذلك مجاله وتخصصه ومدارسه ، ونكتفي بذكر أهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية بإيجاز ، كما أشار إلى ذلك أحد العلماء فيما يلي :

---

(1) الخطابة . ص١٧٠ـ ١٧١ .

١ـ درس القضية درسًا عميقًا شاملًا بحيث لا يغيب عن الخطيب أدنى جزئية منها .

٢ـ صوغها في الصورة القانونية الملائمة ، بحيث ينجح طلبه بأقصى ما يستطيع ، فاقتناع القاضي يعتمد على القانون ، لا على التهريج والإثارة .

٣ـ أن تصاغ الخطبة في صورة منطقية متسلسلة ، تسلم كل نقطة إلى تاليتها بدون أن يشعر السامع بفجوة أو انقطاع ، فهذا يوهن الخطبة ، وينبئ عن عجز صاحبها .

٤ـ جودة الأسلوب وقوة التعبير مما له أثر كبير في إنجاح الخطبة القضائية .

٥ـ قد يجد القاضي أن القانون العام ليس مسعفًا ولا واضحَ التطبيق في قضيته ، ولهذا يلجأ إلى القوانين الخاصة التي وضعها القانونيون شرحًا للقانون العام ، وما لهم فيه من آراء فرعية ، كما يلجأ المحامي في الأحوال الشخصية إلى أقوال فقهاء المذاهب الفقهية الكثيرة التي ترد في القانون (1) .

وجملة القول : أن الخطابة القضائية لابد فيها من مراعاة أمرين :

الأول : معرفيٌّ يتطلب الإلمامَ بالثقافة والمعارف القانونية والتشريعية التي تجعله يسير في عمله على هُدىً وصواب .

الثاني: سُلوكيٌّ ؛ يقصد به التمسك بمكارم الأخلاق ، ومعالم السلوك الفاضل ، النابع من ضمير قويم سليم ، يحمل صاحبَه على الوقوف دائـمًا في صف الحق والعدالة .

---

(1) الخطابة . د/ عبد الجليل شلبي . ص ٨٧ .

وأخيرا : نُذكِّر بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : « **إنما أنا بَشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكونَ ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضِيَ له على نحو ما أسمعُ ، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذْه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار** » [1] .

*****

(1) أخرجه البخاري في ك الحيل . ب ١٠ ، فتح الباري ١٢/ ٣٥٥ رقم ٦٩٦٧ ، ومسلم في ك الأقضية . ب بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن ، مسلم بشرح النووي ١٢/ ٤ رقم ١٧١٣، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

المبحث الرابع

الخطب العسكرية

وهي الخطب التي تُلقَى على الجنود في ميدان الجهاد ، لتحريضهم على قتال عدوِّهم ، وتحفيزِهم على الثبات والإقدام ، وحثِّهم على التضحية ، وبذلِ كل ما لديهم من طاقة قتالية لتحقيق النصر ، والظفر بالمطلوب .

وقد يلقيها القائد العامُّ للجيش أو مَن ينوب عنه ، وقد يلقيها كذلك قائدُ مجموعةٍ من الجيش تقوم بمهمة عسكرية .

وقد يلقيها أحدُ الدعاة ممن يناط بهم أمرُ توجيه الجنود معنويًّا ، فينتقل إلى مواقع الجنود وثُكُنَاتهم العسكرية ، ويخطب فيهم حاثًّا لهم على الاستبسال في القتال ، ومرغِّبًا لهم في الإقدام لنيل إحدى الحسنيين ؛ إما النصر وإما الشهادة ، ومرهِّبًا إياهم من التخاذل أو الفِرارِ من لقاء العدوّ ، ومحذِّرًا لهم من إيثار الدنيا على الآخرة .

ولا شك أن لهذا النوع من الخطب أهميتَه وخطورتَه ، فله دوره البالغ في إنهاض الهمم ، وبعث العزائم ، وتثبيت القلوب والأقدام ، وخاصة إذا كان الخطيب مُجيدًا ماهرا في خطبته .

ومما لا يختلف عليه اثنان أن تقوية الجانبِ المعنويِّ لدى الجنديِّ المقاتل ، لا تقل أهمية عن تقوية الجانب الماديّ ، إن لم تكن تفوقه ، بل إن النقص في الجانب الماديّ قد عوّضه وجبَره اكتمالُ الجانب المعنويِّ في معاركَ كثيرة ، والتاريخ الإسلاميُّ حافل بما يؤكد هذه الحقيقةَ ؛ فقد كان السواد الأعظم من معارك المسلمين مع أعداء الله تترجح فيها كفة الجانب الماديِّ للأعداء على كفة الجانب

المـاديِّ لجنـود الله ، لكـن هـذه الفجـوةَ في الجوانـب الماديـةِ بـين الفـريقين كـان المسلمون يتجاوزونها ويتغلبون عليهـا بقـوة الـروح المعنويـة التـي لا يوجـد لهـا مثيل عند غيرهم ، وهل يمكن أن تكون هناك قوةٌ معنويةٌ تفُـوق أو تماثِـل تلـك التي لدى المجاهدِ المسلم ، والتي تجعله يحرص على الموت أكثر من حرصه عـلى الحياة ؟ هيهات هيهات ، فلا يوجد شيء من هـذا إلا عنـد المجاهـدين في سـبيل الله ، الذين يجاهدون لإعلاء كلمة الله .

وينبغي على الخطيب في مقام الحرب أن يتّسِم إلقاؤه بـأكبر قـدرٍ مـن الحيويـة والـروح الحماسية ، إذْ لا يناسـب أن يتحـدث عـن الجهـاد والقتـال والـشجاعة والإقدام ، ونحو هذه المعاني بإلقاء فاتر .

وعليه أن يستثير مشاعر الجند ، ويخاطبَ فيهم الوجدان، ويلامسَ القلوب، فيذكِّرَهم بما أعدّه الله للمجاهدين المخلصين من الأجر والمثوبة ، وبـما أكـرم اللهُ به الشهداءَ من الدرجات العُلا ، والمنـازل الكريمـة ، ويحـذِّرَهم مـن عقـاب الله الذي توعّد به المتخاذلين والفارّين المدبرين .

وعليه أن يستنهض هِممهم ، ويُقوِّيَ من عزائمهم بتذكيرهم بما هـم فيـه مـن قوة بإيمانهم بالله تعالى، وأخْذِهم بالأسباب، وبـما عليـه أعـداؤهم مـن عـصيان الله، وأنهم يقاتلون لله ، بينما عدوهم يقاتلون للدنيا .

ولْيتجنبِ الإطالة في خطبته ، فهذا لا يتناسب مع المقام .

كما يَحسُن بالخطيب أن يراعيَ وضوحَ الأسلوب ، وقُـربَ المعـاني ، وبـساطةَ الألفاظ ، ليتمكن عامّةُ الجند من استيعابها ، والانفعالِ بها ، والتأثر بمعانيها .

المبحث الخامس

الخطب المحفلية

وهـي الخطـب التـي تُلقَـى في المحافـل لتكـريمٍ أو تـأبين ، أو في تهنئـةٍ بنعمـةٍ خاصةٍ أو عامة ، أو في علاج مشكلة اجتماعية (١) .

وهـذا النـوع مـن الخطـب ــ كـما هـو واضـح ــ تتنـوع موضـوعاته بحَسَب المناسبة أو المقام الذي تُلقَى فيه ، بـل إن خطـب المحافـل يمكـن أن تُلحَـقَ بـأيِّ قسم من الأقسام الـسابقة ، فـإذا كانـت في محفـل سياسيٍّ كانـت سياسـيةً ، وإذا كانـت في صـلح أو زواج ، أو تَختص بدراسـة مـشكلة مـن مـشكلات المجتمـع وتلتمس لها العلاج ، كانت اجتماعية .. وهكذا .

وإذا كان لكلّ مقامٍ منها خصائصُه ؛ فإننا نُذكّر الخطيبَ الداعيةَ إذا وقـف في مناسبة منها بأن لا ينسى دعوته ومبادئها ، فإنه ـ كما سبق ـ لـيس مجـردَ خطيـبٍ يمتع الأسماع ، ويستثير المشاعر والأحاسيس ، ثم يسفر الموضوع عن لا شيء ، إنما هو صـاحب دعـوة في المقـام الأول والأخـير ، فهـو يعمـل لخدمـة مبادئهـا ، سواء أكان في مناسبة زواج ، أم مناسبة تهنئة وتكريم ، أم مناسبة عزاء وتأبين .

وقد ذكر علماء الخطابة أنواعًـا للخطابـة المحفليـة ، وفي رأيـي أنهـا يمكـن أن تشمل صورًا وأنواعًا كثيرة ، فالمناسبات لا تنتهي وتكاد لا تنحـصر ، حيـث إن كل عصر يظهر فيه من المناسبات والأحوال ما لم يكن معروفًا في سابقه ، وعـلى

---

(1) فن الخطابة ، د/ أحمد الحوفي . ص ٨٤ .

أيّة حال فمما ذكره العلماء من صور الخطابة المحفلية وأنواعها ما يأتي :

١ـ خطبة التكريم والمديح : « وهي التي تُقال ثناءً على عظيم ، أو ذوي الفضل ، ومهمة الخطيب أن يبرز سماتِ عظمةِ المكرَّمِ وفضلَه » (١) .

ومما يَحسُن أن يراعيَه الخطيبُ في هذا المقام ما يلي :

ـ أن يعتدل في مدحه ، فلا يسرفْ في الثناء .

ـ وعليه كذلك أن لا يتجاوز الصدق ، فلا يحمله حبُّه للممدوح المكرَّم أو الرغبةُ في المجاملة على ذكر أشياء ليست حقيقية ولا واقعية .

ـ كما ينبغي أن يركز على الصفات الأخلاقية الطيبة ، ويربطَ نجاحَ المكرّمِ بتخلقه بمثل تلك الأخلاق النبيلة ، ويدعو الحاضرين إلى التمسك بكل القيم السامية ، والأخلاق الفاضلة .

٢ـ خطبة التأبين : « وهي الخطبة التي تُلقى على قبر الراحل العظيم أو المتوفَّى العزيزِ ، أو في حفل تأبينِه ، أو ذكرى وفاتِه ، فيبيّنُ الخطيب عظيمَ الفجيعة فيه ، ويعدِّدُ مناقبه ، ويجلي آثارَه ، ويواسي آلَه وأحبابَه » (٢) .

وأجزاؤها ثلاثة : الثناءُ على الفقيد بذكر فضائله وأعماله الصالحة ، وتسليةُ ذويه وأحبابه ، وحثُّ السامعين على أن يجعلوا أخلاقه الكريمة وأعماله النافعة إمامًا يتبعوه وهاديًا يهتدون به (٣) .

---

(1) السابق ، ص ٨٥ .

(2) فن الخطابة ، د/ أحمد الحوفي . ص ٩٠ .

(3) فن الخطابة ، علي محفوظ ص ٧٢ .

٣ـ **خطب الزواج** : وهي من الخطب المحفلية الاجتماعية ، ويستحب فيها أن يكون الحديث عن الزواج وما يتعلق به من أحكام وآداب ، وعن منهج الإسلام في بناء البيت والأسرة ، وكيفية الوقاية من المشكلات الزوجية وعلاجها ، وتربية الأولاد ، والدعاء للعروسين بالخير والبركة ، ونحو ذلك من الموضوعات .

٤ـ **خطب الصلح بين المتخاصمين** : وهي التي تلقى في محفل الإصلاح بين فريقين أو طائفتين ، وحصول الألفة والوئام والرِّفاء ، ليصير الجميع إخوانًا متحابين .

وهي من الخطابة الحفلية الاجتماعية ، والبعض يُلحِقها بالخطابة القضائية ، ويركِّز الخطيب فيها على إصلاح ذات البين ، وحثِّ الإسلام عليه ، والتنفير من العداوات والبغضاء ، والقتال وسفك الدماء ، والترغيب في العفوِ والتسامح والصفاء ، مدعِّمًا كلامَه بالأدلة القرآنية والنبوية ، والشواهد التاريخية ، والأمثال وغيرِها ، حتى يُلينَ اللهُ به القلوبَ ويَهدِيَ به النفوسَ ، وتنطفئَ نارُ العداوات والبغضاء .

*****

المبحث السادس

خطب الوعظ الديني

وهي الخطب التي تُعنَى ببيان مبادئ الدين الإسلاميِّ، وتعاليمِه وأحكامِه، ودعوةِ الناس إليها، وتحذيرِهم من غيرها، كما تهتم ببيان حكم الشرع الإسلاميّ في الأمور المختلفة، فهي أمْرٌ بكلّ معروفٍ أرشد الإسلام إليه، ونهيٌ عن كل منكر حذر منه، وهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون في جميع نواحي الحياة، وسائر شؤون الخَلق المعاشية والمعادية.

أهميته وضرورته

هذا؛ وإن حياة الناس لا تستقيم بدون الوعظِ الدينيِّ، والدعوةِ إلى الخير، والتحذيرِ من الشر، ولولا وجودُه لاندرست معالم الدين، والتبس على الناس الحلال بالحرام، فحاجة الناس إليه مُلِحّة ودائمة، إذِ الغافلُ محتاجٌ إلى من يُذكّره، والجاهلُ مفتقرٌ إلى من يعلّمه، والمتذكِّرُ بحاجة إلى من يثبّتُه ويؤازره، والعاصي أشدُّ الناسِ احتياجا إلى من ينصحه ويقوِّمه، ومن هنا أوجبه الله ﷻ فقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقد جعل الله الأمةَ الإسلاميةَ خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، بكوْنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

والأمة التي تترك هذا الواجب تستحق اللعن ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ـ ٧٩] .

فقد علل الله استحقاقَهم اللعنَ بتَرْكِهِمُ النهيَ عن المنكر .

وعن دُرّةَ بنتِ أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أيُّ الناس خير ؟ فقال ﷺ : « **خير الناس أقرؤهم وأتقاهم ، وآمرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلُهم للرحم** » (١) .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجلُ يَلقَى الرجلَ فيقول : يا هذا اتق الله ودَعْ ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوبَ بعضهم ببعض ، ثم قال :** ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾ **إلى قوله :** ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ـ ٨١] » ، ثم قال : « **كلا والله لَتأمُرُنّ بالمعروف ولَتنهَوُنّ عن المنكر ، ولَتأخذَنّ على يد الظالم ، ولتأطِرُنّه (٢) على الحق أَطْرًا ،**

(1) رواه أحمد في المسند ٧/ ٥٨٤ ، رقم ٢٦٨٨٨ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٣) وعزاه إلى أحمد والطبراني ، وقال : ورجالهما ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر .

(2) أي تعطفوه على الحق : النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير (١/ ٥٣) تحقيق طاهر أحمد الزاوي محمود الطناحي ، دار الفكر بيروت .

ولَتَقْصُرُنّه على الحق قَصْرًا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » [(١)] .

يقول الإمام الغزالي : « فإن الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طُوِي بساطُه وأُهمِل عِلمُه وعَملُه لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخرِبت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد » [(٢)] .

وهكذا تلوح لنا أهمية الوعظِ الدينيِّ الذي هو في جوهره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومكانتُه في الشرع الحنيف ، وضرورتُه في حياة العباد .

مكانة الخطابة الوعظية ، وشرف الواعظ

ثم إن للخطابة الوعظية مكانةً لا تدانيها مكانة بين الأقسام الأخرى للخطابة ، ويكفي الواعظَ شرفًا أنه يقوم بما كان يقوم به صفوة البشر ، وأفاضل الخلق ، وهم الأنبياء والرسل صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين ، فوظيفته امتداد لوظيفتهم ، وعمله استمرارٌ لعملهم ، ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الواعظ الداعيةَ إنما هو نائب عن الرسول ﷺ ، ووكيل عنه في التبليغ

(1) رواه أبو داود في ك الملاحم ، ب الأمر والنهي رقم (٤٣٣٦ ، ٤٣٣٧) ، والترمذي في ك التفسير ، سورة المائدة رقم (٣٠٥٨ ، ٣٠٥٩) ، وقال : حسن غريب ، والطبراني من حديث أبي موسى ، كما في مجمع الزوائد (٧/ ٣٦٩) ، وقال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح .

(2) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، ٢/ ٣٣٣ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

والدعوة إلى الخير ، وبيانِ شرع الله إلى الناس ، لينصلح به أمر معاشهم وأمر معادهم ، وليفوزوا بسعادة العاجل والآجل .

كما أن لخطب الوعظ الدينيِّ منزلةً خاصةً من بين سائر أنواع الخطابة ، حيث إنها تتعلق بالدين ، وتدور في فلكه ، وتدعو باسمه وتهدي إليه ، وتعمل على ربط الناس بالله ربِّ العالمين ، وتعبيدهم له سبحانه دون سواه ، وتبغي انتشالهم من أوحال المادية إلى إشراقات الروحانية ، ومن مستنقعات الرذيلة إلى رياض الفضيلة ، فهي « دائمًا ذاتُ مغزىً شريفٍ ، وأغراضٍ سامية نبيلة ، لأنها دائمًا تلفت الذهن إلى الجزاء الأخرويِّ ، وتحذر من الحساب على الأعمال ، وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى ، فهي بهذا ترفع الإنسان عن الأغراض المادية وتتسامى إلى المعنويات .

والخطبة السياسية تدور حول أعمال مادية بحتة ؛ من إنشاء مشروعات مثمرة ، أو تنمية الزراعة ، وتنشيط التجارة وما إلى ذلك ، والخطبة القضائية تدور حول تبرئة شخص أو عقوبته ، وقل مثل ذلك في الخطب الأخرى ، فهي جميعًا تدور حول أمور دنيوية ، أما الخطبة الدينية فتشمل ذلك كله ، ولكنها تربطه بجزاء أخرويٍّ من الله تعالى ، وهذا ما عبر عنه الشراح بقولهم : الخطبة الدينية تتجه بالإنسان إلى السماء ، حيث تربطه الخطب الأخرى بالأرض ، وتسمو به إلى المعنويات حين تهبط به الخطب الأخرى إلى الماديات ، والفرق بين الاتجاهين بعيد وواسع جدًا » [1] .

---

(1) الخطابة د/ عبد الجليل شلبي (ص١٠٩، ١١٠) .

والـواعظ الـديني ــ وخاصـة إذا اتـصف بـالإخلاص والعلـم والتقـوى والإجادة ـ له مهابة في النفوس ، وتوقير واحترام من النـاس ، لما فطـرت عليـه النفوس من احترام للدين ، وميلٍ إليه ، ولما للعقيـدة الدينيـة مـن سـلطان عـلى المشاعر ، حتـى مِـن غـير الملتـزمين بالـدين والمتمـسكين بتعاليمـه ، فـتراهم في جملتهم يجِلّون الدعاةَ إلى الله ، وأهلَ الصلاح والخير ، ويقدرونهم .

وعلى مـن يقـوم بـالوعظ الـديني ، ويتـصدى للأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر أن يكون ملـمًّا بقواعـد فـن الخطابـة ، ويتـزودَ بالثقافـة الـشاملة ، ويـتحلى بالأخلاق الفاضلة ، وما ذكرناه في فصل مقومات الخطيب وعدته ينطبـق عـلى مقومات الواعظ الديني وصفاته ، بل هو ما نعنيه بالدرجة الأولى ، فليراجع ما ذكر هناك .

تنوع خطب الوعظ الديني

ويقرر الشيخ أبو زهرة أن خطبَ الوعظِ الدينيِّ تتشعب إلى أربع شعب [1]:

أ ـ خطب الدعوة إلى الإسلام أو الدفاع عنه .

ب ـ خطب التعليم الديني للعامة .

جـ ـ خطب تثبيت الإيمان في النفوس .

د ـ خطب إصلاح العيوب والنهي عن المنكرات .

أ ـ أما النوع الأول : فلا يتصدى له إلا الواعظُ المتمكنُ من عمله ، صـاحبُ العقـلِ الـذكيِّ ، والخـبرةِ بـشؤون الجماعـات وأحـوالِ الأمـم ، والإلمـامِ بالملـل

(1) الخطابة لأبي زهرة ص ٢٠١ وما بعدها .

والنحل والأديانِ المخالفة للإسلام ، ليكون على بينة من صحيح العقائد وسقيمها ، ولتكون دعوته ومناظرته على بصيرة من أمره .

وينبغي أن يكون مرِنًا على الجدال قويَّ الحجة ، حاضرَ الدليل .

وعند عرض الإسلام على قوم يبين لهم ما يكون أقرب إلى نفوسهم وقلوبهم من مبادئه ، فمثلًا إذا تحدث مع قوم من السود في أمريكا ركّز لهم على قيم المساواة في الإسلام ، واحترام إنسانية الإنسان، وأن الناس أمام القانون سواء ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فإذا أقبلوا على الإسلام ، وشرح الله صدورهم له ، عرض عليهم بعد ذلك مبادئه وأحكامه وتشريعاته وأسراره وهكذا .

وإذا اضطر إلى الموازنة بين الإسلام وبين غيره من الأديان ، وخاصة دينَ من يدعوهم ؛ تحلى بعفة اللسان ، وتجنبَ السبَّ والطعن ، حتى لا يدفع مُناظِرَه إلى التطاول على الإسلام ، ولْيتأدبْ بأدب القرآن وتوجيهاته ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، وقوله جل شأنه : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] .

ب ـ وأما خطب التعليم الديني للعامة : فهي عبارة عن دروس دينية يلقيها الواعظ على العامة ، يعرفهم فيها أصولَ دينهم ، والأحكامَ الشرعيةَ العمليةَ التي يدعو إليها ، والفضائلَ الخلقيةَ التي يحث عليها ، ويجعلها أسًّا لقيام

الجماعةِ الإسلاميةِ الفاضلة [١] .

والإسلام الحنيف عبارة عن عقائد وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق ، أو هو عقيدة وشريعة وأخلاق ، ولذلك فالدروس التعليمية إما أن تتناول جانبًا من جوانب العقيدة ، أو جانبًا من جوانب الأحكام التشريعية ، سواء أكانت عبادات أم معاملات ، أو جانبًا من جوانب الأخلاق .

وعلى الواعظ أن يبتعد في دروسه عن الخوض في شروح فلسفية تسمو على مدارك العامة ، وقد توقعهم في التخبط لعدم فهمهم واستيعابهم لها .

ولْيتجنبِ المواضعَ الخلافيةَ ، قدر الطاقة ، ولايشتّتِ الناس معه في دروب الخلاف وشعابه ، ولْيجعلْ مَرجعَه الكتاب والسنة في كل ما يعرض له من قضايا عقدية على وجه الخصوص ، وليعرضها على الناس بإشراقها وعظمتها .

ويشير الشيخ علي محفوظ إلى أمر هام في هذا الصدد ، وهو أن تساق الأحكامُ وغيرها مما تتناوله الخطب التعليمية مساق الوعظ الذي يلين القلوب، ويبعثها على العمل ، لا أن تُسرَد سردًا خاليًا من وسائل التأثير ، وهذا واضح لمن تدبر أسلوب القرآن الكريم [٢] .

وهذا حقٌّ ؛ فإذا تدبّرنا ـ بعضَ الشيء ـ في سورة الطلاق ، وهي تقرر أحكامًا في شأن انفصام عرى الزوجية ، ووقوع الطلاق ، وتطالب المسلمين

---

(1) راجع الخطابة لأبي زهرة ص ٢٠٤ وما بعدها .

(2) انظر هداية المرشدين . ص ١٤٣ وما بعدها .

بالالتزام بها ، اتضح لنا كيف تُساق هذه الأحكامُ في أسلوب يُلِين القلوب ويهذب النفوس ، ويذكّر بالله تعالى ، ويحمل على الامتثال لتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وذلك من خلال الوصية بالتقوى والتذكير باليوم الآخر في ثنايا تقرير تلك الأحكام وفرضها .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ [الطلاق:١ـ٥] .

ج ـ وأما خطب تثبيت الإيمان وتقويته ، فيتجه إليها الخطيب لتثبيت دعائم الإيمان في قلوب المهتدين ، وليُلقِي في نفوسهم الحماسةَ لدينهم ، ليستمسكوا بعروته ، ويجيبوا دعوته ، وهذه الخطب يركز فيها الخطيب على الحديث عن فضائل الإسلام ، وبيان كيف أنه طريق المجد والعلو في الدنيا والآخرة ، ثم

يتحدث عن بعض آيات القرآن الكريم المتعلقة بالإيمان وأوصاف المؤمنين وجزائهم ، وعوامل زيادة الإيمان ونقصه ، وليذكر ما في القرآن من قصص ومواقف إيمانية ، مثل مواقف سحرة وامرأة فرعون ، وأهل الكهف ، ومؤمن آل فرعون ، وأصحاب الأخدود ، وغيرهم ، ثم يتحدث أيضًا عن سير الصالحين وتابعيهم بإحسان من الذين خالطت بشاشةُ الإيمان قلوبَهم ، ولم يخضعوا لغير الله رب العالمين ، من زمن الصحابة إلى يوم الناس هذا ، ففي ذكر سيرهم ما يثبت قلوب المؤمنين ، ويقوي إيمانهم .

ومما يكون له أثر في تثبيت الإيمان كذلك ؛ الحديث عن آيات الله الكونية والإنسانية ، وعظمة قدرته ، وبالغ حكمته في الخلق ، في الأنفس والآفاق ، وهكذا يطرق الخطيب الموضوعات التي تحقق هدفه ، وتبلغ بالمدعوين إلى ما يريد .

د ـ وأما خطب الإصلاح ومحاربة المنكرات ، ففيها يتجه الخطيب الواعظ إلى إصلاح العيوب الشائعة ، فقوام هذه الخطب محاربة المنكرات ، ومقاومة الفجور ، ومنع الفواحش من أن تشيع في الذين آمنوا [(١)] .

وحتى يصل الخطيب إلى غايته ، ينبغي أن يراعي أمورًا مهمة ، منها :

١ ـ أن يجعل الخطبة متصدية لعيب واحد لا تعدوه ؛ لأنه لو تعرض لعدة عيوب ، لضعف التأثير ، وما وصل إلى غرضه ، ولذا يؤخذ على بعض خطباء المساجد أنهم في كل خطبة من خطبهم ينهون عن المعاصي جملة واحدة ، أو

---

(1) راجع الخطابة لأبي زهرة ، ص٢٠٧ وما بعدها .

يحصونها إحصاء ، ويكررون ذلك في كل جمعة ، والعاصي مستمر في غيّه ، لاهٍ عن وعظهم ، ولو خصصوا خطبهم بدلًا من أن يعمموا لأجدى كلامهم ، ولأفاد وعظهم ، ولوصلوا إلى بعض ما يريدون .

٢ــ أن يبدأ الواعظ في خطبه بأكثر المعاصي خطرًا ، وأعظمها في الدين نكرًا ، وينهى الناس عنه ، حتى إذا اطمأن إلى نفورهم منه اتجه بخطبه اتجاهًا آخر ، وهكذا حتى يثمر وعظه ـ إن شاء الله ــ ، ولْيركزْ دائمًا على « المنكرات الفاشية » ولاسيما ما كان منها قريب العهد ، وحديثه على ألسنة الناس ، أو ذائعًا في الصحف » [(١)] .

٣ـ عندما يعظ الناس بالنهي عن المنكر ، يعمد إلى تنفيرهم منه ، ببيان مضاره التي تحيق بمرتكبه وتهلكه ، ثم مضاره على المجتمع ، ويصور حال بعض المجتمعات التي فشا فيهم هذا الوباء الذي يحذر منه ، وكيف أحلّهم دار البوار ، ثم يبين حال المجتمع إذا تطهر عن مثل هذه الأوبئة والمنكرات وبرئ منها ، مع ضرب الأمثال ببعض المجتمعات النظيفة ، مثل مجتمعات سلفنا الصالح ، التي كانت مضرب المثل في الطهر والنقاء والسعادة والتي قلّ أن يجود الزمان بمثلها ، وهو في كل هذا لا يُغْفِل ـ بالطبع ـ الاستشهاد من القرآن والسنة ، وبيان النصوص التي ترَهِّب وتحذر من المنكرات ، بشتى الأساليب .

أسباب ضعف الخطابة الوعظية :

والواقع أن الخطابة الوعظية الآن ليست في مستواها اللائق بها ، فقد اعتراها الوهْن وقلّت فائدتها ، وضعفت ثمارها ، وكان لهذا الضعف أسباب

(1) هداية المرشدين ، ص ١٤٦ ، والخطابة لأبي زهرة (الموضع السابق) .

كثيرة ، منها ما يعود إلى الخطيب الدينيِّ نفسِه ، ومنها ما يعود إلى البيئة والمجتمع ، وهكذا نرى أسباب المشكلة تعود لأكثر من طرف ، وليس من الإنصاف والموضوعية أن نُلقِيَ باللائمة على طرف وحده ، بل يجب أن يتحمل كل طرف مسؤوليته ، ويتخلصَ من تقصيره ، وينهضَ بواجبه .

ونحن في هذه الصفحات القليلة لا نستطيع أن نستقصيَ كلَّ أبعاد المشكلة ، ونأتيَ عليها جميعًا ، إذ المقام لا يسمح بهذا ، ولعل الله يهيئ فرصة أخرى ، يُعالج فيها هذا الموضوع بما يستحق ، ونكتفي هنا بذكر بعض الأسباب على النحو التالي :

أولا : الأسباب التي تعود إلى البيئة :

أ ـ وجود أنظمة حاكمة ذات توجه غير إسلامي في بعض البلاد الإسلامية :

فقد برزت في بعض البلاد الإسلامية بعد رحيل الاستعمار الغربي عنها ، أنظمة حاكمة ذات توجهات معادية للإسلام ، سواء أجاهرت بتوجهاتها أم أخفتها ، وإلى الآن توجد بعض الأنظمة الشيوعية ، وبعض الأنظمة ذات توجه علماني ، وبعض البلدان الإسلامية تحكمها أنظمة غير مسلمة بالمرة مثل : أثيوبيا ، فهذه الأنظمة وما يدور في فلكها تعادي الإسلام ، ومن ثم لا تسمح بانتعاش الخطابة الإسلامية ذات المضمون الإسلامي ، وتضع في وجهها العراقيل ، وفي وجه الدعاة المعوقات ، والتي من مظاهرها :

١ ـ التحكم في أرزاق الخطباء والدعاة ، حتى يدوروا في فلك هذه الأنظمة ، ولئلا تكون الخطابة حرة طليقة ، فيخضع الخطباء لأوامر

وتوجيهات من بيده المرتبات والمعاشات والترقيات ، خوفًا على أرزاقهم وأقواتهم ومن يعولون .

ولا يغيب عن الذهن ما أقدمت عليه حكومة الثورة في مصر بعد إقصاء محمد نجيب في عام ١٩٥٤م ـ تلك الحكومة التي كانت تتبنى التوجه الشيوعي ـ بقيادة جمال عبد الناصر ، الذي كان أول من مكّن للفكر الشيوعي ، وخاصة في المجال الاقتصادي في البلاد العربية ؛ لا يغيب عن البال ما قامت به من الاستيلاء على أوقاف الأزهر ومصادرتها وضمها إلى الدولة ، وجعل مرتبات العلماء ومعاشاتهم تابعة لها ، بعد أن كان العلماء يتعيشون من أموال الأوقاف ، بعيدًا عن تحكم الدولة وسلطانها ، فكانت ضربة موجعة لحرية الكلمة ، وحرية الواعظ الديني في تناوله للموضوعات ، ومعالجته للمشكلات ، وسبيلًا لإشغال الدعاة بتحصيل المعاش بدلًا من تأمينه لهم .

٢ـ إصدار القوانين الجائرة المقيدة لحرية الدعاة ، والمهدِّدة لهم :

فقد تفننت تلك الأنظمة في وضع القوانين التي تجعل الوعظ الديني محصورًا في نطاق ضيق جدًا ، لا يتخطاه إلى غيره ، وهو نطاق الحديث في الأمور التعبدية والجوانب الروحية فقط ، وأصبحت التهم جاهزة ومقننة لمن يتكلم في أمور أخرى مثل : الحرية والعدل والظلم والاقتصاد والسياسة ، وبموجب تلك القوانين يحاكم الوعاظ والدعاة ، ويتعرضون للسجن والتشريد ، والإيقاف عن ممارسة الدعوة إلى الله ، بل قد يصل الأمر بقتل بعض الدعاة ، لا لذنب إلا لأنهم خرجوا عن النطاق المحدد ، وتجاوزوا الخطوط الحمراء ، من وجهة نظر بعض تلك الأنظمة ، أو لأنهم لم يُطوِّعوا

الإسلام ، ويلووا أعناق النصوص بما يخدم تلك التوجهات غير الإسلامية ، ولا يخفى ما تحدثه تلك القوانين الجائرة من آثار ضارة على حركة وعافية الدعوة إلى الله ، وخاصة جانب الوعظ الديني.

٣ــ إفساح المجال لدعاة التيارات المعادية للإسلام :

وفي مقابل سن القوانين الجائرة في حق الدعاة والخطباء والوعاظ الإسلاميين ، نجد إفساحَ المجال لدعاة التيارات المعادية للإسلام ، وتسهيلَ حركتهم ، وتعبيدَ الطريق أمام أفكارهم ، والإلحاح على الناس بعرضها وتزيينها وتزويقها ، في الأوقات المناسبة وغير المناسبة ، وبالوسائل المشروعة وغير المشروعة .

ففي بعض البلاد الإسلامية لا صوت يعلو فوق صوت الشيوعيين ، وفي أخرى لا أحد أكثر نفيرًا من العلمانيين ، وفي ثالثة لا أحد يستطيع مراجعة التغريبيين الذين يتبجحون بدعوة الناس إلى تقاليد الغرب البالية ، وأخلاقه الهابطة النازلة ، والنيل من قيمنا الإسلامية ، بل صار يُفْسَح المجال لدعاة الفسوق والعصيان ، يجاهرون بمعاداة الله ورسوله ، ويسخرون من الشرع وآدابه ، ويقررون العادات الجاهلية ، ويسعون لتأصيلها حتى لَيخيَّلَ للمرء بأن الجاهلية هي الأصل ، وأن قيمنا الإسلامية هي الدخيل الذي يجب أن يُطرد ويُحارب !!

« قالت أمينة السعيد : إن هذه الثياب الممجوحة قشرة سطحية ، لا تكفي وحدها لفتح الجنة أو اكتساب رضا الله ، فتيات يخرجن إلى الشارع والجامعات بملابس قبيحة المنظر يزعمن أنها(زي إسلامي) ، لم أجد ما يعطيني مبررًا

منطقيًا معقولًا لالتجاء فتيات على قدر مذكور من التعليم إلى لف أجسادهن من الرأس إلى القدمين بزِيّ هو والكفن سواء »[١] .

وفي وسط هذا الضجيج وذلك النفير يخفت صوت الوعظ الديني ، ويضعف أثره ، وتقل ثماره ، خاصة وأن تلك التيارات المعادية وما تفرزه من أفكار هدامة تُسخَّر لها أجهزة إعلامية وتوجيهية رهيبة عاتية ، تلاحق الناس في أنديتهم وأسواقهم ، وأعمالهم وبيوتهم ، بل وتقتحم عليهم خلواتهم ، وتتسلل إلى مخادعهم ، نافثة سمومها الناقعة .

٤ ـ الحطّ من أقدار العلماء والدعاة إلى الله :

وفي ظل الأنظمة ذات التوجه غير الإسلاميّ ، لا يكون هناك تورّع عن النيل من كرامة العلماء ، والحط من أقدار الدعاة الإسلاميين ، وفي مقابل ذلك يكون هناك إعلاء من شأن ذوي الأفكار المعادية للإسلام من العلمانيين والشيوعيين والمتغربين والقوميين وغيرهم .

خطب جمال عبد الناصر صاحب التوجه الشيوعي في يوليو ـ تموز ـ عام ١٩٦٩م ، ونال من قدر العلماء في خطبته تلك ، فكان مما قال : « إن رجال الدين يصدرون فتوى بفرختين ، وأنهم أُجَراءُ للرجعية ، أُجَراءُ للإقطاع أُجَراءُ للرأسمالية »[٢] .

فإذا كان مثل هذا التطاول والسفه يصدر عن رئيس مصر الأزهر فماذا

---

(1) الصحافة والأقلام المسمومة ، أنور الجندي ، ص ٤٧ ، دار الاعتصام ، القاهرة ، نقلًا عن مجلة حواء ١٨ نوفمبر ١٩٧٢ .

(2) التضليل الاشتراكي ، د/ صلاح الدين المنجد ، ص ١٠١ ، الطبعة الثالثة .

يُنتظر ممن سواه ؟! وكيف يكون حال أجهزة الإعلام التابعة للدولة ؟!

لاشك أن هذا يشجع الساقطين والساقطات ، ومَن في قلوبهم مرض ، ويُجرّئُهم على إهانة العلماء ، وهو ما حدث ولا يزال يحدث إلى الآن في كثير من وسائل الإعلام والثقافة .

فقد « نشرت جريدة صباحية كاريكاتورية رسمًا للاعب كرة ، وهو يضرب عمامة أحد علماء الأزهر بدلًا من كرة القدم » (1) .

ونحو هذا كثير من الصور التي تحط من قدر المشتغلين بالدعوة إلى الله ، وتذهب بهيبتهم ووقارهم ، وتضعف من تأثيرهم في نفوس الناس ، تطفح به أفلام ومسلسلات ومسرحيات وكتابات ، كل هذا في الوقت الذي لا يمكن أن يُرَى فيه أحدٌ من رجال الدين غير المسلمين بمثل هذه الصورة المهينة ، وهكذا يهان علماء الدين الإسلامي وحدهم في بلاد المسلمين ، ويحقر من شأنهم عبر وسائل الإعلام في المجتمع .

ب ـ تركُ الإعداد المتكامل للدعاة الإسلاميين من قبل بعض مؤسسات الدعوة :

والمفترض أن يعد الدعاة إعدادًا متكاملًا ، يتناسب مع خطورة المهمة التي تناط بهم ، لكننا نلحظ قصورًا في هذا المجال من قبل بعض مؤسسات الدعوة في البلاد الإسلامية ، مما يجعل المتخرج منها ضعيفًا لا يؤدي مهمته في الوعظ بجدارة ، فهو لم يعدَّ فَنّيًّا فيما يتعلق بالخطابة، ولم يعدّ الإعداد العلمي المناسب ، وفوق هذا لم يؤهل نفسيًا للاضطلاع بالوعظ والدعوة إلى الله .

---

(1) الصحافة والأقلام المسمومة ، ص ٢٣١ .

وأنا أعرف بعض الكليات التي يناط بمن يتخرج منها مهمة الوعظ والدعوة ، يساق الطلاب إليها سوْقًا ، وبعضهم يدخلها رغم أنفه ، بعد ما انقطعت به السبل ، وعجز عن مواصلة الدراسة في الكليات الأخرى ، ووقفت في وجهه اللوائح ، فلا يجد أمامه بُدًّا من دخول كليات الدعوة أو أصول الدين ، ويواصل الدراسة فيها على شفى ، ويسير فيها بتعثر ، ويرقى من سنة دراسية إلى أخرى بصعوبة شديدة ، حتى يتخرج على تلك الحال ، ولم يُحصّل علمًا ذا بال ، ولم يُخرج بعُدّة أو زاد ، ليجد نفسه بعد ذلك موظَّفا ـ على كُره منه ـ خطيبًا وواعظًا ومدرسًا للناس في المساجد وغيرها ، فأنَّى لمثل هذا أن يُجيد في عمله ، ويكونَ مصدرَ جذب للناس من حوله ؟!

ومن مظاهر عدم الإعداد المتكامل للدعاة ؛ إهمال التدريب العمليّ في الكليات والمعاهد المناط بها تخريجهم ، والمطلوب أن يؤخذ هذا الأمر في الاعتبار بجدية وعزيمة صادقة ، وأن يتم هذا التدريب في الميدان الذي سيكون مضمارَ عمل الخطيب فيما بعد ، وساحةَ الوعظ والخطابة في المجتمع مثل المساجد ، والمصانع ، وأماكن تجمعات الناس ، والمدارس ونحوها من الأماكن التي سوف يمارس فيها الخطيب الواعظُ الدعوةَ إلى الله بعد تخريجه وتعيينه ، والعجيب أن يكون أمر التدريب العمليِّ مهمَلًا بالنسبة لمجال الدعوة ، في حين أنه لا يهمل في باقي المجالات ، كالتدريس والتمريض ، والطب وغيرها .

إن مثل هذا القصور في إعداد الدعاة والوعاظ المرشدين ، والعملَ على حشدهم لمهمة الوعظ أرادوا أم أبَوْا ، لاشك يسهم في تخلف الوعظ الديني ،

وإضعاف شأنه ، وضمور ثمرته .

ج ـ عدم وجود معاهد لإعداد الخطباء الدعاة المتخصصين في بعض البلاد :

وإذا كان عدم الإعداد المتكامل لتخريج الدعاة مما يسهم في تخلف قافلة الوعظ الديني أو الخطابة الدينية ، فكيف إذا انعدم وجود المعاهد والمؤسسات الكفيلة بتخريج الدعاة ؟ لاشك أن هذا يُعجِّز حركة الخطابة الدينية ، ويعرقل مسيرة الوعظ ، كما هو الحال في كثير من البلاد الإسلامية التي تعاني تخلفًا كبيرًا في هذا المجال ، وينحصر القيام بمهمة الوعظ هناك في بعض الأفراد الذين يستعينون ببعض الكتب والدواوين يخطبون منها الجمعة والعيدين ونحوها ، ومستواهم الفني والعلمي هزيل ، وقد رحلنا إلى بعض تلك البلاد ، وكنا نسمع أحاديث عجيبة عن هذا الواقع ، وإن كان الأمر قد أخذ في التحسن في بعض البلدان ، بينما لا يزال على حاله في البعض الآخر .

د ـ إبعاد كثير من العلماء والوعاظ المجيدين عن الساحة لأهواء سياسية :

وقد ابتُلِيَت بهذا النهج عامة البلاد الإسلامية والعربية ، فكثيرًا ما صرنا نرى ونسمع عن حرمان ميدان الدعوة إلى الله من خيرة العلماء والدعاة ، لا لشيء إلا لأنهم يلتزمون في خطبهم ودعوتهم بعدم كتمان ما علمهم الله من العلم ، فيعرضون الإسلام بشموله ، ويتطرقون إلى الحديث في كل ما يتناوله الإسلام من شؤون الدنيا والآخرة ، لكن هذا لا يُرضِي زيدًا هنا أو عمروًا هناك ، لأن سياسة زيد وعمرو تريد حصر الوعظ والخطابة الإسلامية في زاوية صغيرة من الدين ، لا تتخطاه ، أو تريد أن يكون الوعاظ والدعاة أبواقًا

لسياساتهم ، تروّج لها ، وتضفي عليها الشرعية الدينية ، وتدافع عن القضايا التي يتبنونها بالحق والباطل في أي مجال من المجالات ، ومن لا يلتزم بهذه السياسة يُغَيّب عن ميدان الدعوة وتحرم منه الجماهير المسلمة ، ويوقف عن مباشرة الوعظ والخطابة بطرق شتى ، قد تصل إلى عزله من عمله في كثير من الأحيان ، وقد تتجاوز ذلك في بعضها .

ومما تفتقت عنه أذهان القائمين على الأمر في بعض البلدان التحكم في إعطاء التراخيص بمزاولة الخطابة ، حتى للمتخصصين ، فلا تمنح لمن يكون على هواهم ، ومن عداهم فلا ، ومن يخالف ويخطب بدون ترخيص يقع تحت طائلة القانون ، الذي بمقتضاه يحاكم ويعاقب بالسجن وبالغرامة ، حتى ولو كان من علماء الشريعة الإسلامية ، والأساتذة القائمين بتدريسها في المدارس والكليات الشرعية ـ وقد حدث هذا معي شخصيا في عصر المخلوع " حسني مبارك " لا ردّه الله ـ حتى غدت الساحة خُلْوًا من الدعاة والعلماء ، والوعاظ المؤثِّرين والخطباء الفصحاء ، وطفحت بكثير من غير ذوي التخصص ، وبعض الجهلاء ، وأشباه الخطباء ، ينعقون فيها كنعيق البوم في الخرائب .

ثالثا : الأسباب التي تعود إلى الخطيب :

أ ـ الضعف العلميُّ لبعض الخطباء :

إن هناك بعضَ الخطباء في ميدان الدعوة الإسلامية زادُهم العلميُّ قليل لا يسمن ولا يغني من جوع ، ولا تتوقف المشكلة عند قلة العلم ، بل إن المشكلة أن أحدهم لا يتجه لإنماء ثروته العلمية ، وتوسيع حصيلته الثقافية والمعرفية ، فلو أنه فعل ذلك لانتهت المشكلة ، فالعلم بالتعلم ، لكنه ـ للأسف ـ لا يريد

أن يتعلم ، أو يطوِّر من نفسه ، حتى يحترمه الجمهور ويثق في علمه ، ولـذلك لا تجد في خطب هـذا البعض عِلـمًا يجـذب النـاس إلـيهم أو يفيـدهم ، بـل تـرى الخرافات والإسرائيليات المنكرة ، والقصص المتخلِّفة ، ولا غرو ؛ فكـما يقـال : فاقد الشيء لا يعطيه ، والحوض الفارغ لا يفيض على غيره .

ولهذا الضعف العلمي مظاهر كثيرة ، منهـا ضـعفُ حفـظ القـرآنِ الكـريم ، وأحاديـثِ الرسـول ﷺ ، وضـعفُ المستوى الفقهـيِّ ، وعـدمُ الإلمـام بالثقافـة الشرعية في الجملة ، و الثقافةِ الواقعية والتاريخية وغيرها .

ب ــ الضعف الفنيُّ :

ولا شك أن الخطابة لا يكفي فيها مجرد الموهبـة أو الرغبـة ــ كـما سـبق ــ بـل لابد من تعلم القواعد والمبادئ الأساسية للخطابـة ، والتـي تأخـذ بيـد دارسـها لحسن العـرض ، وجـودة الإلقـاء ، وقـوة التـأثير والإقنـاع ، وإنـك لتجـد لهـذا الضعفِ الفنيِّ لدى كثير من الخطباء مظـاهرَ كثـيرة ، منهـا مـا يتعلـق بالإلقـاء ، والأسلوب ، وإعداد الخطبة وموضوعها ومضمونها ، ونحو ذلك .

فالإلقـاء ـ لـدى بعـضهم ـ لـيس فيـه جـذب أو إثـارة أو تـشويق ، يـصيب الجمهور بالملل والسآمة .

وبعضهم يختار موضوعًا بعيدًا عن واقع النـاس ، ولا صـلة لـه بـما يعايشونه من مشكلات .

والمضمون لدى البعض الآخر ليس محدَّدَ الفكرة ، بل متنـوع الموضـوعات ، والوحدة الموضوعية مفقودة ، والخطبة الواحدة تعالج مواضيع شتى ، لا يـربط بينها رابط ، على طريقة « من كل بستان زهرة » ، أو على طريقة « سمك ، لـبن ،

تمرهندي » ، ونحو هذا من مظاهر الضعف الفني الذي يهبط بمستوى الخطبة في نظر المستمع ، ويقلل من قدر الخطيب ويضعف تأثيره .

ج ـ اعتبار كثير من الخطباء أنفسهم موظفين ، وليسوا أصحاب رسالة :

وهؤلاء الخطباء كثير لا يتفاعلون مع الدعوة ولا يعيشون لها بكل كيانهم ، فلا يفكرون في وسائل النهوض بها ، وكيفية التغلب على العقبات التي تعترض مسيرتها ، ولا ينزلون إلى الميدان ، ويتحسسون أحوال المدعوين وواقعهم واتجاهاتهم فيكون التعامل على بينة ، ومن خلال الواقع والطبيعة وهكذا ، هم ليسوا كذلك ، ولا نِصفَه ولا رُبعه ، بل هم مجرد موظفين مكلفين بخطبة جمعة أو خطبة عيد أو درس هنا أو هناك ، فيكون كل همّ أحدهم أن ينفض عن كاهله ما كُلِّف به ، ويلقيَه على أي وجه ، وكيفما اتفق ، حتى يكون في نظر رؤسائه قد أدى ما يستحق عليه المكافأة والحوافز والمرتبات ، بل بعضهم لا يؤدي شيئًا ويحصل مالًا بدون عمل ، دونما تورع ، وهم لا رغبة لديهم في العمل ، ولا استعداد نفسيًا عندهم للقيام بتلك المهمة الشريفة .

إن مثل هؤلاء لا تنهض بهم الدعوة ، ولا ترتقي على أيديهم الخطابة الدينية، ولا يوجد لهم في قلوب الناس مكان أو مكانة ، وشتان بينهم وبين أصحاب الدعوة المخلصين ، الذين يحملون بين جوانحهم رسالة ، وفي أعناقهم أمانة يتحرون في الإتقان خدمتها وآدابها على أكمل وجه ، حتى يرضى الله عنهم ، وحتى يُمكّن لدين الله في الأرض ، ونُصب أعينهم حالُ الداعي الأول ﷺ الذي كان يتألم ، ويكاد فؤاده الشريف ينفطر حزنًا من أجل إعراض

قومه ، حتى قال له ربُّه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ [1] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦] ، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣].

أما أولئك الموظفون فيستوي عندهم آمن الناس أم لا ، أقْبلوا أم أعرضوا ، ظهر الفساد أم سرى الهُدَى !!

د ـ التفريط في الالتزام بمكارم الأخلاق :

وكما قلنا سابقًا : إن الخطيب الديني هو محل أنظار الناس ، وتكاد تكون جميع تحركاته موضعَ ملاحظة الجمهور ، فإذا كان ذا خلق كريم ، هابَه الناس ، وأكبروه ، وأقبلوا عليه ، أما إذا كان غير ذلك نفر الناس منه ، وتلاشى تأثيره في المدعوين ، وفوق هذا أساء إلى الوعظ والوعاظ ، وكان عاملًا في إضعاف شأنه ، وقَدْر القائمين عليه .

وللأسف فإن هناك بعضَ الخطباء والعلماء لا يتورعون عن إتيان بعض الأخلاق الممقوتة ، والخصال المستهجَنة .

وكم يحزّ في النفس أن نرى هذا العالم أو ذاك من علماء الدين ممن يتصدون للوعظ والإرشاد ليس قدوة أمام الناس في نفسه ، وأهل بيته ، فتراه على أقلِّ تقدير يُدخِّن في غدوه ورواحه ، كما ترى أهله وبناته لا يلتزمن بالحجاب الذي شرعه الله وفرضه ، وكم يُدمِي القلبَ أن نرى بعض الخطباء والعلماء ، ولا هَمّ لهم إلا تملقُ المسؤولين ، ومنافقةُ الحكام والولاة ، فهو اليوم يتبنى رأيًا وغدًا تراه يحيد عنه ، هكذا كل يوم على حال ، وما ذلك إلا مسايرة منه للأهواء ،

---

(1) البَخْع : قتل النفس غمًّا . مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص ١١٠ .

وتملقًا للحكام .

وكم رأينا أناسًا ـ أيام جبار مصر الأسبق (جمال عبد الناصر) ـ كانوا يشيدون بالاشتراكية ، ويعادون الملكيةَ الفردية ، ويهللون للتأميم ، وبعد أن هلك (جمال) ورحل ، غيَّر هؤلاء الخطباء وتلونوا وانقلبوا يهاجمون ما كانوا بالأمس يدعون إليه .

ونجد اليوم كثيرين من الخطباء يَدعون إلى تحديد النسل الذي يسمى تضليلًا « تنظيم النسل » ويَخلقون له نسبًا يتصل بالشريعة ، ويَحضّون الناس على الإقلال من الإنجاب ، زاعمين أن كثرة النسل تُنذِر بالشرور ، والويل والثبور ، وعظائم الأمور ، كل هذا لأن الدولة في مصر تتبنى وتشجع هذا الاتجاه ، وأنا على يقين مِن أن الدولة لو غيّرت من رأيها ، وحولت اتجاهها ، وتراجعت عن الدعوة إلى تحديد النسل وشجعت على الإنجاب ، لما تردد هؤلاء في تغيير موقفهم ، ولأداروا دفة الحديث إلى العكس ، وقلبوها رأسًا على عقب ، وأيدوا ما يقولون بالنصوص أيضًا !!.

روى العلّامة القرضاويُّ أنه « دُعِي أحدُ العلماء اللامعين إلى ندوة تليفزيونية في أحد الأقطار ، تدور المناقشة فيها حول موضوع « تحديد النسل » في نظر الشريعة الإسلامية ، وكانت دهشة الرجل المكلَّفِ بإدارة الندوة بالغة حين قال له هذا العالم : هل تهدف الندوة إلى تأييد التحديد أو معارضته حتى أهيِّء نفسي ؟ » (١) .

---

(1) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، د/ يوسف القرضاوي ، ص ٩٢ ، من سلسلة =

علاج هذا الضعف :

تلك بعض الأسباب ، وأما العلاج فيكون بإزالة أسباب الداء ، وعليه ينبغي إزالة الأسباب التي تعود إلى البيئة ، وكذلك الأسباب التي تعود إلى الخطيب ، التي أشرنا إليها سابقا .

وأذكر بعض المقترحات ـ بإجمال ـ آملا أن تُسهِم في العلاج ، على النحو التالي :

١ـ يجب تحقيقُ الكفاية للدعاة والوعاظ في معاشهم ، وتأمينُ احتياجاتهم ، وعدمُ تهديدِهم في أرزاقهم ، أو تعمّد إشغالهم بتدبير أقواتهم .

٢ـ يجب إلغاء القوانين المقيِّدةِ لحرية الوعاظ والدعاة والمهدِّدةِ لهم ، وتركُهم يخطبون بحرية ، ويبلغون ما عندهم من علم ، ويعرضون الإسلام بشموله ، في إطار التزامٍ كامل بآداب الدعوة إلى الله .

٣ـ أن لا تتبنى الدولة أفكارًا أو توجّهات معادية للإسلام ، وأن يلتزم القائمون على وسائل الإعلام والثقافة بأن لا يقدموا أو يعرضوا ما يعاكس مبادئ الإسلام .

٤ـ حفظ مكانة العلماء وصيانة كرامتهم ، وعدم تشويه صورتهم أو التشكيك في رسالتهم ، والضرب بقوة على أيدي من يخرجون على هذا الخط بأي شكل من الأشكال .

٥ـ على المؤسسات الإسلامية المعنية بإعداد وتأهيل وتخريج الدعاة

= كتاب الأمة ، قطر ، ط الثالثة .

الإسلاميين ، ومن يقومون بالعمل في مجال الوعظ الديني ، مراجعة مناهجها ، وتقوية الإيجابيات ، وتلافي القصور والسلبيات ، في جميع مراحل الإعداد ، بدءً بالانتقاء ، والتأهيل ، والتدريب ، ثم التوظيف .

٦ــ التوسع في إنشاء معاهد ومدارس الدعاة ، والاهتمام فيها بتخريج الخطباء البارعين ، والوعاظ المقتدرين .

٧ ـ عدم حرمان ساحة الدعوة الإسلامية من العلماء الكبار ، والفرسان الأبطال ، وإذا حدث من أحدٍ تجاوزٌ فيحقَّقُ معه من قِبَل علماء مختصّين ومخلصين ، ولا يتم إبعاده بناء على تقارير يحررها بعض الجهلة الذين لا صلة لهم بالعلم والخطابة ، ولا ورع لديهم ، وعدم خضوع العلماء للأهواء السياسية المتقلبة .

٨ ــ على الخطباء الدعاة والوعاظ الإسلاميين الاهتمامُ بتكوين أنفسهم علميًّا وفنيًّا ، والعملُ على رفع مستواهم من حينٍ إلى آخر ، حتى يكونوا مؤثّرين في عرضهم ، ومحققين لأهدافهم .

٩ـ على الخطيب الداعية أن يكون صورة صادقة لمبادئ دعوته ، وقدوة صالحة أمام جمهوره ، يتحلى بمكارم الأخلاق وجميل الصفات ، ويتخلى عن سفاسف الأمور وسيء العادات .

١٠ـ على الخطيب الداعية أن يكون صاحبَ دعوة ، لا مجرد موظف ، وأن يخلص لله في عمله ، ويحرص على هداية الناس ، وتبليغ الإسلام ونشره ، وأن يضَحِّي في سبيل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وأن يَثبُت على مبادئه ، لا يجامل على

حسابها ، ولا يخالف ما يعتقد أنه الحق ، أو يقول بغيره ، استرضاء لهذا أو ذاك .

والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

والحمد لله رب العالمين .

*****

المراجع

المراجع

١- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د/ محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط السابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م .

٢- إحياء علوم الدين ، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٣- الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ، محمود عبد الحليم ، دار الدعوة ، الإسكندرية .

٤- أدب الدنيا والدين ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٥- إرشادات عامة لتحسين خطبة الجمعة ، د/ محمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، عمّان .

٦- البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تحقيق د/ أحمد أبو ملجم وآخرين ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٧- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت .

٨- تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

٩- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، إبراهيم علي أبو خشب ، دار الفكر العربي .

١٠- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، د/ حسن إبراهيم ، دار الأندلس ، بيروت ، ط السابعة ١٩٦٤م .

١١- التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط السابعة ١٤١١هـ ١٩٩١م .

١٢- تذكرة الدعاة ، البهي الخولي ، دار الندوة الجديدة ، بيروت .

١٣- الخطابة ، أرسطو طاليس ، الترجمة العربية القديمة ، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩م .

١٤- الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط الثانية ١٩٨٠م .

١٥- الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق ، د/ عبد الغفار محمد عزيز ، (بدون دار النشر) ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

١٦- الخطابة وإعداد الخطيب ، د/ عبد الجليل عبده شلبي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط الثالثة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

١٧- سنن ابن ماجه ، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر .

١٨- سنن أبي داود ، الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

١٩- سنن الترمذي ، الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق صدقي محمد جميل العطار ، دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

٢٠- سنن الدارمي ، الإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٢١- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ، دار الحديث القاهرة ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٢٢- سير أعلام النبلاء ، تصنيف الإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الثانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

٢٣- السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار الوفاق ، بيروت .

٢٤- الصحافة والأقلام المسمومة ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، القاهرة .

٢٥- صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الريان ، القاهرة .

٢٦- العقد الفريد ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط الأولى ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م .

٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .

٢٨- فقهيات عالمات ، محمد خير يوسف ، دار طويق ، الرياض ، ط الأولى ١٤١٤هـ .

٢٩- فن الخطابة ، د/ أحمد محمد الحوفي ، نهضة مصر ، القاهرة .

٣٠- فن الخطابة دايل كارنغي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط الأولى ١٩٨٥م .

٣١- فن الخطابة وإعداد الخطيب ، علي محفوظ ، دار الاعتصام القاهرة .

٣٢- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٣٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط الثالثة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

٣٤- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م .

٣٥- مختار الصحاح ، الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٨م .

٣٦- المستدرك على الصحيحين للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، وبذيله التخليص للحافظ الذهبي ، دار المعرفة ، بيروت .

٣٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أبي عبد الله الشيباني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

٣٨- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة ، الشيخ محمد الغزالي ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط الخامسة ١٤٠٣هـ ١٩٨١م .

٣٩- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار عمران ، ط الثالثة .

٤٠- مفردات ألفاظ القرآن ، العلامة الراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم دمشق ، ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

٤١- مقدمة ابن خلدون ، العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط الثالثة .

٤٢- الموسوعة العربية الميسرة ، بإشراف محمد شفيق غربال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م .

٤٣- الموطأ ، للإمام مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م .

٤٤- هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ، الشيخ علي محفوظ ، دار الاعتصام .

*****

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضــوع الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضــوع | الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـوع **الصفحة**

الموضــوع	الصفحة

*****

المـــؤلف



أ.د: إسماعيل علي محمد علي.

* أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ــ جامعة الأزهر.

* من مواليد عام ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م، في قرية "كفر حماد"، مركز "كفر صقر"، محافظة الشرقية. مصر.

* حفظ القرآن الكريم ــ صغيرا ــ في كُتّاب القرية، ثم التحق بالأزهر الشريف، إلى أن تخرّج من كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ــ جامعة الأزهر ــ عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

* نال درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالقاهرة ــ جامعة الأزهر عام ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

* تدرّج في العمل الأكاديمي الجامعي إلى أن حصل على درجة "أستاذ" عام ٢٠٠٥م، ثم رئيسا لقسم الدعوة والثقافة الإسلامية، في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة عام ٢٠٠٨م.

* أستاذ في جامعة الأزهر، وفي معاهد إعداد الدعاة بوزارة الأوقاف، والجمعية الشرعية في مصر، كما عمل بالتدريس في كلية الشريعة ــ جامعة الملك خالد ــ السعودية.

* عضو محكَّم في اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين، في جامعة الأزهر.

* بلغ عدد رسائل الماجستير والدكتوراه والبحوث العلمية المحكَّمة، التي أشرف عليها وناقشها وحكَّمها حوالي ثلاثين رسالة وبحثا.

* عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر.

* زار عددا مِن الدول مثل أمريكا، ولبنان، والإمارات، وتركيا،

وأفريقيا، وشارك في أنشطة دعوية وعلمية فيها، كمـــا أنّ لـــه إسهامات من خلال الخطابة والندوات والمؤتمرات، والكتابـــة في الصحف والمجلات، والمواقع الإلكترونية، والفضائيات.

* له عدد من البحوث والمؤلفات، منها:

١ ــ الغزو الفكري .. التحدي والمواجهة.

٢ ــ مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية.

٣ ــ الغزو الفكري في وسائل ثقافة الطفل المسلم .. مظـــاهره وآثاره.

٤ ــ فن الخطابة ومهارات الخطيب.

٥ ــ الاستشراق بين الحقيقة والتـــضليل .. (مـــدخل علمـــي لدراسة الاستشراق).

٦ ــ مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإســـلام. [ردٌّ علـــى كتاب (محمد واليهود نظرة جديدة)].

٧ ــ آدم أبو البشر .. حقيقة لا أسطورة. [ردٌّ على كتاب (أبـــي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة) لمؤلِّفه الدكتور عبد الصبور شاهين].

٨ ــ خصائص الشريعة الإسلامية.

٩ ــ القدوة وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى.

١٠ ــ معالم الحياة الراشدة في بلاغ حجة الوداع.

١١ــ العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها .

١٢ــ الجذور الفكرية لانحراف الشخصية اليهودية.

١٣ــ الأُخوّة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة عصرية.

١٤ ــ فقه الدعوة في ضوء موقف "جعفر بن أبي طالـــب" أمـــام "النجاشي".

١٥ ــ صور من حقوق الطفل في الإسلام.

١٦ ــ فن كتابة الثقافة الإسلامية للطفل .

١٧ ــ الضوابط الأخلاقية المتعلقة بحقوق التأليف.

١٨ ــ كيف نحيا بالقرآن.

١٩ ــ نحو تأصيلٍ علميٍّ لمصطلحات علومِ الدعوةِ الإسلامية.

فن الخطابة
ومهارات الخطيب

بحوث في إعداد الخطيب الداعية



دار الكلمة
للنشر و التوزيع